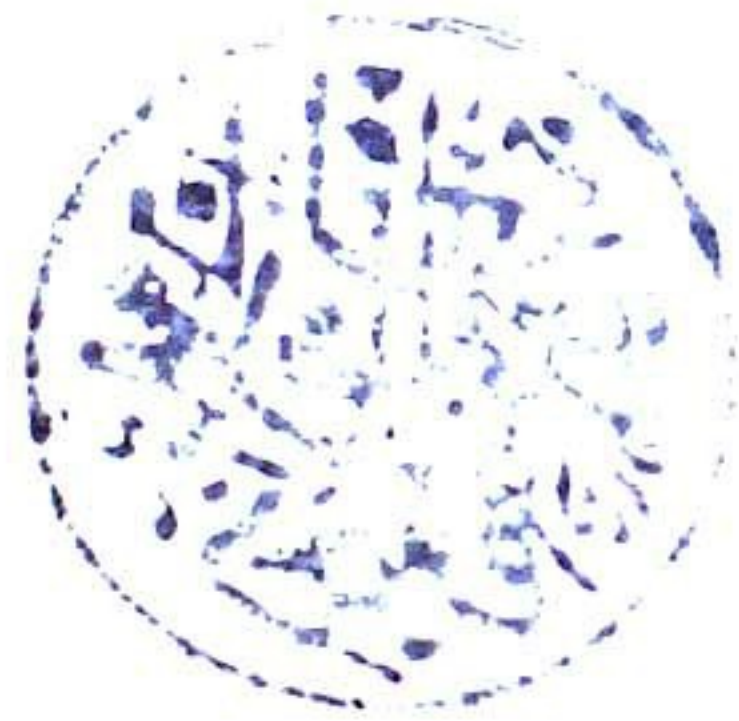


تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩



تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية



١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب. ٧٦٩

134962

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الفصل الاول

ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربي عند بداية الحركة الصليبية :

اعتاد المؤرخون أن يبدأوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى في القرنين العاشر والحادي عشر ، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى وكيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربي وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحرب الصليبية .

ومع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية ، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعي للموضوع يأتي من ناحية الغرب لا الشرق . حقيقة إن الاستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق ، ولكن البواعث التي دفعت الغرب الأوربي إلى تلبية تلك الاستغاثة ، والإسراع بالاستجابة لها والرد عليها رداً عملياً ، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربي وقت قيام الحروب الصليبية . ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوربا في العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التي حركت الحركة الصليبية .

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦ فترة قائمة امتدت حتى القرن الحادي عشر ، بإطلاق بعض المؤرخين

على تلك الفترة في التاريخ الأوربي اسم « العصور المظلمة » . ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التي أصابت المجتمع الأوربي في تلك الفترة على الانحلال السياسي ، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإقتصادية . وإذا كان غرب أوروبا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر ولم تلبث جموع الفيكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها في غرب أوروبا ، في الوقت الذي أوغل الهنغار يون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا ، يخربون ويفسدون . وفي وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فأنحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع ، وتنزل الأباطرة والملوك عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع . ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد مجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالباً في ظل نظام اعتمد على الاقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف .

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها — التي ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي — تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة^(١) .

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف في القرن الحادي عشر .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤١-٣٤٢ .

ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة في تاريخ أوروبا على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى في تاريخ غرب أوروبا^(١). ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة معينها لتحديد بداية حركة حضارية في التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التي تعرض لها غرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر، وهى الصحوة التي بلغت ذروتها في القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبتت منها النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر^(٢).

ويطلق المؤرخون على هذه الصحوة التي تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر اسم « نهضة القرن الثانى عشر ». وليس هذا مجال الخوض في تفاصيل هذه النهضة، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة في غرب أوروبا. ففي المجال السياسى بدأت أوروبا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفيكنج، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعياً حثيثاً لتدعيم سلطانهم في بلادهم. وفي المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون في نهم لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف التي استقوها وترجموها عن الكتب العربية، وبالتالي فقد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة في غرب أوروبا. وفي المجال الاقتصادى ظهر نشاط المدن وبخاصة في شمال إيطاليا، وصحب هذا النشاط هجرة كثير من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها مما أدى إلى تطور اجتماعى خطير^(٣).

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التي تعرض لها المجتمع الأوربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح في مجال الدين. ذلك أن

(1) Archer : The Crusades, p. 14.

(٢) سعيد عاشور : النهضة الأوربية س ١١١ - ١١٢ .

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها .

الكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الكلوونية وقد بدأت هذه الحركة بقصد إصلاح الحياة الديرية في القرن العاشر، ولكن لم يلبث أن اتسع نطاقها في القرن الحادى عشر حتى أصبح هدفها الرئيسى إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الكنيسة عندئذ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى^(١). وإذا كانت الكنيسة قد أفاحت في علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخليا عن طريق عدة مجامع عقدت في القرن الحادى عشر، فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الكنيسة في صراع عنيف مع السلطة العلمانية، وهو الصراع الذى نطاق عليه النزاع بين البابوية والإمبراطورية في العصور الوسطى^(٢). وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦ — أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً — واستمر بعد ذلك سنوات طويلة؛ وفيه حشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكانياتها للتغلب على الطرف الآخر.

وخالصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها في غرب أوروبا في القرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة وأمدت الكنيسة بقوة جبارة كان لا بد من استنفادها. ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية إنما جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر. على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفي صراع داخلى، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه. وعندئذ ظهرت فكرة الحرب

(1) Thompson : The Middle Ages, vol. 1, pp. 427—428.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤٥ وما بعدها .

الصليبية لتبهيء للغرب الأوربي ميدانا واسعاً يستغل فيه نشاطه المكبوت
وحماسته المنطلقة .

ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذي يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟
الواقع إن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التي أطل منها المؤرخون
على الموضوع . فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة
من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدي القديم الذي
ظهر بوضوح في النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم . ومن الواضح
أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل ديني ،
حيث أنه دار في عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين ؛ وربما بدا من
الأرجح ربطه بالعامل الحضاري بوصفه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين
متباينتين وأسلوبين في الحياة متباعدين . ويرى أنصار هذا الرأي أن الصراع
بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويشور أحياناً حتى كانت نهاية القرن
الحادي عشر فاشتد غليانه وثورانه ، وعندئذ وجد منفساً في الحرب الصليبية .
وزاد من حدة ثوران البركان في تلك المدة أنه وجد سبباً جديداً قويا للخلاف
بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية .

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من
محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن العربي — وبخاصة في الشرق
الأدنى — ليست في حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي
صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية^(١) . ذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية

(1) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land ; p. 15.

سنة ٤٧٦ أعقبته موجات من الهجرات التي قام بها المواطنون في بلاد الإمبراطورية الغربية . وقد تفاوتت هذه الهجرات في مداها الزماني وفي اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذي نجم عن سقوط الإمبراطورية ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها . وكان الناس في غرب أوروبا في العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية في صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها ولا حياة لهم بدونها ، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة . وفي ضوء هذه العقيدة يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذي انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب ، إذ رأوا في ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه وظنوا أن الساعة لا بد وأن اقتربت . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء نتيجة تدفق جموع الجرمان وقبائلهم داخل أراضي الإمبراطورية ، الأمر الذي ترتب عليه زعزعة أركان المجتمع الروماني القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان . ولم يلبث الجرمان أن اعتنقوا المسيحية ، فأمدوا العالم الروماني بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها في كثير من الهجرات التي اتجهت إلى شمال افريقية ، وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا . وينادي بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية في حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات التي اعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا انطلاقة كبرى *decumanus fluctus* نتجت عن عملية الإحياء الديني التي بدأت في غرب أوروبا في القرن العاشر والتي بلغت أشدها في القرن الحادي عشر ، كما سبق أن أشرنا ذلك أن حركة الإصلاح الكلوونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكل معاني الكلمة ، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة ، وتحقيق نوع من الإشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية ، وتقوية

الجهاز الكنسى وتدعيمه ، وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوروبى . ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية وعنف تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بالألأ يحارب الأخ أخاه ، ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كان الغربيون قد عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس ، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوربا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة^(١) . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة « en masse » ، فكان يخرج للحج بضعة مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياء من غرب أوربا فى صورة مظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضى المقدسة بالشام^(٢) . ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى ، تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩^(٣) .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب ، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً . ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة

(1) Iogra : Hist. des Croisades, pp. 3—11.

(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol 1. p. 76.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 269.

للدفاع عن أرواحهم في الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام؟ أما ذلك التطور في الأسلوب فمرجه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرده البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام^(١) .

وأخيراً فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ورأى في الحروب الصليبية الوسيلة التي تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقاً . ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً ، وكان كل من يحاول الخروج على هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها ، وبئس المصير . على أن الاتصالات التي تمت بين الغرب الأوربي والمسلمين — سواء المسلمين في الأندلس أو في المشرق — أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون ، فأخذت نسبة كبيرة من الناس في غرب أوروبا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها . وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة في القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس في التخلص من القيود المفروضة عليهم ، وتطلعهم إلى حياة أفضل . وكان من المتعذر في الظروف التي أحاطت بالناس في غرب أوروبا في ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة في حركة ضخمة مثل الحركة الصليبية تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفي الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل . وبعبارة أخرى

(1) Setton : op. cit., vol. 1, p. 78.

فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتاحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة .

هذه هي أهم النوافذ التي أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية . ونستطيع نحن في ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة بأنها :

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » .

أدوار الحركة الصليبية وعواملها الزمنية :

جرى الوضع في كتب التاريخ على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ١٠٩٥ ، ١٢٦١ . ولكن هذا التحديد في الواقع لا يعني سوى الدور الحاسم التقليدي في تلك الحركة ، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام . وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً ، كما أن التيار الصليبي استمر بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذي ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشرط كبير من القرن الخامس عشر . ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ١٠٩٥ ، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطيء لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفي بعلاج مبعثور يشمل جزءاً من تلك الحركة ، لا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عدم صحة ما جرى العرف عليه من تحديد الحملات الصليبية التي خرجت من الغرب إلى الشرق في المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر بثمان حملات . والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر . فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٨ ، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة ، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية ما حققته من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التى فازت بأرقام فى التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاما تضافى عليها قسما من الأهمية فى التاريخ .^(١)

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عددية ميزتها فى التاريخ ، فقد اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) ، وأخرى نزلت بشمال افريقية (الثامنة) . ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تمييز هذه الحملات بإعطائها أرقاما عددية دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السرف فى هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة (مثل الحملة الأولى) أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) ؛ أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب (الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 3.

الفصل الثاني

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة حركتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربي الغربي . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوهم لأراضي الإمبراطورية استغاثوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربي ؛ ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لمّا لبى نداء الاستغاثة ولمّا استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطية في تلك السرعة والقوة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التي أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه عام ، وفي تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد .

الباعث الديني :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً في ضوء العامل الديني وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام » .⁽¹⁾

(1) Archives de l'Orient Latiu, I, ps. 2, 22.

حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي
 كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ؛ ولكن ليس معنى
 ذلك أن التيار الديني هو المسؤول الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة
 الموجهة لها. وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح
 الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها ، وأن الباعث الديني كثيراً
 ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص (١) .

والوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل
 أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع
 من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وذلك حتى لا ننزلق في الطريق
 نفسه الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ؛ وهم الذين اعتادوا أن
 يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في
 البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ،
 وكيف أن كنائسهم خربت وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت . . . فضلاً
 عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة
 سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن
 الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها
 لا أساس له من الصحة ؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية
 من هذا الباب الوهمي كفيلاً بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقي للموضوع .
 فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون -
 الشرقيون والغربيون - في البلدان الإسلامية ، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades pp. 1-2.

الفصل الثاني

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة حركتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربي الغربي . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوهم لأراضى الإمبراطورية استغاثوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربي ؛ ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لِمَا لَبِي نداء الاستغاثة ولِمَا استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطية في تلك السرعة والقوة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التي أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه عام ، وفي تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد .

الباعث الدينى :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً في ضوء العامل الدينى وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام » .⁽¹⁾

(1) Archives de l'Orient Latiu, I, ps. 2, 22.

حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي
 كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها؛ ولكن ليس معنى
 ذلك أن التيار الديني هو المسؤل الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة
 الموجهة لها. وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح
 الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها، وأن الباعث الديني كثيراً
 ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص (١).

والوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل
 أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، وما اعترى تلك الأوضاع
 من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر، وذلك حتى لا ننزلق في الطريق
 نفسه الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين؛ وهم الذين اعتادوا أن
 يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في
 البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية،
 وكيف أن كنائسهم خربت وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت... فضلاً
 عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة
 سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها.

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضال بعيد عن
 الحقيقة والتاريخ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات مهظما
 لأساس له من الصحة؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية
 من هذا الباب الوهمي كفيلاً بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقي للموضوع.
 فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون -
 الشرقيون والغربيون - في البلدان الإسلامية، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades pp. 1-2.

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ^(١) » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة نثة، تنهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودوسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شئونهم الخاصة ، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت ^(٢) » حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسحوبين أحياناً في بعض البلدان لإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها ، وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية ، فإس هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية

(١) « وإن الذين أورتوا الكتاب من بعدهم لو بشك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا وإليه المصير . »

(سورة الشورى ١٤ ، ١٥)

(2) Thompson : Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385.

على السكسون والبافارين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم في مذبحه فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فرد جملة واحدة؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطي^(١) هذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند^(٢).

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت^(٣). ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه - مثل الخليفة الحاكم بأمر الله - من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكد الحاكم بموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دوماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية وصار لبيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس، كما وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام^(٤).

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩، ١٩٤، ٦٤٣ - ٦٤٩.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١٠.

(٣) Vasiliev: Byzantine Empire, I, p. 393.

(٤) Setton: op cit., vol. I, p 74.

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد^(١) » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هنية ، تنهدعها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة ، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت »^(٢) حقيفة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسحجين أحياناً فى بعض البلدان لإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فلم هوؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية

(١) « وإن الدين أورثوا الكتاب من بعدهم فإشك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . »

(- سورة الشورى ١٤ ، ١٥)

(2) Thompson : Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385.

على السكسون والبافارين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وخدمهم في مذبحه فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فرد جملة واحدة؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللثوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطي^(١) هذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند^(٢).

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت^(٣). ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه — مثل الخليفة الحاكم بأمر الله — من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكده الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دوماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس، كما وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام^(٤).

(١) سميد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩، ١٩٤، ٦٤٣، ٦٤٩.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١٠.

(3) Vasiliev : Byzantine Empire, I, p. 393.

(4) Setton : op cit., vol. I, p 74.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على المدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحي منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغبوا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها؛ « وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم »^(١) .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند الكلام عن القوى التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر؟ الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقاً وإنما أردت أن أصحح اعتبارين ظالماً وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاد فريد فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لاستثارة الغرب الأوروبى . وإذا كان بمض دعاة الحملة الصليبية الأولى — وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه — قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى المدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا؛ فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوروبى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين فى البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. 1, p. 391.

التي ظلت سائدة أمدًا طويلًا والتي صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادي عشر في صورة المسيحيين الخالصين الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجره الوطن والأهل والأحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد في سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى في الغرب الأوربي عرفت في التاريخ باسم « عصور الإيمان » ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس في غرب أوروبا في تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة في شخص زعيمها البابا هي التي دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا في شكل حملات صابية ضخمة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على الساميين واستخلاص الأراضي المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذي دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس — من أمراء وعامة — إلى تلبية نداء البابا في سهولة ويسر والخروج أفواجا من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت في القرن الحادي عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا — بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس — الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب^(١) . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب في إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذي استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى جعل من

(1) Vasiliev : op. cit., II, p. 397.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على المدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحي منصف قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغبروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها؛ « وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم »^(١) .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر في تحريك الحروب الصليبية؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند الكلام عن القوى التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر؟ الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقاً وإنما أردت أن أصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاد فريد في نوعه حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لا ستثارة الغرب الأوربى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى — وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه — قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا؛ فإن عامة الناس في مختلف بلدان الغرب الأوربى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. 1, p. 391.

التي ظلت سائدة أمدا طويلا والتي صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجره الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى عرفت فى التاريخ باسم «عصور الإيمان» ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صابية ضخمة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ودفع جموع الناس — من أمراء وعامة — إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر والخروج أفواجا من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا — بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس — الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب^(١) . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى جعل من

(1) Vasiliev : op. cit., II, p. 397.

134962

المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق^(١) وأخيراً جاء استنفاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحده للشعب المسيحي كافة في صراعه ضد المسلمين ، ولحاولة إدماج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين^(٢).

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيسي الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عاجلوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحيونها في بلادهم في ظل النظام الإقطاعي ، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق^(٣) . وأي وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين أتجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحي الكبير — لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً إخوانهم في الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٦ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

(3) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 302.

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلياً بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوروبا في القرن الحادى عشر .

الباعث بوقنصارى:

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته فى تحريك كثير من الهجرات والحروب الهامة فى التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا - وبخاصة فرنسا - فى أواخر القرن الحادى عشر . فالمؤرخ المعاصر جيورج نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز . وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر فى غرب أوروبا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون - وجلهم من اليهود - فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً فى الغرب الأوروبى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش^(١) . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية فى الغرب الأوروبى فى ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك فى وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها

(1) Thompson : op. cit., I, p. 392.

المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق^(١) وأخيراً جاء استنجد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحده للشعب المسيحي كافة في صراعه ضد المسلمين ، وللمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين^(٢).

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيسي الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عاجلوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحيونها في بلادهم في ظل النظام الإقطاعي ، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق^(٣) . وأى وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين أجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحي الكبير — لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً إخوانهم في الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سميد عاشور : أوربا المصور الوسطى ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

(3) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 302.

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلياً بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر .

الباعث الاقتصادي:

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والحروب الهامة في التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا - وبخاصة فرنسا - في أواخر القرن الحادي عشر . فالمؤرخ المعاصر جيورج نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز . وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أي بلد آخر في غرب أوروبا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون - وجلهم من اليهود - فالذي يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً في الغرب الأوربي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش^(١) . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها

(1) Thompson : op. cit., I, p. 392.

والزراعة وحقوقها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوروبا باباً جديداً للهجرة ، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون فى بطونهم قبل أن يفكروا فى دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلاحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوروبى — للمساهمة فى تلك الحركة، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانى ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً^(١) . وسرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجهتها نحو غزو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها

(1) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 — 133.

في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنوا وبيزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إكراهاً للكنيسة وابتغاء لرضا الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الغربية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . ففي معظم موانئ الشام وبلدته الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة ، فضلاً عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التي يتبعها الميناء . ولم تأبث إيطاليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لشبورها في عديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منحه الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسلين حياً خاصة بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥١ إلى منحه امتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ الصليبية في فلسطين .

وهكذا استطاعت الحركة الصليبية من أول أمرها بصيغة اقتصادية استغلالية واسعة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ارتاحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما برادوا المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من

والزراعة وحقوقها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوروبا باباً جديداً للهجرة ، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون فى بطونهم قبل أن يفكروا فى دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلاحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوروبى — للمساهمة فى تلك الحركة ، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق ، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانئ البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانئ ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اغتنامها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً^(١) . وسرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجهتها نحو غزو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها

(1) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 - 133.

في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنوا وبيزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إلا كرامة لا سكانية وابتغاء لمرضاة الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى اللاتينية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . ففي معظم موانئ الشام ومدينة الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الإيطالية التجارية إعفاءات خاصة ، فضلا عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التي يتبعها الميناء . ولم تلبث أن لما جنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة مما يراها في عديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منح الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس نجسار مرسلها حياً خاصاً بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥١ إلى منحهم امتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ الصليبية في فلسطين .

وهكذا استطاعت الحركة الصليبية من أول أمرها بصيغة اقتصادية استغلالية انتعشت فكتير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما لربح المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي بغية استغلال موارده والتجارة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من

الثروة . حقيقة إن الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية «أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين^(١) .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير من أسبهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات ، بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم و بعض في بلاد الشام . وقد استمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار - البندقية وجنوا وبيزا - في أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرس ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

الباعث الاجتماعي :

تألف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين - من الكنسيين والديرين - ، وطبقة المحاربين - من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist., I, p. 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين — من الأقدان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأوتان أقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها ، والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا لیسدوا حاجة الطبقتين الأولتين^(١) .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيقة ، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سفوفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية البسيطة^(٢) . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقدان الذين ارتبطوا ارتباطا وراثيا بالأرض التي يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكا خاصا للسيّد الإقطاعي لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية^(٣) .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيّد الإقطاعي مثل فلاحه أرضه الخاصة ، فضلا عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس ، التي يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزا لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

(١) سيّد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .

(2) Boissonade : Life and Work in Med. Europe, p. 85.

(٣) سيّد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧—٧٩ .

الثروة . حقيقة إن الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية «أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق» ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين^(١) .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير من أسبهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات ، بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم و بعض في بلاد الشام . وقد استمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار - البندقية وجنوا وبيزا - في أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرس ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

الباعث الاجتماعي :

تألف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين - من الكنسيين والديرين - ، وطبقة المحاربين - من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist., I, p. 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين — من الأقنان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها ، والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين^(١) .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الشيفة ، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سفوفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية البسيطة^(٢) . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا ارتباطا وراثيا بالأرض التي يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، فكل ما يجده القن يعتبر ملكا خاصا للسيد الإقطاعي لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية^(٣) .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والتجديتات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعي مثل فلاحه أرضه الخاصة ، فضلا عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزا لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) Boissonade : Life and Work in Med. Europe, p. 85.

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧—٧٩ .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات^(١). فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية الشعب الأوربي في القرن الحادى عشر . فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة . وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقتان والفلاحون لسيدهم الإقطاعى وهم صاغرون . فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها ، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه^(٢) .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوربا يحيمون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان . وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربى فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار ، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوربا دون أمل فى الخلاص . فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يحيمونها فعلا فى بلادهم الأصلية .

(1) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95.

(2) Painter : Med. Society, p. 51.

ومن هذا يبدو جلياً أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوروبا قد أسهموا في الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا في تلك الحركة منفذاً إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تسمرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وقدرراً مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها .

الباب الثاني العباسي :

ولسكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل ، فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟ .

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل تهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقدّيس ، والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات^(١). فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية الشعب الأوربي في القرن الحادى عشر . فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة . وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقتان والفلاحون لسيدهم الإقطاعى وهم صاغرون . فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها ، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه^(٢) .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوربا يحيمون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان . وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربى فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار ، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوربا دون أمل فى الخلاص . فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يحيمونها فعلا فى بلادهم الأصلية .

(1) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95.

(2) Painter : Med. Society, p. 51.

ومن هذا يبدو جليا أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوربا قد أسهموا في الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا في تلك الحركة منفذا إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وقدرًا مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جريا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها .

الباب العباسي :

ولسكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل ، فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟.

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيلب أوغسطس وفردريك الثاني ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل تهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس ، والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .

وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً، وإلا تعرض للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولائه شعبه. وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحد بعد آخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين. ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان؛ وعندئذ خرج الإمبراطور - مكرهاً لا بطل - على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأناقته « ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج! » (١).

هذا عن الملوك، أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية، فمنظمتهم كان يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبما استقرارهم فيها. والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سياسية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ. وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه (٢). ومن الواضح أن هذا المبدأ يعني بقاء

(١) المفريزي: السلوك ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩.

بقية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي ؛ الأمر الذي جعل الفرسان والأمرء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمرء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلمهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تفوضهم عما فاتهم في الغرب . حتى أولئك الأمرء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم في بلادهم الأصلية ، وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمرء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمرء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمتهم في طريقهم إلى الشام ، أي قبل أن يستولوا على الغنيمه فعلاً ، وكيف استحك النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلي عن مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسي للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا في بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة ، وعمثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمرء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمرء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمرء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن

وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً ، وإلا تعرض للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولائه شعبه . وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحد بعد آخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين ، ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان : وعندئذ خرج الإمبراطور - مكرهاً لا بطل - على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام ، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأثناء « ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج! » (١) .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية ، فمنظمتهم كان يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيها . والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض ، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع . وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض ، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه (٢) . ومن الواضح أن هذا المبدأ يعني بقاء

(١) المفريزي : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩ .

بقية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي ؛ الأمر الذي جعل الفرسان والأمرء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمرء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلمهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تفوضهم عما فاتهم في الغرب . حتى أولئك الأمرء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم في بلادهم الأصلية ، وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمرء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمرء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة عوهم في طريقهم إلى الشام ، أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً ، وكيف استحك النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلي عن مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسي للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا في بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة ، وعمثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمرء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمرء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمرء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن

مخالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين ، مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية .

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربي على المشاركة في الحركة الصليبية . ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب واطهار الشجاعة ، وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب . وعندما كثرت الحروب الإقطاعية وهددت المجتمع الغربي تهديداً خطيراً ، تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم « هدنة الله » وهي أوقات معلومة يحرم فيها القتال . وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم ، فاجتكروا المبارزة . ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء^(١) . لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة ، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الخربية ، بغض النظر عما في المشاركة في تلك الحركة الجديدة من سعي مشكور وذنوب مغفور .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

الأتراك وإحياء قوة المسلمين

ظهور السلاجقة - طغرل بك :

في الوقت الذي تنازعت السيادة على المسلمين في الشرق الأدنى خلافتان ، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية ، وفي الوقت الذي ساءت أحوال هاتين الخلافتين ، الأولى بسبب سياسية الخليفة الحاكم بأمر الله وازدياد نفوذ الوزراء العظام ، والثانية بسبب تفاقم سلطان بني بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة ؛ في ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى - هي قوة الأتراك - لتبث في العالم الإسلامي روحاً جديدة ، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المساميين والبيزنطيين في الشرق الأدنى^(١) .

والملاحظ أن بني بويه اعترام الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمراءهم . وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى في إيران - هي قوة الغزنويين الأتراك - الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩ . ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوي (٩٩٨ - ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله ، كما انتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ العنصر التركي في العالم الإسلامي^(٢) . وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم في شرق إيران والهند ، إذا بقبيلة أخرى - هي

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p 302.

(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 1, p. p. 139-140.

قبيلة السلاجقة - تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتوغل في إقليم خراسان .

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جدهم سلجوق بن تقاق وعاشوا أول أمرهم في إقليم تركستان حتى نزحوا إلى بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون ، وهناك اعتنقوا الديانة الإسلامية . وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة ، حتى ثاروا عليهم في نهاية الأمر ، واستطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٨ (٥٤٢٨ هـ) في الوقت الذي كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة في الهند^(١) . وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوي إلى خطر السلاجقة ، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنزل به طغرل بك الهزيمة في مايو سنة ١٠٤٠ وغنم السلاجقة « من العسكر المسعودي ما لا يدخل تحت الاحصاء » ؛ وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان^(٢) . وعند ما أدرك مسعود الغزنوي أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة ، حاول استمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة ، فكتب إليهم يعدمهم « بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط - وهي مدينة على جيحون - ونهاهم عن الشر والفساد » ولكن السلاجقة استخفوا بالرسول ولم يطمئنوا إلى نية السلطان مسعود ووعوده وقالوا « نحن لانطيعه ولا نثق إليه »^(٣) .

وفي ذلك الوقت اختار بقية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص ، فأخذوا يتوسعون على حساب المسلمين والبيزنطيين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. p 303-304.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

جميعاً ، ونجحوا فعلاً في بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى . أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها ، كما استولى على الري سنة ١٠٤٢ - ١٠٤٣ ، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠ واتخذ الأخيرة حاضرة لدولته^(١) . ومن ذلك المركز الجديد ، أخذ طغرل بك يتدخل في شئون الخلافة العباسية .

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بحنة قاسية بعد أن ظلت قرابة قرن - أي منذ سنة ٩٤٥ - ترزح تحت وصاية بني بويه وسيطرتهم . ذلك أن بني بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد ، فضلاً عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية . ثم إن اعتناق بني بويه للمذهب الشيعي وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنين على الاشتراك في أعياد الشيعة ، كل ذلك أدى إلى انتشار الفتن المذهبية في العراق^(٢) . وكان أمير الأمراء من بني بويه في أواسط القرن الحادي عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨ - ١٠٥٥) الذي ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه ، ظهر منهم رجل مغامر اسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري^(٣) . ولم يتورع البساسيري هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، بل إنه راسل فعلاً الخليفة المستنصر الفاطمي في هذا الشأن^(٤) . وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسي سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنين لمساعدته في إنقاذ الخلافة العباسية . وفي الوقت الذي قصد البساسيري

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ ، سنة ٤٤٢ هـ .

(٢) يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٥ هـ « في هذه السنة في الحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة ، وكان ابتداءها أواخر سنة أربع وأربعين ، فلما كان الآن عظم الشر وأطرحت المراقبة للسلطان واختلط باهريقين طوائف من الأتراك »

(٣) وصفه ابن الفلاني (ص ٨٧) بأنه « واحد من الغلمان الأتراك عظم أمره واستفحل شأنه ... واستولى على العباد والبلاد »

(٤) جمال الدين سرور : النهوض الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ - ١٠٠ .

دار الخلافة في بغداد « ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها »
 سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقتل على البساسيري ويقتله . وهكذا حل
 السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية « وتقدم الخليفة إلى
 الخطباء بالخطبة لطرغرل بك بجوامع بغداد ، فخطب له يوم الجمعة ^(١) .
 ولا شك في أن ما قام به طغرل بك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب
 السني أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي . هذا إلى أن طغرل بك استطاع
 بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها
 عندئذ ؛ فصارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة
 العباسي وبالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقي ^(٢) . أما طغرل بك نفسه فقد خلع
 عليه الخليفة العباسي وأضفى عليه ألقاب التشريف ، كما زوجه الخليفة من ابنته ^(٣) .
 وهكذا تبدل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ ،

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٤٧ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 304.

- (٣) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة واحدة
 كبرى ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلى خمسة بيوت : —
 ١ — بيت طغرل بك وتسمى دولته السلاجقة الكبرى ، وقد ملكوا خراسان
 والري والعراق العربي والجزيرة وفارس والأهواز ، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٩
 (٤٢٩ هـ) حتى سنة ١١٢٧ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت على يد الخوارزمية .
 ٢ — بيت سلاجقة كرمان ، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ،
 وهو أخو ألب أرسلان . واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ هـ) حتى سقطت على
 يد الغز الزنكمان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) .
 ٣ — سلاجقة عراق العجم وكرديستان ، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ هـ)
 حتى سقطت على يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ) .
 ٤ — سلاجقة الشام ، وهم من بيت تنش بن ألب أرسلان ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤
 (٤٨٧ هـ) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) .
 ٥ — سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وكانوا من بيت فتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ،
 وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا على يد الاتراك العثمانيين سنة
 ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً .

فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجدد على حدودها الشرقية في القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً ومنقسمة على نفسها مذهبياً وحربياً ، إذا بالعنصر التركي الذي ظهر على مسرح الأحداث في القرن الحادي عشر يبيت في الدولة الإسلامية ، روحاً جديدة وعزيمة قوية ويهيء للمسلمين في الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من استئناف التوسع من جديد ، وخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين .^(١) وكان ذلك في الوقت الذي دخلت الدولة البيزنطية دور ركود جديد بعد الصحوة التي مرت بها في القرن العاشر ؛ مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى توسعاً آمناً مطرداً في القرن الحادي عشر .^(٢)

على أنه ينبغي ألا نعتقد أن الغزو السلجوقي لأراضي الدولة البيزنطية اتخذ طابعاً إجماعياً مفاجئاً . فمنذ النصف الأول للقرن الحادي عشر اعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة ؛ أمثال ابراهيم بن إينال وقتلمش . من ذلك ما قام به ابراهيم بن إينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينيا — التي كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموا إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا — فأوغل السلاجقة في الأراضي البيزنطية حتى وصلوا إلى ملاز كرد وأرزن وبلغوا طرابزون على شاطئ البحر الأسود ، وعندئذ أكثر السلاجقة من « القتل في الروم وهزموم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم »^(٣) . ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً في فتح باب العداء عندئذ مع القسطنطينية ، فأمر بإغلاق سراح القائد البيزنطي الذي أسره ابراهيم

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302.

(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355.

(3) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. p. 595—596. &

ابن الأثير : ١١ . كامل ، حوادث سنة ٤٤٠ هـ .



الدويلات الاسلامية
 في الشهور الاخرى
 في القرن الحادي عشر

ابن إينال^(١) ، وأرسل بعثة إلى القسطنطينية ، لعقد الصلح .^(٢) وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت سريعاً بين السلاجقة والبيزنطيين ، إذ استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين ، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢ ، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينيا سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن^(٣) ؛ وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تتمكن بأي حال من الاستيلاء على ما تزكرت ، فاكتمل بأن «حصرها وضيق على أهلها ، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها» .^(٤)

ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا في عهد قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينيا بغية السلب والنهب ، إلا أنهم لم ينجحوا في احتلال مركز قوى يثبتون فيه . على أن الموقف تغير عندما اشتدت هجمات السلاجقة على أراضي الدولة البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ ، ١٠٨١ ، فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية (أكتوبر ١٠٤٧) .^(٥) وفي سنة ١٠٥٩ أو غل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محميين بالأسلاب والغنائم . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة استمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضي الدولة البيزنطية^(٦) .

(١) يذكر ابن الأثير أن طغرل بك أسر « قاربط ملك الأبخاز ، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك » (حوادث سنة ٤٤٠ هـ) .

(٢) ويقول المقرئ أن ملك الروم هو الذي أرسل يطلب الهدنة من طغرل بك وهداه « وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك » (السلوك ج ١ ص ٣٢) .

(3) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. p. 596—597.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ .

(5) Setton : op. cit., I, p. p. 144—147.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. XXX.

ألب أرسلان وموقفه مما تركت :

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) مكانه في الحكم ، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديداً ، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة وامتلاكها ، بدلا من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب . ففي سنة ١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس ، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينيا ، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى^(١) وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده . ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول بعد أن استولوا على قلب أرمينيا ، فاستمروا منذئذ - دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة - يجتاحون القرى والضياع ، متجنبين بقدر الاستطاعة المراكز القوية المحصنة ، حتى دمروا إقليم كبادوكيا بأكمله ، ثم وصلوا إلى قيصرية فخرّبوها سنة ١٠٦٧ ، واعتمدوا على كنيسة القديس باسل^(٢) كل ذلك والامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٦ - ١٠٦٧) جامد لا يتحرك ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذي شيده أسلافه في القرن العاشر ، وبخاصة باسل الثاني .

على أنه لم يلبث أن تولى عرش الامبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية ، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة ، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي صارت الفرق الأساسية فيه تتألف من جنود مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركان الآسيويين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

فضلا عن الفرنجة الغربيين . وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الامبراطور رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة . وعلى الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت برومانوس ومهمته ، إلا أنه نجح إلى حد كبير في تحقيق غرضه . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهي ^(١) .

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصريّة للوصول إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية (سنة ١٠٦٨) . ولم تكد تنتهي تلك السنة حتى كان الامبراطور قد وصل إلى منبج « في عسكر كشيّف » على الضفة الغربية لنهر الفرات - وهناك ترك حامية في أرتاح شرق انطاكية ^(٢) . ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها في تلك الأثناء ، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى هبوا عمورية في قلب فريجيا ، وبذلك لم تعد أرمينيا تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى ، وصارت مسالك تلك البلاد مألوفاً لهم ^(٣) . على أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة في قلب آسيا الصغرى ، إلا أنهم حرصوا دائماً على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطوري ، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان ان استطاع رومانوس الرابع - على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة في قيليقية - أن يطاردهم السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل في غرب أرمينية ، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التي أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطي ، ثم استيلاء السلاجقة على تلك المدينة . وفي سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 304.

(2) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 626. &

ان الأثر : الكامل ، سنة ٤٦٢ هـ .

(3) Vasiliev : op. cit; I, p. 355.

أخرى بالقائد البيزنطي ماوريل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد .
 هذا مع ملاحظة أن الرها - في بلاد النهرين - ظلت طوال تلك الأثناء في
 قبضة البيزنطيين ، فصمدت لجميع الهجمات التي تعرضت لها من جانب
 السلاجقة (١) .

أما ألب أرسلان فكان قد انتهى في ذلك الوقت من تصفية المشاكل
 الداخلية في دولته ، فعاد من إيران وقد صمم على اتباع سياسة الجهاد الديني العام
 ضد الروم وكان أن استولى ألب أرسلان على ملازكرد (مانزكرت) سنة ١٠٧٠ ،
 وهي تقع شمالي بحيرة فان ، وكانت من البقايا الأخيرة التي تبقت للدولة البيزنطية
 في أرمينيا ، ثم اتبع ذلك باسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً
 قصد الرها « فحصرها فلم يظفر منها بطائل » ، وعندئذ اتجه ألب أرسلان على
 رأس قواته ضد حلب - وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسي - فخضعت
 حلب للسلاجقة وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذي « خلع على محمود
 (المرداسي) وأعادته إلى بلده » (٢) .

وفي تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع في القيام بمحاولة جديدة لاسترداد
 أرمينيا - وكان ذلك في ربيع سنة ١٠٧١ - فخرج على رأس جيش ضخم
 يتألف من مائة ألف مقاتل ، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من
 النورمان والتركمان ، مما جعله مفتقراً إلى حسن التنظيم . وعند وصول رومانوس
 الرابع إلى أرزن ارتكب خطأً كبيراً بتقسيم قواته ، فأرسل جزءاً من جيشه
 مهاجمة مدينة خلاط ، في حين سار هو على رأس بقية الجيش تجاه مانزكرت
 واستولى عليها فعلاً . ولم يكد ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب
 قاصداً أرمينية حيث اتبع " سياسة التقليدية للسلاجقة وهي تجنب الاصطدام

(1) Grousset : L'Empire de Levant, p. 165.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ .

بالجيوش البيزنطية . وعند ما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته ، رد الإمبراطور قائلاً « لا هدنة إلا بالرى » أى أنه بنوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى ؛ وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان ، ولم يعد هناك مفر من القتال^(١) .

وفي ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ التقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوى ملازكرد (مانزكرت) ، أو على وجه التحديد بين مانزكرت و خلاط . وفي الموقعة الحاسمة التي دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً « وقتل من الروم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بحث القتلى »^(٢) . ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أبلى بلاءً حسناً وحارب بشجاعة و بسالة حتى سقط فرسه قتيلاً من تحته ؛ ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ في إضعاف قوة البيزنطيين ، إذ انفض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان واستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة . بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم في تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمركة مازالت دائرة ، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقيم في قبضة أعدائه^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن موقعة ملازكرد (مانزكرت) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادى عشر . وليس هذا مجال الإفاضة في أثر هذه الموقعة في التاريخ البيزنطى ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط الإسلام ، وفي حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو الأسيويين ، و بذلك صار على الغرب

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ .

(٢) المرجع السابق والسنة نفسها .

(3) Vasiliev : op. cit: I, p. 356.

الأوربي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية . وبعبارة أخرى فإن موقعة مانزكرت تبرر — في نظر كثير من المؤرخين — ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوربي ، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١^(١) .

على أنه ثمة حقيقة أخرى أ كسبت موقعة ملازكرد (مانزكرت) أهميتها الخطيرة في التاريخ ، هي أن المجتمع البيزنطي كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة إن انتصار السلاجقة في ملازكرد كان لايعنى — بالنسبة لأفقيهم المحدود في ذلك الوقت — أكثر من امتلاكهم أرمينيا ثم أنطاكية والرها . وفي ضوء هذه الحقيقة عامل السلطان ألب أرسلان أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة ، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره ، وأعادته إلى بلاده معززاً ؛ بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر^(٢) . ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الامبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية في الشرق الأدنى ، وأن يقوم الإمبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضي البيزنطية^(٣) . وهكذا بدلا من أن يستغل ألب أرسلان انتصاره في محاولة احتلال بقية آسيا الصغرى ، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢

(1) Ostrogorsky, op. cit; p.305.

(٢) يروي ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير ونحبه وقال له : « ألم أرسل لك في المهادنة فأبيت ؟ » فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان « ما عزمتم أن تفعل بي إن أسرتمني ؟ » فقال « القبيح ! » قال له : « فما تظن أنني أفعل بك ؟ » قال « إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلادك ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائباً عنك » . قال : « ما عزمتم علي غير هذا » . ففداه بألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين . (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٥) .

(3) Setton : op. cit; , ps.I; 149, 193.

إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيحون)^(١) .
ولكن البيزنطيين — بانشقاقهم وانقسامهم على أنفسهم — هم الذين وسعوا
الفتق وضاعفوا من خطر الهزيمة ؛ فلم يكفهم ضياع أرمينيا ، وإنما تسببوا في
فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريحها أمام السلاجقة . ذلك أن أخبار كارثة
ملاز كرد لم تسكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع امبراطورا
(١٠٧١ — ١٠٧٨) . وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه
وسميت عيناه ، وعلى تلك الصورة توفي رومانوس بعد ما أبداه من شجاعه في
مانزكرت^(٢) .

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر
(جيحون) ، خلفه ابنه ملكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) الذي ثبت دعائم دولة
السلاجقة حتى اتسعت في عهده وامتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرية
غربا .^(٣) ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد في أن امتداد دولة السلاجقة غربا
على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية ، لأنه من الحقائق التي تسترعى
انتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول ، وإنما قام بمتابعة
الحرب ضد البيزنطيين أحداقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلش الذي تمكن من
بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا^(٤) . وساعد سليمان

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ — ٤٦٥ هـ .

(٢) Vasiliev : op. cit, I, p. 356.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٥ هـ ، ابن العبري ص ١٨٦ .

(٤) حدث في أواخر أيام السلطان طغرل بك أن انشق عليه أحد أبناء عمومته وهو
قتلش بن إسرائيل بن ساجوق ، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ومعه بعض
التركان . ولم يلبث قتلش أن أعلن الثورة على ألب أرسلان ، واختار أبناء قتلش — وهم
كل منهم عصبية من التركان — أن يحتموا بجبال آسيا الصغرى وفيافيها . وقد ظهر من هؤلاء
الأبناء سليمان بن قتلش الذي أخذ يعمل على التوسم في آسيا الصغرى لحسابه الخاص ضد
ملكشاه والبيزنطيين جميعاً ؛ مما يعتبر مقدمة لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

(Setton : op. cit; I, p. 150.).

ابن قتيماش في تحقيق سياسته الحالة التي أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال
اجتماعي ونقص في السكان ، بعد أن هجر كثيرون أرضهم ، وبخاصة في الجهات
الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال
الضياع الخربة التي هجرها أصحابها من البيزنطيين في آسيا الصغرى .

نوع السلاجقة في آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية ، مكنت
السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيثينا حتى بحر مرمرية ، ومن الاستيلاء
على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجه . وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الامبراطورية
البيزنطية في القرن الحادي عشر أنه تولى عرش الامبراطورية في مدى ست
وخمسين سنة (١٠٢٥ - ١٠٨١) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان ، بمعدل
أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور ، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التي
كانت تعيش فيها الامبراطورية في ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة
— باستثناء واحد أو اثنين — كانوا على قدر ضئيل من المقدرة والكفاية ،
مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات لثورة والاستقلال
عن الحكومة المركزية في القسطنطينية ^(١) .

وقد حدث في مطلع سنة ١٠٧٨ أن خرج نقفور (Nicephorus Botaneiates)
— حاكم إقليم عمورية في فريجيا — على الأمبراطور ميخائيل السابع دوقاس . ولم
يتردد نقفور الثائر في إعلان نفسه امبراطورا باسم نقفور الثالث ، بل إنه استعان
بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم الثائر على
كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخالقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول
مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الأمبراطورية ، أي باسم الإمبراطور

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 1. f.

نقفور الثالث (١٠٧٨)^(١) . وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة التي قامت فيها جاءت من نوع غريب ، إذ تألفت من رجال يدينون بالإسلام و يحدون لذة في الإغارة على القرى والضياح المجاورة للنهب والتدمير ، فضلاً عن أنهم قطعوا الاتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول . ولم تكد تنتهي سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية السلاجقية قد رفعت راية العصيان في وجه نقفور الثالث الذي أقامها في تلك المدينة.^(٢) وفي تلك المرة لم يعد السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطي جديد - اسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melessenus - عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلش ، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا نقفور الثالث في الاستيلاء عليها^(٣) .

وكان أن ألقع نقفور الأخير من كوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة ، فاحتلوا نيقية وبيثينا بأكلها ، وكان احتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً وثابتاً في تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشروا نشاطهم الحربي عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثائر ، إلا أنه حدث في السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الامبراطورية مشاكلاً الداخلية بإعلان الكسيوس كومنين امبراطوراً أوحداً ، ودخول نقفور الثائر في طاعة الامبراطور الجديد ، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلش الاعتراف بأي حق للامبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي احتلوها في آسيا الصغرى .^(٤) وقد اختار سليمان بن قتلش السلاجوقي مدينة نيقية لتكون مركزاً له ، وهي المدينة التي أصبحت

(1) Vasiliev : op. cit., I, p. 357.

(2) Ostrogorsky : op. cit; p. p. 308—309.

(3) Ostrogorsky : op. cit; p. 308.

(4) Vasiliev, op. cit; I, p. 357.

أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول ، حتى حلت محلها قونيه فيما بعد (١٠٨١-١٣٠٢). كذلك خسر البيزنطيون في ذلك الوقت ني قوميديا التي لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين استردادها إلا بعد أن توفي سليمان سنة ١٠٨٦. ثم كان أن احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجه ، فقام أميرها التركي زاخاس بإنشاء اسطول مكناه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطئ آسيا الصغرى ، بل لقد هدد القسطنطينية ذاتها^(١). وفي الشمال الشرقي من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركية تأسيس إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا ، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة .^(٢) ولا شك في أن هذه الامارات العديدة التي نشأت في ظل حركة التوسع السلجوقي ، والتي أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقي عام ، أقول إن هذه الامارات جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين^(٣).

وهكذا كان الأتراك — عند قيام ألكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ — هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمره غرباً^(٤). على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك ، وإنما ظل الأمراء المحليون — مثل زاخاس أمير أزمير ، ودانشمند في كابا دو كيا — لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلش . وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢ على يد قلعج أرسلان الأول ، ابن سليمان^(٥).

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 319.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 170—173.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 331.

(4) Setton : op. cit; vol. 1, p. 213.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. p. 331—332.

أما سواحل آسيا الصغرى - السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابزون ، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية - فقد ظلت في قبضة البيزنطيين . ولعله مما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ، فإن هناك مدن أخرى متطرفة في الشرق - في الشام مثل أنطاكية وشرقي الفرات مثل الرها - بقيت تابعة للدولة البيزنطية ، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية ، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧^(١)

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى في آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضي المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات مما جعل كثيرا من أهالي المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها قاعا صفصفا ليحتلها الأتراك . ويبدو أن سليمان بن قتلش حرر كثيرا من عبيد الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وبذلك اكتسب ولاء تلك الفئة التي طالما قاومت الكثير من الاستعباد والظلم . ولعل هذه الحقائق كلها هي التي جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التي أخذت تفد من الغرب منذ أواخر القرن الحادي عشر استرداد أراضي الأناضول من الأتراك بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركان وضربوها فيها خيامهم حتى غدت وكأنها قطعة من مراعي القرغيز^(٢) .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 12.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 173.

الفصل الرابع

الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادى عشر

النورمان فى آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بجموع من النورمان المرتزقة ،
الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من
صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى^(١) . وقد برز من هؤلاء المغامرين النورمان
رجل طموح اسمه رسل باليل Roussel de Bailleul أراد أن يستغل الصراع
بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر
فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً^(٢) .
ولم يلبث رسل باليل أن أعان عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجهات
المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً .
وهكذا وجد القائد البيزنطى اسحق كومنين - الذى كان مكافئاً بمحاربة السلاجقة
فى آسيا الصغرى - نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة^(٣) .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ،
وهو المفروض أن يكون أجيراً للإمبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل
الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنادوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه
الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية وأسر القائد البيزنطى تلك المرة

(1) Setton : op. cit; I, p. 200.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I, p. 283.

(3) Schlumberger: Recits de Byzance et des Croisades, p, 82.

أيضاً^(١) . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل و بطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه إلى البسفور في مواجهة القسطنطينية ؛ حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم إن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس إمبراطوراً حتى يكسب نفسه وحكمه صبغة شرعية^(٢) .

وهنا خشي الامبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا في البلقان ، لذلك استنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما ترك أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطي ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى^(٣) . ذلك أن سليمان بن قتلش عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطي سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقديم المساعدة المطالبة للإمبراطورية ، بشرط استيلائهم على الأراضي التي يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود في وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد استطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانئ البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد سلجوقي جديد إلى الأناضول — هو تنش — الذي أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فاستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطي الجديد في آسيا الصغرى ، وهو ألكسيوس كومنين الذي غدا امبراطوراً فيما بعد^(٤) .

وهكذا استسلم أتباع رسل من النورمان في آسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التي قام بها النورمان لإقامة دولة لهم في الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 307.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284.

(3) Schlumberger : Recits de Byzance, p. p. 84—85

(4) Brehier : op. cit; p. 284.

الصلبيون النورمان إمارة لهم في أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم في الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من ازدياد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى^(١) .

دولة الأرسنة الأولى في طوروس:

اتخذت حركة انتشار السلاجقة في آسيا الصغرى اتجاهها أفقيا من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينيا وكابادوكيا وفريجيا وبيثينا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى — حول طوروس وملطية ثم الرها وأنطاكية — فلم يتجه إليها السلاجقة في أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الامبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقي الرحي في الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة في آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزا لحركة إحياء أرمينية فريدة في نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التي استطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية^(٢) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينيا وأمراءها ضياعاً واسعة في إقليم كابادوكيا . مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم في شرق آسيا الصغرى^(٣) . ولكن توسع الأتراك السلاجقة في كابادوكيا واستقرارهم في ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى

(1) Grousset ; L'Empire du Levant p. p. 168—169.

(2) Grousset ; Hist. de l'Arménie, p. 554.

(3) Setton : op. cit; p. 179.

جديد ، فاتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلي في جنوب شرق آسيا الصغرى ، وتركزوا في الجهات المحيطة بمطية والرها وأنطاكية^(١) .

وليس هناك من شك ، في أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة ، فضلا عن أن الحكومة البيزنطية — رغم عداؤها التقليدي للأرمن بسبب الخلاف المذهبي بين الكنيستين^(٢) — استطاعت أن تجد في ذلك الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى جنوداً اعتمدت عليهم في مواجهة الغزو السلجوقي . ويأتي فيلاريتوس براخاموس Philaretos Brakhamios^(٣) على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الامبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها في جنوب شرق آسيا الصغرى . وكان هذا القائد الأرمني قد عمل تحت قيادة الامبراطور رومانوس الرابع ، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الامبراطور سنة ١٠٧١ ، رفض فيلاريتوس الاعتراف بالامبراطور الجديد ميخائيل السابع^(٤) .

وهنا يلاحظ أن الأرمن في شرق آسيا الصغرى استخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وفي الوقت نفسه عمل الأرمن على استرضاء السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم^(٥) . ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والابلسين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية ، ازدادت منعة بعد أن نجح في استرداد مطية التي كان السلاجقة قد استولوا عليها سنة ١٠٦٩ . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته ، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ؛ الذين كانوا بدورهم قد امتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية . وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية

(1) Iorga : L'Arménie Cilicienne p. p. 87—88

(2) Idem, p. 89.

(٣) أطلق عليه ابن الأثير اسم الفلادروس (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ)

(4) Brehier : op. cit; p. 284.

(5) Cam. Med. Hist, vol. 2, p. 260

في قيليقية ، هي طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين ، فحاصرها ستة أشهر حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطي عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشي أمراء المدينة وأهلها - ومعظمهم من الأرمن - أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ؛ ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس ^(١) .

والواقع إن المسيحيين في أنطاكية والرها وغيرها من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة ، بعد أن قطع الطريق بينهم وبين قلب الامبراطورية البيزنطية ، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية ، لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم ، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين في تلك المنطقة الذين احتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية ^(٢) .

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمنية جديدة في جنوب شرق آسيا الصغرى ، وهي الدولة التي اكتمل نموها فيما بعد - أي في القرن الثالث عشر - على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمينيا الصغرى ^(٣) . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين - أوعلى وجه التحديد الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١ - ١١٨٠) - استردوا جزء من تلك الدولة الأرمنية التي وضع أساسها فيلاريتوس ؛ ولكن ذلك لم يحل دون استمرار دولة الأرمن في طوروس ^(٤) . ولم يلبث الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ - ١٨٠١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم

(1) Brehier : op. cit; p. 285.

(2) Grousset : L'Empire du Levant. p. 180.

(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. 89.

(4) Vasiliev : op. cit; vol. 2, p. 415.

العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمني ، في الوقت الذي أظهر فيلاريتوس من جانبه اعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة الامبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف في حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبني عقيل ؛ وهم أمراء الموصل العرب^(١) . ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضاً ، وأنه كان مستعداً - إذا دعى الأمر - لاعتناق الإسلام في سبيل خدمة مصالحه الخاصة^(٢) .

على أن السلاجقة كانوا لا يمكن أن يفضوا البصر تماماً عن تلك الإمارة الأرمينية التي اعترضت طريق توسعهم إلى الشام . لذلك انتهز سليمان ابن قتلمش السلجوقي فرصة الاضطراب الذي حدث في دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر ابنه ضده ، وباغت أنطاكية « وملكها سرقة » سنة ١٠٨٥ ، أي قبل استيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة^(٣) . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالة بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لحو معالم الحكم البيزنطي وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية

(١) سيطر العقيليون على الموصل سنة ٩٩٦ على يد الأمير حسام الدين المقلد ، وظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربغا (كربوفا) السلجوقي . وفي الفترة التي نتكلم عنها كان حاكم الموصل بن بني عقيل هو شرف الدولة أبو المكارم مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) كذلك يؤكد المؤرخ ابن الأثير أن فيلاريتوس (الفلادروس) مثل بين يدي السلطان ملكشاه ، وأن الأخير « أمره على الرها ، فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير تزار (بزاق) » .

(الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٠ هـ) .

(٣) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ .

من المدينة ، مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية وتهصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية^(١) .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماماً من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية ، لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدي المسلمين ثم الصليبيين ، احتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس - واسمه جبريل - بملطية ، وإن كان قد أعلن ولاءه للسلاجقة^(٢) . ومثل ذلك حدث أيضاً فى الرها ، فباستثناء فترة قصيرة احتل فيها الأمير التركى بوزان (١٠٨٧ - ١٠٩٤) مدينة الرها ؛ استطاع ثوروس - وهو قائد أرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس - أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين^(٣) . حقيقة إن تتش - أخو السلطان ملكشاه - استولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة^(٤) .

وهكذا مهد الحكم الأرمنى فى شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحكم الأرمنى لنشأة مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر ، وهى المملكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ومهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية بل فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. XL 111.

(2) Setton • op. cit; I, p. 299.

(3) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. 175 & Runciman : A Hist. of the Crusades, I; p. 75.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ .

البرقة وبلاد الشام :

يلاحظ أن استيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات في صفوف المسلمين في الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفه تابعا للأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الاستقرار السائدة في المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ؛ ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للاستيلاء على حلب من بني مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن^(١) .

وفي ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقي تاج الدولة أبو سعيد حسن ابن السلطان العادل الأرسلان ، وأخو ملكشاه^(٢) . وكان سبب حضوره إلى الشام أن أخاه ملكشاه « أقطعه الشام وما يفتحه في تلك النواحي »^(٣) . وكان أن بدأ تنش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة في بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلي إلى التخلي عن تنش الذي لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها واتجه جنوبا صوب دمشق . وقد أسرع مسلم من الاستفادة من الموقف في شمال الشام عقب انسحاب تنش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسي ، وبذلك أصبح مسلم

(١) كان أمير بني مرداس في حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود ، وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .

(٢) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤ .

(٣) يلقب ابن الفلانسي تاج الدولة تنش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

(٤) التبريزي : نهاية الأربج ٢٥ ورقة ٣١ ، ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٤٧١ .

العقيلي سيد حلب والموصل واعتقد أن في استطاعته مقاومة السلاجقة والخدم من نفوذهم. ثم إن الأمير مسلم لم يكتبف بأن خدع تنش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة ، وإنما دخل أيضاً في صراع مكشوف مع سليمان بن قتامش الذي سبق أن رأينا جهوده في فتح الأناضول . ذلك أن سليمان استولى في أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس ، وهي المدينة التي ادعى بنو عقيل أحقيتهم في ملكيتها ، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتامش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى ، وهو الصراع الذي لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام^(١) . وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية في صيف سنة ١٠٨٥ انتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله ، وعندئذ أتجه سليمان بن قتامش مباشرة لحصار حلب^(٢) التي قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحتيتي^(٣) .

أما تنش — أخو ملكشاه — فكان في تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام ، فأجه به — فشله في الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصارا للسلاجقة .

ذلك أن أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان — وأسمه أتسز ابن أوق — كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص^(٤) . ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أتسز قد استولى من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها ، عدا أرسوف . وفي سنة ١٠٧٥—١٠٧٦ استولى أتسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها . وعندما ثارت بيت المقدس

(١) Setton : op. cit. I, p. p. 150—152.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ — ٩٢ (مطوع) .

(٣) وهو الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي .

(٤) ابن الفلاني : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ — ٩٩ .



ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمي ، أخضعها أتسز في عنف وأحدث فيها مذبحاً
رهيباً سنة ١٧٠٦ - ١٠٧٧ .

على أن أتسز لم يلبث أن فشل في محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن تصدى
له أمير الجيوش بدر الجمالي وأنزل به الهزيمة^(١) . ويبدو أن هذا النصر الذي أحرزه
بدر الجمالي شجعه على إرساله حملة لأسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون في حصارها
فعلا في الوقت الذي اخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما جعل الفاطميين
يؤثرون الانسحاب ، في حين رحب أتسز بمقدم تتش « وخدمه و بذل له
الطاعة والمناجحة وسلم البلد إليه »^(٢) . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض بأن يكون
أتسز إلى جانبه في دمشق ، ففكر في التخلص منه ، وقتله فعلا سنة ١٠٧٩ :
وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش في دمشق « فأحسن السيرة في أهله و عدل
فيهم »^(٣) . وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ، وكان
ذلك في الوقت الذي استنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان بن قتلمش
الذي أخذ يحاصر مدينتهم في شدة وعنف^(٤) .

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة في شمال الشام محصورة بين اثنين من أمراء
السلاجقة ، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول من نيقية إلى انطاكية ، والثاني
هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن اصطحب تتش قائده ارتق
بن اكسب — الذي أقطعه بيت المقدس — واتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك

(١) Setton : op. cit, I, p. 94.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ - ١١٢ . ويروي الزويري أن أتسز
صاحب دمشق أرسل إلى تتش « يستنجد به على المساكر المصرية لأنها كانت قد حاصرته بدمشق
من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي » .

(نهاية الأرب ج ٢٥ ورفه ٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ - ١٦ (مطبوع) .

المدينة الهامة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين قرب حلب انهزمت قوات سليمان الذي خر قتيلا في المعركة سنة ١٠٨٦^(١) . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قلعج أرسلان دواد ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتي ١٠٨٦ ، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتاحت الفرصة لصغار الأمراء من التركان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة في الأناضول في تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم في غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، وحرزوا انتصارهم على السلاجقة في موقعة صور ليوم ، كاسيلي . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلش عند حلب أثار الفرقة في صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا ينفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتش أن يتعارفوا مع سلاجقة الروم - وهم خلفاء سليمان بن قتلش - لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بني ساجوق على انفراد ، مما مكنتهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة^(٢) .

أما عن تش فيبدو أن انتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها . هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من اتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفردا . وقد استغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، واتجه من

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (مطبوع) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p XLVI.

عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام^(١). ولم يلبث أن استولى على قلعة جعبر وعلى منبج^(٢)، حتى إذا ما اقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها^(٣). وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية، ففتح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكي (سنة ١٠٨٧) « فعمرها وأحسن السيرة فيها »^(٤)؛ ثم توجه ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن ابن طاهر وزير سليمان بن قتلش، ثم اتجه إلى السويدية - وهي ميناء أنطاكية القريب - فصلى على شاطيء البحر « وحمد الله على ما انعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب »^(٥).

أما الرها فقد منحتها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بُزان) ، في حين صارت أنطاكية - التي ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلش - من نصيب قائد تركي آخر هو مؤيد للدولة ياغى سيان^(٦). وبذلك لم يبق لانتش سوى دمشق وفلسطين، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق، وبعد وفاة أرتق سنة ١٠٩١ خلفه ابنه سكران الأول. وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام^(٧). وكان أن ظهر تتش

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ (مطبوع) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٣) يروي ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تتش « بأن يكسر السلطان » ؛ ولكن تتش رد عليه قائلاً « لا أكره جاه أخي الذي أاستظل بظلاله » فإنه يعود على بالوهس أولاً .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ - مطبوع) :

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٦ هـ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١ (مطبوع) .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ (مطبوع) .

(7) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. p. 263-264.

على مسرح الأحداث في شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تنش حائلا دون قيام سلطنة للأتراك في الشام ، مما جعل هذه البلاد تعاني الكثير من فوضى الانقسامات . وفي كلتا الحالتين استفاد الصليبيون من ذلك النزاع والانقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام . هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلمش (١) .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تنش ، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه في بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه ، واستأذنه في التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين ؛ وعندئذ أذن له ملكشاه بالعود ، « وأمر آقسنقر صاحب حلب وتوران (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا في خدمة أخيه (تنش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجهها معه إلى مصر لملكها ! » (٢) وكان أن بدأ تنش بمحاصرة حمص حتى استولى عليها من صاحبها ابن ملاعب « وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسامين » وأسر ابن ملاعب نفسه ولديه ، ثم استولى تنش على عرقه وأقاميه وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها . (٣)

وهكذا غرقت بلاد الشام في بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين

(١) استطاع قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه آسيا الصغرى ؛ وقد عرف قلعج هذا في التاريخ باسم « ابن سليمان » كما أطلقت عليه الحوالمات الصليبية المعاصرة اسم « سلمان » . انظر :

Setton : op. cit; vol. 1; p. 163.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢ .

(٣) المرجع السابق ورقة ٣٢ - ٣٣ .

من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التي عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت في الوقت الذي أخذ الخطر الصليبي يلوح في سماء الوطن العربي في الشرق الأدنى .

تفكك دوزن العباسية :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو في حلب سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية واسعة تركية - عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربي والفرسي - أيام ازدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلاً بشئون الحكم في دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو علي الحسن بن اسحق الطوسي . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركي في تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين ، مما أغضب العنصر الفارسي الشيعي في الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك في خريف سنة ١٠٩٢ بيد رجل ديلمى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ؛ بل هزة عنيفة بجسم دولة السلاجقة^(١) ، وذلك « لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقهاء والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة »^(٢) . أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسي المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلاً صغيراً اسمه جعفر^(٣) ، مما أثار في نفس ملكشاه رغبة قوية في أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكي العباسيين والسلاجقة . ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفي ،

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢ .
 (٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .
 (٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ .

في حين نقل مقره الشتوي إلى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسي إلى التنازل عن الخلافة لابنه جعفر . ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام إلا وتوفي ملكشاه في نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل إن الخليفة العباسي دس له السم^(١) .

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه إزداناً بتفكك امبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء هم بركياروق (بركيارق) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ ابناً رابعاً هو محمود الذي كان في الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان ما دب النزاع بين محمود الصغير وأمه ترکان خاتون من ناحية ، و بركياروق (بركيارق) أكبر أبناء ملكشاه — وكان في الخامسة عشر من عمره — من ناحية أخرى^(٢) . وانتهى النزاع بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس ، على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل — خلال سنة ١٠٩٤ — وعندئذ اتجه بركياروق « في الحال إلى أصبهان ، فدخلها وملكها »^(٣) .

ولكن الخطر الأكبر الذي هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش الذي لم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه ملكشاه في بلاد الشام سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . ففي الوقت الذي كان تتش يؤمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه — كما مر بنا — يعطى حلب لحاجبه آقسنقر ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يكد تتش يسمع

(١) اختلفت روايات المؤرخين في سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير منلا(حوادث سنة ٤٨٥ هـ) أنه خرج للصيد فماد مريضاً ، وأن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دون أن يستوفي اللحم الضجج « فنقل مرضه ، وكانت حمى محرقة » . انظر أيضاً ابن العبري ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، انظر ابن الأثير ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي أمست فيها الدولة الساجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت « وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة »^(١) . وبعد أن جمع تتش عساكره « وأخرج الأموال » اتجه نحو حلب حيث طلب من أفسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمه أفسنقر من عدااء لتتش ، إلا أنه لم يجرؤ على المعارضة ، لأنه رأى « اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم ، فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران ، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه »^(٢) . وهكذا خضع أفسنقر وياغى سيان وبوزان — أي حلب وأنطاكية والرها — للأمير تتش « وخطبوا له في بلادهم » ؛ فجمع تتش هذه القوى الثلاثة وزحف بها على فارس يبغى الحصول على السلطنة . وفي الطريق استولى تتش على الرحبة « وخطب لنفسه بالسلطنة » ثم سار إلى نصيبين « ففتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً » (فبراير ١٠٩٣) ، كما عزل إبراهيم ابن قریش العقيلي أمير الموصل واستولى عليها (أبريل ١٠٩٣) وبذلك انتهت أسرة بني عقيل في الموصل^(٣) . كذلك استولى تتش على ميافارقين من حكامها بني مروان الأكراد^(٤) ، وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان نخلع بركياروق .

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة ، إذ تخلى عنه أفسنقر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ . ويذكر ابن الأثير أن تتش كان في طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو في هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) كان آخر حكام بني مروان في ميافارقين هو أبو المظفر منصور ، (١٠٧٩ —

١٠٩٣) — انظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧ .

أمير حلب وبوزان أمير الرها « وسارا إلى بركياروق » ، وبذلك لم يبق مع
 تتش إلا ياغى سيان أمير أنطاكية. وكان انسحاب آفسنقر وبوزان محطاً لخطّة
 تتش الذى آثر أن ينسحب بسرعة عائداً إلى الشام فى حين « انبسطت
 يد بركياروق واستقامت أحواله » ودخل بغداد دخول الظافر فى نهاية سنة
 ١٠٩٣ (١).

وكان أول ما فكر فيه تتش عند عودته إلى الشام هو الإنتقام من آفسنقر
 أمير حلب وبوزان أمير الرها بعد أن خاناه وتخليا عنه وقت الشدة . لذلك بدأ
 تتش بمهاجمة حلب فى صيف سنة ١٠٩٤ ، وعندئذ اتحد آفسنقر وبوزان ، فى
 حين أرسل بركياروق إليهما نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) (٢) .
 ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب ، فانتصر تتش انتصاراً
 حاسماً ووقع آفسنقر فى يده فقتله على الفور (٣) ، فى حين فرت فلول الجند المنهزمين
 إلى حلب حيث اعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة .
 على أن تتش أسرع إلى اللحاق بهم ، فاستولى على حلب ، وعندئذ وقع فى يده
 كربغا وبوزان ؛ فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربغا أسيراً إلى
 حمص (٤) .

وبعد أن قضى تتش فى حلب بضعة أيام زحف على الفرات ، فاستولى على
 حران والرها ، ثم « سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعاً ثم ملك ديار بكر
 وخالط » ؛ وبعد ذلك قصد فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ (مطبوع) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع) .

(٣) يروى ابن العديم أنه عند ما وقع آفسنقر فى يد تتش ، سأله الأخير « لو ظفرت بى
 ما كنت صامت ؟ » قال : « كنت أبتالك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم
 على » فقتله .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع) .

همذان والرى^(١) . وكان الموقف حاسماً بالنسبة لبركياروق ، فاتجه من أصبهان إلى الرى لمواجهة خصمه ، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . والمرة الثانية تعرض تنش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه « فانهزم عسكر تاج الدولة تنش واستبيح ونهب ، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب » .^(٢) وهنا نلاحظ أن أعوان تنش وأمرائه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لقسوته وعنفه وبأسه ، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه . وعلى العكس أدى ضعف بركياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمراء نحوه؛ حيث أن شخصيته ستمكنهم من تحقيق مطامعهم الشخصية . وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذانا بانحلال قوة السلاجقة فى الوقت الذى بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى فى الغرب الأوروبى .^(٣)

ثم إن بركياروق (بركيارق) اكتفى بحكم فارس وبغداد ، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه . وكان تنش قد ترك ولدين هما نخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق ، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق^(٤) ، وذلك دون أى اعتراض أو تدخل من جانب بركياروق . وكان كل ما طلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا الذى كان تنش قد سجنه بعد أسره . ولم يكده يفرج عنه حتى حصل كربغا على إذن من بروكياروق

(١) النورى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحاب ج ٣ ص ١١٩ (مطبوع) .

ويروى ابن الفلانسى أن رأس تنش قطع « وطيف به فى العسكر ، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها » (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. LI.

(٤) قتل رضوان أخويه أباطالب وبهرام . أما أخوه الثالث دقاق فقد راسله ساونكين الخادم — نائب تنش فى دمشق — ودعاه لتسلم المدينة . وكان أن غادر دقاق حلب سراً « وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد » ؛ وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تنش وصل سالماً « وصارت دمشق وبلادها بحكمه » (ابن العديم زبدة الحاب ج ٢ ص ١٢١ — مطبوع) .

للاستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بني عقيل، وهو الذي كان تتش قد تركه بالموصل. أما في القطاع الشرقي من دولة السلاجقة، فقد منح بروكياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر. (١)

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة، هي: سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بروكياروق نفسه الذي كانت له السيطرة على بغداد؛ ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر؛ ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش؛ ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش. وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш. هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركماني في كايا دوكيا أفاد من الفترة التي قضاها قلعج أرسلان في الأسر لتحقيق استقلال ذاتي، مما زاد من حدة الانقسام في آسيا الصغرى. وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا في وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه، فإن هذه القوة لم تلبث أن انفلت وتفتتت عند فجر الحركة الصليبية، مما صار له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى. (٢)

وليت الانقسام والانحلال الداخلي في دولة السلاجقة قد وقف عند ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر وهو أخ ثالث لبركياروق (٣)؛ مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الأخوين حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما في أوائل سنة ١١٠٤، فاحتفظ بروكياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون

(١) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٩٠ هـ.

(2) Gibb: The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

« السلطنة له »، وأخذ محمد تبرأذربيجان وأرمينيا وديار بكر والموصل^(١)؛ في حين ظل الأخ الثالث — وهو أبو الحرث سنجر — يحكم خراسان وما وراء النهر^(٢). ولا شك في أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة أدت إلى تحطيم البيت السلجوقي من ناحية، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى. أما الخليفة العباسي في بغداد فقد انتهر فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين، وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً، « وقطع دعوة الترك من بغداد »^(٣).

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بني مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات استغلت الظروف التي أحاطت بالسلطان بركياروق واستقلت عن سلطانه. وقد بنى شيخ هذه القبيلة — وهو صدقة بن منصور بن ديس بن مزيد الأسدي — منزله الحلة سنة ١١٠٢ واتخذها مقراً له. وبذلك قامت إمارة عربية امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط، وصارت خطراً هدد الأتراك وحال دون استمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها^(٤). ولم يتردد أمراء الحلة في سبيل تحقيق هذه الغاية في مخالفة الصليبيين، كما سيلي فيما بعد.

أما في بلاد الشام، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً. ذلك أن ابني تنش — وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥ — ١١١٣) ودقاق صاحب

(١) ذكر ابن العبري أن ممتلكات محمد تبرهي «ديار بكر والجزيرة والموصل والشام» ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب في حوزة ابني تنش، (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ م ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٢٧.

(٤) للرجع للسابق ورقة ٢٢.

دمشق (١٠٩٥ - ١١٠٤) لم يتمتعوا بالمقدرة السياسية التي تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشت فيها بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر. ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرها عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقي. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة؛ وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. وأتابك لفظ تركي معناه «مربي الملك»، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً في تكريمه^(١). ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طفتكين الذي كان مملوكاً ثم قائداً للملك تتش وأتابكاً لابنه دقاق أي مربيآ له. وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٥. أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكي بن آقسنقر وقد استمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢^(٢). وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التي أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة في الشام وسنجان والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها^(٣).

أما فلسطين، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركاني أرتق، الذي خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكمان) وإيلغازي (إيل غازي). ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمي تحت قيادة الوزير الأفضل نفسه لمحاصرة بيت المقدس «ونصب عليه المناجيق»، حتى اضطر الأراتقة إلى الانسحاب من المدينة في

(1) Setton : op. cit, vol. I, p. 162.

(٢) ابن الأنبر: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٣٤ وما بعدها.

(3) Gibb : op. cit, p. 23,f.

أغسطس من العام نفسه . ولم تلبت بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك في أيدي الفاطميين^(١) . هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعو إلى طاعة الخليفة المستعلي بالله الفاطمي وإقامة الدعوة له ، ووعد الأفضل رضوان أن يمدّه بالمساعدة ضد خصومه ، فاستجاب رضوان لذلك «وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي بيده ... للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ...» هذا ، وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة « للامام المستظهر (العباسي) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه »^(٢) .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين استغلوا تفوقهم البحري على السلاجقة وظلوا يسيطرون على ساحل الشام^(٣) . هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادي عشر عندما استقل بها أحد أتباعهم وهو القاضي الشيعي ابن عمار أبو طالب . وقد استطاع ابن عمار هذا وخليفته جلال الملك أبو الحسن علي (ت ١٠٩٨) ثم نحر الملك أبو علي عمار (١٠٩٨ - ١١٠٨) أن يجعلوا من طرابلس إمارة غنية اشتهرت بمدرستها التي حوت مكتبه ضمت عشرة آلاف مجلد . على أن قيام هذه الإمارة البحرية الصغيرة لا يخفي الحقيقة الواقعة ، وهي زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً . ولا شك في أن عملية التجزئة التي تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه ، في الوقت الذي شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام ، كانت من العوامل الرئيسية التي ساعدت الصليبيين في تحقيق أطماعهم . وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصايبي وإيم الصوري^(٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الخبايا ج ٢ ص ١٢٩ (مطبوع)

(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ) أن الجيش الفاطمي الذي

خرج من مصر في تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل « واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأبراء والعمال » .

(4) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid II). 1015-1016.

ولم يكن ملك السلاجقة في الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة في الشرقين الأدنى والأوسط . ذلك أن مملكة السلاجقة في آسيا الصغرى لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلش ، وهو الذي قتله تنش — كما سبق أن ذكرنا — سنة ١٠٨٦ . ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٢ ظل ابن سليمان الصغير ، وهو قلاج أرسلان ، شبه أسير في فارس ، تحت رقابة ملكشاه . وفي تلك الفترة التي قضتها آسيا الصغرى دون سلطان عمل الأمراء المحليون — مثل أبي القاسم أمير نيقية وزاخس أمير أزمير والملك غازي بن دانشمند أمير كبادوكيا — على الاستقلال عملياً^(١) . وكانت نيقية عاصمة السلاجقة في الأناضول ، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلش في حكم آسيا الصغرى . ولم تقف أحلام أبي القاسم عند هذا الحد ، بل بات يحلم أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية ، وشيد أسطولا لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله^(٢) .

وعندما استرعت أطماع أبي القاسم السلطان ملكشاه ، أرسل ضده حملة حاصرته في نيقية سنة ١٠٨٦ ، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين . وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرها للقضاء على أبي القاسم والاستيلاء على نيقية^(٣) . وقد حاول بوزان أن يقنع ألكسيوس كومنين بالتخلي عن مساعدة أبي القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضي التي في حوزة السلاجقة للبيزنطيين^(٤) . ولكن ألكسيوس أدرك أنه من الخير له أن يجاوره أمير صغير مثل أبي القاسم بدلا من السلطان ملكشاه ، وفعلا قدم الإمبراطور البيزنطي مساعدته لأبي القاسم ، وبفضل هذه

(1) Cam. Med. Hist. vol 4. p. 331.

(2) Setton : op. cit, vol I, p. 215—216.

(3) Chalandon, Alexis Comnene, p. 102.

(4) Idem, p. 125.

المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية ؛ ورفع حصار بوزان عنها .
ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل في طاعته ، فقتله الأخير
سنة ١٠٩٢^(١) .

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ أطلق خليفته بركياروق سراح قلعج
أرسلان بن سليمان بن قتلش ، الذي غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم .
وإذا كان الامبراطور الكسيوس كومنين قد نجح في تلك الفترة في انتزاع بعض
مراكز من السلاجقة في آسيا الصغرى ، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة
على الامبراطورية البيزنطية ، إذ شيد اسطولا واستولى به على عدة جزر هامة مثل
لسبوس و خيوس و سادوس و رودس . ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية
عندما تزوج قلعج أرسلان من ابنة زاخاس أمير أزمير . على أن اسحق كومنين
استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين ، أي بين قلعج أرسلان وحميه ،
وأن يجعل قلعج أرسلان ينقلب ضد حميه ، في الوقت الذي كان زاخاس يحاصر
أبيدوس مفتاح الدردنيل . ولم يلبث أن استدرج قلعج أرسلان زاخاس وقتله ، وبعد
ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلعج أرسلان من ناحية والامبراطور الكسيوس
كومنين من ناحية أخرى^(٢) .

أما الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلعج أرسلان أي
نفوذ ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند (١٠٦٣ — ١١٧٤) التي أسسها الأمير
التركماني أحمد غازي ، والتي قامت على حساب الممتلكات البيزنطية في كابا دو كيا
وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)^(٣) . وكان الدانشمند يعترف بالتبعية

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 331.

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. p. 163—164.

للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس ، وبالتالي لم يعترف مطلقا بسيادة سليمان بن قتلمش . وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازي جهشتمكين (١٠٨٤ - ١١٢٦) بالاستيلاء على قسطنطيني من البيزنطيين . وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكما دائما بين السلاجقة في الأناضول من ناحية ، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى ، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحسنا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا (١)

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالي سنة ١٠٩٥ ، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية في بيثنيا وأيونيا . وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين في القوة في ذلك الوقت على الرغم من انقسام الأتراك على أنفسهم . ولكن يوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين .

السفاه بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الانقسام بين البيوت العربية والتركية في العالم الإسلامي قد مهد لانتصار الصليبيين ؛ فإن الشقاق في العالم المسيحي بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية ، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك في الشرق . ذلك أن العداء المذهبي بلغ أشده بين البيزنطيين والأرمن والسريان اليعاقبة ، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية في الشرق في القرن العاشر ، مما جعلهم يتعرضون جميعا لكارثة

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. LVII-LVIII.

مشاركة في القرن الحادى عشر ، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك^(١) .

من ذلك أنه لم يكذب يمشى قايل على ضم أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية في عهد حنا شمشقيق ، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن . كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم^(٢) ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠-١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية . أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية للإمبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلها منها إقطاعات في كابادوكيا ، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الزهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التى حلت بالبيزنطيين فى مانزكرت ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والأمراء لما حققه من راحة بال للأرمن^(٣) . وقد آتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التى اشتركت فى موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت ، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن انتقم المهاجرون الأرمن فى كابادوكيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس . من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه فى جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه . وقد رد

(١) عن أصول الانشقاق بين الكنيستين الأرمينية والبيزنطية انظر :

Grousset : L'Empire du Levant p. p. 76—78.

(٢) كانت مدينة آنى أول عاصمة للأرمن فى مقرهم الجديد فى جنوب شرق آسيا الصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سبيس فيما بعد ، وما زالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى فى القرنين العاشر والحادى عشر . انظر

Schlumberger : Recits I, p. 127 & Vssiliev, op. cit, I, p. 314.

(3) Mathieu d'Edesse (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. p.p. 46-48).

البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجل الثاني حتى تصيدوه .
وقتلوه سنة ١٠٧٩^(١) .

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة ، لاسيما بعد أن
استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيين إلى
الكنيسة المحلية . لذلك لم يتمالك ميخائيل السرياني نفسه من الفرح
عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب
حلب سنة ١٠٣٠^(٢) . وتعتبر كتابات ميخائيل السرياني تعبيراً صادقاً عن استيائه
لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة ، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة
الأتراك اللاحقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم
لا يتعرضون للعقيدة ، في حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكابة
وأسوأ أثراً .

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التي قامت بها الامبراطورية البيزنطية في
القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها في شرق آسيا الصغرى وفي بلاد الشام
أدت إلى استياء مختلف العناصر التي كان من الممكن أن تظل حليفةً طبيعياً للامبراطورية
ضد الصليبيين الكاثوليك . وقد كان لهذا الشعور أثره في تسهيل قيام الامارات اللاتينية
في الشرق لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين
مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس . وهكذا نظر الأرمن في قيليقية والرها إلى
الصليبيين الغربيين على أنهم محرورهم وحلفاؤهم ، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً
ملحوظاً بين الكنيسة الأرمنية والبابوية^(٣) هذا في الوقت الذي أحسن الصليبيون

(1) Grousset : Hist. de l'Arménie, p.p. 620—622.

(2) Runciman : A History of the Crusades, I, p. 75.

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p. 91.

الغريون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام ، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المساميين فحسب ، بل ضد البيزنطيين ^(١) .

الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان :

لم تقتصر الكوارث التي تعرضت لها الدولة البيزنطية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر على مافعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للإمبراطورية ، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية في ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمان ، مما أوقع القسطنطينية بين نارين .

والمعروف أن القرن الحادي عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمانديا في غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلاعن صقلية . وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ ولیم هوتفيل ، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد في تأسيس دولة النورمان في إيطاليا وصقلية ، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩ ^(٢) وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه انتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم في إيطاليا مثل أوترنتو و برنديزي سنة ١٠٦٢ ثم باري عاصمتهم سنة ١٠٧١ ، أي في نفس الوقت الذي تعرضت الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى لكارثة ما نزلت على أيدي السلاجقة ^(٣) . ولعل هذه الحقيقة الهامة هي التي جعلت المؤرخ فاسليف يقرر خطوره سنة ١٠٧١ بالذات في التاريخ البيزنطي بأجمعه ^(٤) . وبعد أن نجح النورمان أيضاً في انتزاع صقلية من المسلمين ، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتي للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها ، ثم باتوا

(1) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

(3) Haskins : The Normans in European History, p. 200, t.

(4) Vasiliev, op. cit, I, p. 361.

يحملون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق ، إتماماً لحربهم ضد المسلمين في صقلية^(١) .

وفي الوقت الذي نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد في إيطاليا البيزنطية ، اتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا في خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التي حلت بالبيزنطيين على أيدي السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة في آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذي سبق أن أشرنا إليه ، والذي صار في وقت ما مهيمنا على إقليم كابادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ - ١٠٧٤)^(٢) . وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحدو حدو رسل باليل ويقيم دولة نورمانية في الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته في صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ومنها اتجه إلى دورازو حيث هزم قوات ألكسيوس كومنين واستولى على ذلك الموقع الهام في أوائل سنة ١٠٨٢^(٣) . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه اضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعي وجوده ؛ فترك قيادة قواته في البلقان في صيف سنة ١٠٨٢ لابنه بوهيموند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى^(٤) .

وقد استطاع بوهيموند أن ينزل الهزيمة بألكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة في أبيروس ومقدونيا وتاليا بحيث أوشكت الإمبراطورية على السقوط في أيدي النورمان مما جعل ألكسيوس كومنين

(1) Longnon : Les Français d'Outremer au Moyen - Age. p. p. 26 - 28.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 168 - 169.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 329.

(4) Ostrogorsky : op. cit, p. 317.

يسرع إلى الاستنجاد بسليمان بن قتيبة زعيم سلاجقة الروم الذي أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل ، وبفضل هذه النجدة استطاع الإمبراطور البيزنطي أن يواجه الموقف وأن يحرز انتصاراً على بوهيموند في تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة (سنة ١٠٨٣)^(١) .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحدياً للأسطول البندقي — المحالف للبيزنطيين — قرب كورفو^(٢) ؛ ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ابروس حتى توفي روبرت في صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا^(٣) .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان — وبخاصة بوهيموند — لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق ، وهو الطريق الذي لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لاختراقه . والواقع إن المشاركة في الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديداً للحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان في المشرق ، وهو الأمر الذي تحقق فعلاً باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها .

(1) Vasiliev, op. cit, II, p. 381.

(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 70—71.

(3) Cam. Med Hist; vol. 4, p. 330.

الفصل الخامس

الدعوة للحملة الصليبية الاولى

البابا أوربان الثاني وإعلانه الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها الشامل بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمذ توسع المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، والحروب لم تنقطع بينهم وبين المسيحيين الأوربيين . وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهرت من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقية وصقاية ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت (١) .

على أنه بحلول القرن الحادى عشر واتجاه الغرب الأوربى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين ، بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع إنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٩) ألح على البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعده ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) .

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15. & L'Armenie Cilicienne, p. p. 16-17.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 270.

ويقال إن البابا جريجورى السابع — بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة — استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ؛ ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح . هذا إلى أن البابوية شغلت فى ذلك الدور بالصراع مع هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقايد العلماني ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة^(١) . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت باعلان الكسيوس كومنين امبراطورا (١٠٨١ — ١١١٨)^(٢) .

وكان الامبراطور الكسيوس رجلا قديرا ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه الكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) تتصف بالمرونة المطلقة واللباقة الفائقة^(٣) . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق — بالصورة التى تم عليها الأمر فعلا — هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الامبراطور الكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما الذى يرجع إليه الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها هو البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ماسمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرده المسلمين من آسيا ، بنفس

(1) Vasiliev, op. cit; I, p. 358.

(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 47—50.

(3) Ostrogorsky : op. cit; p. p. 316—320.

الجهد والعزيمة التي يجرى بها طردهم من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ما سبق أن
أشرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان،
مما جعلها تفكر في انتهاء فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها
على الكنيسة الشرقية (١) .

والواقع إن البابا أوربان الثاني كان أصاح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع
الصلبي الجديد ؛ إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ،
فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة في اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير
عليهم . ثم إن البابا أوربان الثاني لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطي
ألكسيوس كومنين ، فلم يكف ذلك البابا يلي منصب البابوية حتى فتح باب
للمفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ،
كما رفع قرار الحرمان الذي كان موقعا على ذلك الإمبراطور (٢) ، الأمر الذي
أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية وإلى منح الكنائس
الكاثوليكية في البلاد الأرثوذكسية قسطا من الحرية في تصريف شئونها .
وفي سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان
الثاني تحمل له اخلاص الإمبراطور ومحبه (٣) .

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من
خطر السلاجقة ، لذلك أراد الإمبراطور البيزنطي استغلال تلك العلاقات الطيبة
مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانهز فرصة
عقد مجمع ديني برئاسة البابا في بيا كنزا - بشمال إيطاليا - في مارس سنة ١٠٩٥ ،
وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا (٤) . وقد نجح

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 226—227.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 307.

(3) Runciman : op. cit, I, p. p 101—102.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p 156.

مبعوثو الإمبراطور في إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت في الضعف والانحلال بحيث تكفي ضربة واحدة قوية للاجهاز عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة في حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثاني بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المساميين فضلا عما وجدته في هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم في غرب أوروبا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام في المجمع للتدليل على وجهة نظرهم^(١) .

على أن البابا أوربان الثاني اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة في ذهنه ، وهو في طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع ديني للنظر في بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملةها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيلب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الديني في كليرمونت في نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه في مناقشة المسائل الكنسية المختلفة ، حتى إذا ماتم ذلك وجه البابا دعوته في اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين^(٢) . وقد عرض البابا على المجتمعين — في أسلوب بلاغي جذاب — مدى ماتعانيه الأراضي المقدسة وحباجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذي صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم في الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثاني وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليترك الجميع مشاغلهم في غرب أوروبا ويوجهون

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272.

(2) Michaud : Hist. des Croisades, I, p.p. 92—94.

جهودهم ضد المسلمين في الشرق ، حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويففر ذنوبهم؛ ثم نادى البابا بالإسراع في تقديم النجدة بحث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف^(١) .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم أن فكرة الحرب الصليبية نبتت من خطبة البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ — كما ظن البعض — من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين في كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الله Deus lo volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون^(٢) .

ولم يكف البابا أوربان الثاني يفرغ من خطبته التي دعا فيها لحرب المسلمين ، حتى جثا أدهار — أسقف بوي Puy — أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوبا بابوياً في الحملة الأولى^(٣) . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين في رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة على الحركة الصليبية وعلى الأراضي التي سيفتحها وفعلاً حدث بعد ذلك — عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل في نزاع بسبب ذلك الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية^(٤) .

(1) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 37—41.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 402.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 5. p. 273.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 4.

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداداه للمشاركة في تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين في الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثاني من أول الأمر بأن مشروعه الصليبي في حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية ، فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم^(١) . كذلك استقر الرأي على أن يحيك كل محارب صليبياً من القماش الأحمر على رداءه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان^(٢) .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عنيفة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا - وهو ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥) عزمه على المشاركة في المشروع الصليبي الذي دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك في حربهم في أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السريانى أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس^(٣) . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوى أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثاني فلم يكتب بما قاله في كليرمونت وإنما أخذ يتنقل

(1) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p p. 44-45.

(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 108-109.

(3) Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.) I, p. 327.

بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً في ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز ومان وتورز وبواتيه ووردو وتولوز وغيرها (يناير - يونيو ١٠٩٦) . وأخيراً اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع في مجمع نيم (يوليه ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جدرى في الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً قائداً لتلك الحملة^(١) ثم إن ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مسانده قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثاني مبعوثين إلى جنوا طالباً مشاركتها في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلاً عن ناقلة كبيرة^(٢) . وبذلك حققت جنوا لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق في بلاد الشام ، وهي حقوق لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل^(٣)

وأخيراً عاد البابا أوربان الثاني إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة - مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا - بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل سكتلند ودانمرك وغيرها^(٤) .

صحة المارة ، الرعاية :

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 273.

(2) Heyd : Hist du Commerce, Tome I, p. 133.

(3) Setton : op. cit; I, p. 252.

(4) Runciman, op. cit.; I, p. 112.

للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم ، وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق في الدعاية لمشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم في السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ولكنه تعرض في الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً في نفسه^(١) . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة - بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج - جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوروبا، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون في سرعة غريبة ويشرعون في الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيمًا جدياً من الناحيتين السياسية والحربية^(٢) .

وقد مضى بطرس الناسك في دعوته بقوة ، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أرليان وشامبني واللورين ، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع - حوالي خمسة عشر ألفاً - اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم ! وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وقوة تأثيره لم تكن وحدها العوامل التي أدت إلى استجابة تلك الجموع الفقيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية . فهناك الظروف القاسية التي عاش فيها الفلاحون في غرب أوروبا في تلك الفترة ، والتي كان لها أكبر الأثر في ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسون من أهوال . فكثير من الأراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفيكنج وغيرهم من البرابرة ، فقلت الأقوات في الوقت الذي ازدادت أعداد السكان . ثم إن الحروب والمنازعات بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت في الإخلال

(1) Setton : op. cit; I, p. 78.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 5.

بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك وممتلكاتهم للنهب ، مما جعل الغالبية العظمى من أهالي غرب أوروبا يعيشون في حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم^(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك كله النكبات الطبيعية والاقتصادية التي عانى منها الغرب الأوربي وقت الدعوة للحرب الصليبية ، أدركنا السر الحقيقي لإقبال كثير من الفلاحين والمعلمين على المشاركة في تلك الحرب ؛ إذ لا داعي للخوف من الموت وحرب المسامين وهم في حال أقرب إلى الموت فعلاً . وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الرجل من الجوع في بلده محملاً بما عساه ارتكبه من ذنوب في حياته ، فإن من الأفضل أن يموت في حرب مقدسة مما يضمن له غفران ذنوبه ودخول الجنة^(٢) .

وفي الوقت الذي كان بطرس الناسك ماضياً في دعوته في الغرب الأوربي ، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالفلس . وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم اراضي الدولة البيزنطية ، وفي الطريق نست تلك الجموع أنهم يهتفون بلاداً مسيحية ، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين^(٣) . ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون في البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال . وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية في يولييه سنة ١٠٩٦ ، وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطي الكيسوس كومنين بالانتظار خارج اسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك . ولا بد أن يكون

(1) Michaud : op. cit, Tome, I, p. p 105—106.

(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 114—115.

(3) Vasiliev : op. cit; vol. II, p. 404.

الإمبراطور قد تأكد في تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم^(١).

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جموعه مخترباً ألمانيا وهنغاريا ، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية . وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغاريين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحاً رهيباً في تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء^(٢) . ولا شك في أن هذه الجريمة البشعة التي أتتها الصليبيون كان لها أثرها في إثارة رغبة البيزنطيين وتشككهم في تلك الجموع التي أتت إلى الشرق لتجارب باسم المسيح والمسيحية ، وفي الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء . لذلك رأى الإمبراطور البيزنطي ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة للعبث بأراضي الإمبراطورية ومدنها ، ووضع خطة استهدفت تخايص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم في أقصر مدة ممكنة . وفعلاً تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية ، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا في طريقهم إلى البسفور ينهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم ، فهبوا بالجراد ونيش وغيرها من المدن والقرى الآهلة ، حتى وصلوا في نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية في أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه في انتظارهم^(٣) .

وعلى الرغم من البوادر السيئة التي بدرت من من الصليبيين أثناء عبورهم أراضي الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنيني أحسن

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 61—62.

(2) Albert d'Aix : Hist. Occid , IV, p. 276.

(3) Cam. Med. Hist. vol 5, p. p. 275—276.

استقبال بطرس الناسك وقدم له ولأتباعه النصيح بالابتعاجلوا في العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم امدادات وقوات نظامية من الغرب تساعد على الصمود في وجه الأتراك السلاجقة^(١). على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة، إذ أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة، ويعتدون على الأهالي ويسلبونهم أقاتهم وأمتعتهم، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعاع^(٢).

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعد في خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء دخلوا أراضي الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء إن لم يكن بالطريق السامى فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمنين^(٣). وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ ألكسيوس كومنين يعيد النظر في سياسته، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطئ الآسيوى للبسفور، وبدأت هذه العملية فعلا في أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦. ومع ذلك فإن الإمبراطور ألكسيوس استمر يحسن النصيح للصليبيين، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب^(٤). ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب، فاستمروا يعتقدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية — قاعدة

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p 76—77.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance p. 310.

(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 115—116.

(4) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 276.

السلطان قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш — على بعد عدة كيلومترات فقط منهم^(١).

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى . وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية في تلك المناوشات الأولى ، مما جعلهم يفترون بقوتهم ويتنادون في الإغارة على أراضي السلاجقة . في أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهى الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطي وقرروا الزحف على نيقية^(٢) . وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير ، والباقيون من المشاه المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحيد بين صفوفهم قيادة . وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم ، لم تستطع غالبية العلة المقاومة ، فأعمل فيهم السلاجقة ذبحاً وتقتيلاً بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف . وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين — عندما سمع نبأ الكارثة — إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ؛ فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء^(٣) .

وهكذا أخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك ووالتر المفاس . ولم تكن بقية الحملات المائة التي قادها فولكار Volkmar وجو تشوك Gottschalk وإميخ Emich أحسن حالاً ، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية^(٤) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 405.

(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 321.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

الصلابيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية في غرب أوروبا . وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة باخوانهم يهود الشرق - في البلدان الإسلامية أو في الدولة البيزنطية - مما قرى مركزهم التجاري والاقتصادي ومكنهم من القيام بنشاط مالي كبير وتأسيس عدة بيوت لاقرض الأموال للأمرء والفرسان وغيرهم^(١) . ومن المعروف عن اليهود في كل زمان ومكان أنهم لا يرحمون من يتعامل معهم ، فوقع في شباكهم عدد كبير من المدنيين في أوروبا العصور الوسطى ، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التي فرضها اليهود عليهم . ثم جاءت الحروب الصليبية اتضيف إلى قائمة المدنيين عددا كبيرا من الفرسان ، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة ؛ مما أثار نوعا من الإستياء العام ضد أولئك المرابين المستغلين في غرب أوروبا على عصر الحركة الصليبية^(٢) .

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفا معاديا . ففي ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود في شمال فرنسا إلى إخوانهم في ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود ؛ وبالتالي فقد أخذ اليهود - عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة في مختلف أجزاء الغرب الأوربي - يعرقلون جهود الصليبيين . وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفري بوابون - الذي كان يعد عدته للمشاركة في الحرب الصليبية - قد أقسم على أن ينتقم للمسيح بقتل جميع اليهود . وعندما انتشرت هذه الشائعة ، لجأ يهود

(1) Pirenne : Economic and Social Hist. of Med. Europe, p. 133.

(2) Thompson : Economic and Social Hist. of the Middle Ages p. 394.

ميفز وكارلونيا في حوض الراين إلى أسلوبهم الرخيص الذي لا يعرفون غيره حتى اليوم ، فجمعوا الأموال وقدموها لجردفري بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه^(١) .

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح في جعل أتباع الكنيسة - وهم في موجة حماسهم الدينية - يغفرون لليهود مسلحهم تجاه المسيحيين الأوائل . وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت في المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم ، فلماذا يختص المسيحيون المسلمون بذلك العداء ويتركون اليهود؟ أليس اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهي في الهدى؟ أليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرصوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلا وتذبيحا؟^(٢) وهكذا لم يكن منتظرا أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود في أوروبا شيئا من رشاشها .

وكان أن تجمع في حوض الراين في إبريل سنة ١٠٩٦ جمع كبير من الصليبيين الألمان ، زاد عددهم على عشرة آلاف ، تحت قيادة فولكمار ، ومن هناك شرعوا في الزحف شرقا للحاق ببطرس الناسك . وفي الوقت الذي شقت تلك المجموعة طريقها نحو براغ ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل في حوض الراين بزعامة الأمير إميخ Emich^(٣) . وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبي في أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بهاجمة اليهود في مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل اثني عشر يهوديا ، في حين لم ينقذ الباقي سوى أسقف المدينة الذي استظلمهم بحمايته . ولم يكف إميخ وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا

(1) Runciman : op. cit; I, p. p. 135—136.

(2) Cary : A Hist. of Rome, p p. 589—590.

(3) Setton : op. cit, I, p. p. 263—265.

مسيحياً وحفظوا جثته في إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء في تسميم آبار المدينة^(١). وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحي القريبة مع رجال إميخ في إحداث مذبحة كبرى باليهود (٢٠ مايو) ، هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودي^(٢). ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس الأساقفة أبواب المدينة في وجه الصليبيين . على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى قيام حركة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود ، وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المباني التي اختبأ فيها اليهود وقتلواهم ، في حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب . وقد قدر عدد قتلى اليهود في حوادث مينز وحدها بألف قتيل^(٣) . ولم تكن حوادث مينز هي الأخيرة بالنسبة لليهود في حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم ، ثم قصدوا القسطنطينية بعد ذلك عن طريق هنغاريا .

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التي سبقت إلى الشرق ، ففعل فولكار وأتباعه باليهود في براغ مثلما فعله إميخ بهم في مدن الراين (٣٠ يونيو) . وقد حاول فولكار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود في مدن هنغاريا ، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففر قوهم وقتلوا كثيرا منهم . وعند ما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا ، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب ، مما أدى إلى تدمير حملي إميخ وفولكار في هنغاريا^(٤) .

(1) Grousset : Hist; des Croisades, I, p. 10.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 277.

(3) Albert d'Aix, IV. p. p. 292—293.

(4) Runciman : op. cit; I' p. p. 134—141.

هذا ، وقد استمر شعور العداة تجاه اليهود فى غرب أوربا طوال عصر الحروب الصليبية . ولم تكن البابوية نفسها أقل عداة لليهود ، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء فى عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك^(١) .

(1) Thompson : Economic and Social Hist. p.409.

الفصل السادس

الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفري بوايون وألكسيوس كومنين:

في الوقت الذي أخذت حملات العامة من المعدمين والغوغاء يذبجون في اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التي سلكوا أراضيها ، جرى تنظيم الشطر الثاني من الحملة الصليبية الأولى — وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء — وإعداده إعداداً رتيباً . والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء في الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع ، لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ أول الأمر ، ومميز نشاطها في الشرق ^(١) . وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة في الشطر النظامي من الحملة الصليبية الأولى ، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة ، مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحياناً في اتجاهات متعارضة ^(٢) .

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفري بوايون أمير لوثرنجيا وبرفقته أخوه بلدوين البولوني ، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء ^(٣) . ويبدو أن المكانة البارزة التي تمتع بها جودفري بوايون في الامبراطورية المقدسة ، وأهمية الامارات التي شارك أصحابها في تلك الحملة ، جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها ، فكتسبت طابعاً مميزاً من أول

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p 279—280.

(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥ .

(3) Michaud : Hist' des Croisades, I, p. p. 146—147.

الأمر^(١) . هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين في هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتيني في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألماني سوى القليل ، مما جعل الطابع العام لحملة جودفري بوايون فرنسيا . وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أوائك الصليبيون ببلاد الشام ، إذ سرعان ما ذبلت العلاقات الاقطاعية التي ربطتهم بامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية^(٢)

وكانت حملة جودفري بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق . وقد سلكت طريق هنغاريا — مثل حملات العامة التي سبقتها — في وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من الحقد والضغينة للصليبيين ، بعد الضرر الذي لحق بهم على أيدي جموع بطرس الناسك وفولكار وإميخ^(٣) . لذلك رأى جودفري أن يبدد تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم ، فمقد اجتماعاً مع كوثومان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية . وفي ذلك الاجتماع قدم جودفري أخاه بلدوين البولوني ليظل رهينة لدى الملك الهنغاري حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضي الهنغارية . وفي الوقت نفسه أصدر جودفري أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالي أو ممتلكاتهم^(٤) .

وبوصول جودفري بوايون إلى الحدود البيزنطية في أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت « المسألة الصليبية » في تاريخ الدولة البيزنطية . ففي ذلك الدور بالذات وضع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهي السياسة

(1) Runciman : op. cit; I, p. 147.

(2) Grousset : op. cit; I, p. 12.

(3) Setton : op. cit; I, p. 2٨8.

(4) Albert d'Aix, IV, p. p. 299—305.

التي لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان . ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة ، فلما فشل في ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عداء صريح^(١) . وقد بدأ الإمبراطور البيزنطي بإرسال رسل إلى جودفري بوايون لاستقباله فيما بين بلغراد ونيش ، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور ، تعهد فيها جودفري بمنع رجاله من القيام بأي عمل من أعمال السلب والنهب داخل أراضي الإمبراطورية ، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامة . وفي مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بامداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة^(٢) .

وعلى أساس الاتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطئ بحر مرمرية حيث توقفوا قليلاً للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria ، وكان ذلك حوالي منتصف ديسمبر سنة ١٠٩٦ . على أنه حدث في ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفري ، وفقدوا روح النظام التي تحملوا بها حتى ذلك الوقت ، فقام رجال جودفري بنهب سليمبريا^(٣) . ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطي في ذلك الدور هو تحديد الجانب القانوني للعلاقة بينه وبين الصليبيين . فالجهد الصليبي جاء شيناً جديداً على الغرب الأوربي ، في حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع . وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطي أن يتصور حملة جودفري بوايون في صورة مجدة سريعة وصلته وسط معركة طوية ضد المسلمين ، لنصرة المسيحية وطرده السلاجقة من الأراضي التي احتلها في آسيا^(٤) .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 164—165.

(2) Albert d'Aix, IV, p. p. 299—305.

(3) Idem, p. p. 304—305.

(4) Brehier : op. cit; p. 310.

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطئ البحر المتوسط في القرن السابع ، والدولة البيزنطية في صراع ضد المسلمين لا يكاد يهدأ قليلاً حتى يشتد طويلاً . ومنذ توسع السلاجقة في الشرق الأدنى والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع . و بعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية - وليس الغرب الأوربي - هي التي تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة في الشرق ضد المسلمين طوال عدة قرون ؛ فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطي قيادة الجيوش الصليبية التي أخذت تفد من الغرب الأوربي منذ أواخر القرن الحادي عشر لمحاربة المسلمين (١) .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفري بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذي سبق أن حضر على رأس جموعه لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطي . وكل ما هنالك هو أن جودفري جاء أكثر قوة وعتادا من سلفه رسل باليل ، مما جعله يبدو أعظم نفعا للإمبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها ؛ وفي الوقت نفسه أدرك ألكسيوس أن قوة جودفري من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها (٢) . ولعل الدرس الذي أخذته الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها ، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نسته بعد عندما وصل جودفري بوايون على رأس جيوشه إلى أراضي الإمبراطورية في أواخر القرن الحادي عشر . لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل ، وبدأ يتصرف تجاه جودفري في شيء من الحزم ، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور ، بمعنى أن يقسم القائد الصابى أن يكون تابعاً للإمبراطور البيزنطي

(1) Grousset, op. cit, I, p. 16.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 119—121.

في الأراضي الآسيوية التي عساه ينجح في استردادها من المسلمين^(١).

هذه هي وجهة نظر الامبراطور ألكسيوس كومنين . ويبدو أنه لم يستهدف أى هدف آخر عدا إقناع جودفرى بالولاء للامبراطورية ورد الأراضي التي يستردها من السلاجقة في آسيا . وهذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والصلبيين الغربيين من ناحية أخرى . وكان الإمبراطور ألكسيوس — عندما سمع بما فعله الصليبيون في ساليبريا — قد أرسل إلى جودفرى طالباً منه ردع قواته عن النهب ، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية ، فحضر جودفرى على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة في ديسمبر سنة ١٠٩٦ ، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفرى مرحباً داعياً إياه لمقابلته ، ليقسم له يمين الولاء^(٢) . على أن جودفرى بوايون رفض تلك الدعوة ، لأنه بحكم مركزه في الإمبراطورية المقدسة ، وبحكم تبعيته للامبراطور الغربى كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى^(٣) . وكيف كان يستطيع أمير أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنرى الرابع فى الغرب والامبراطور ألكسيوس كومنين فى الشرق ، مع ما بين الإمبراطوريتين من تنافر؟ وأخطر من هذا ، كيف يستطيع جودفرى — وهو الأمير الكاثوليكي الذى وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثانى — أن يقدم ولاءه

(1) Runciman : op. cit; I. p. 149.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 176.

(٣) أشار ابن الأثير إشارة سريعة إلى ما نشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطى ، واشترط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحوه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء . فقال فى حوادث سنة ٤٩١ هـ : « فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجرى إلى بلاد المسلمين ويسيروا فى البر فبكون أسهل عليهم . فلما وصلوا إليها ، منعهم ملك الروم من الاحتياز ببلاده ، وقال : لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تخلفوا أنكم تساموا لى أنطاكية ! » (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

للامبراطور البيزنطي حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، مع ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به ، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي^(١) . لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب ، فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطي ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه . هذا وإن كانت بعض المراجع تعلن تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور ، وأنه طلب رهائن تبقى لدى رجاله حين عودته إليهم سالمًا ، وهو الطلب الذى اعتبره الإمبراطور إهانة له ، وماساً بشرفه^(٢) .

وعندما ضاق ألكسيوس بتسويق جودفرى ، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين ؛ فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحي المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره^(٣) . وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالإقامة فى ضاحية پيرا Pera - من ضواحي القسطنطينية - حتى يحتموا بها من قسوة الشتاء من ناحية ، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى^(٤) .

على أن هذه الإجراءات من جانب ألكسيوس لم تحل المشكلة ، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابلاً مع جنوده

(1) Runciman : op. cit; I. p. p. 149—150.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 281.

(3) Brehier : op. cit; p. 311.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 178—179.

في بيرا، ورفض أن يؤدي يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي أو حتى يقبل دعوته لمقابلته. وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند في طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا، فكر في إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين، فمنع التموين عن قوات جودفري مرة أخرى (أوائل إبريل سنة ١٠٩٧) مما أدى إلى صدام جديد بين البيزنطيين والصليبيين. وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين في بيرا، وبعد ذلك انسحبت قوات جودفري منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيثُ فساداً في المناطق القريبة من القرن الذهبي، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها^(١). وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم، ففر رجال جودفري ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطي، وهكذا أدرك جودفري بوايون حقيقة قوته ولم يجد بداً من مسألة الإمبراطور^(٢).

وأخيراً اضطر جودفري بوايون إلى قبول شروط ألكسيوس كومنين. فقصد القصر الإمبراطوري لتقديم ولاءه للإمبراطور البيزنطي وإعلان وضع حملته الصليبية في خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضي التي اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية^(٣). وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفري بوايون بتسليم الإمبراطور جميع الأراضي التي كانت ملكاً للإمبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت، والتي سيستردها الصليبيون من السلاجقة. ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة في الأناضول مثل نيقية، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة في أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها. وهكذا جاءت تلك الاتفاقية

(1) Albert d'Aix, p. p. 307—308.

(2) Runciman: op- cit: I, p. 151.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 87—88.

التي تمت في أبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتتمسك بها في المطالبة بحقوقها من الصليبيين طوال القرن الثاني عشر . وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة في ضوء ما كان للإمبراطورية من ممتلكات في القرن الحادي عشر - على عهد باسل الثاني - وإنما في ضوء ما كان للإمبراطورية قديماً من أملاك واسعة في الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان . وفي تلك الحالة لم تكثف الإمبراطورية بالمطالبة بحقوقها في أنطاكية والرها ، وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس . على أننا سنرى أن الصليبيين لم يكادوا يثبتون أقدامهم في تلك المدن ويستولون عليها ، حتى تناسوا كل ما للإمبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكل طويلة بين الجانبين طوال القرن الثاني عشر^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن يمين الولاء الذي أقسمه جود فرى بوايون جعل منه -- ولو من الناحية الأدبية -- تابعاً للإمبراطورية البيزنطية . وكان أن غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جود فرى بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة ، كما غالى في إمداد الجيش الصليبي بالإمدادات السخية^(٢) . وفي عاشر أبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين بنقل جود فرى وجيشه إلى الشاطئ الآسيوي حيث انتظر جود فرى وصول الحملة النورمانية . ولم يكد يتم نقل جيش جود فرى إلى البر الآسيوي حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية ، وبذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح في تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين - حملة جود فرى وحملة بوهيموند - أمام أسوار عاصمته ، ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة^(٣) .

(1) Grousset · op. cit, I, p 19.

(2) Michaud : H st, des Croisades, I, p. 176.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.

بوهيموند النورمانى والسكرابوس كورمين .

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى - أكبر أبناء روبرت جويسكارد - يحاصر مدينة أمالنى التى ثارت ضد النورمان فى إيطاليا . وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشاً غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس^(١) . ولم يكذب بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالنى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة وبصحبه ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقاية . وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية ، فى أفلونا Avlona على شاطئ ألبانيا ، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية^(٢) .

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفرى . فهل حقيقة أن تلك الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت حرب المسلمين ، أم أن لها أغراض وأهداف وأطماع أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية ، فضلاً عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى مازالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين^(٣) . هذه هى المخاوف التى أثارها حملة بوهيموند فى نفوس المعاصرين فى الإمبراطورية البيزنطية ، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها ، لأن بوهيموند

(1) Setton : op. cit, p. 155.

(2) Runciman : op. cit, I. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

نفسه كان يدرك تماما عدم مناسبة الوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية في البلقان ، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان في جميع أنحاء العالم المسيحي وستسبب إلى النورمان إساءة بالغة . وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى في الحروب الصليبية في الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه ، وهو إقامة إمارة للنورمان في آسيا على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ؛ ولتكن هذه الإمارة الجديدة في أنطاكية^(١) !

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية ، وفي أثناء سيرهم في البلقان نجح بوهيموند في كبح جماحهم ، فمنعهم من الاعتداء على الأهالي وأموالهم ، بل على العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداوة للنورمان ، في الوقت الذي قابل بوهيموند تلك الإساءات بشيء من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية^(٢) . وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند في كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، الذي أمر بإمداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية^(٣) .

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية في إبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الإمبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبره عن إخلاصه ونواياه الطيبة ، فوافق الإمبراطور على ذلك بشرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها . والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين في نظر الإمبراطور البيزنطي ، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التي ذاقها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب ؛ وإنما أيضاً

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 21.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p.p. 133—136.

(3) Gesta Francorum, p. p. 20—21.

بسبب كفاية قوات بوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها ، مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبه داخل أراضي الدولة البيزنطية (١) .

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق ، إذ أطاع بوهيموند رغبة الامبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده تاركاً قيادة الجيش النورمانى لاسن أخته تنكرد . والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة في ذلك الدور ، إذ كان يدرك حقيقة قوة الامبراطورية البيزنطية ، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم في الشرق ، فضلاً عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين ، في حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين . هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الامبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه في الشرق ، وهى المطامع التى تتلخص في فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية ، وفي إنشاء مملكة لبوهيموند في الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت في إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد ، من ناحية أخرى (٢) .

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والامبراطور ألكسيوس كومنين في جو مشبع بالود والتفاهم . وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للامبراطور وأعان تبعيته له ، فغمره - هو الآخر - بالأموال والهدايا الثمينة . ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحسد من أطماع بوهيموند ونشاطه في الشرق ، لأنه سيفتح مايفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى ، فإن بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله ، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً في

(1) Runciman : op. cit, I, p. 157.

(2) Chaldon : Premiere Croisade, p. 132.

إقليم أنطاكية . وهنا لبي الإمبراطور طلب بوهيموند ، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوماً وعرضها مسيرة ثمانية أيام^(١). وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية ، وهي الإمارة التي صار لها شأن كبير فيما بعد في تاريخ الصليبيين بالشام .

أما ماطلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائدا عاما للقوات الإمبراطورية في آسيا ، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه في الصليبيين عامة والنورمان خاصة ، ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت في ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته^(٢) .

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره ، سارت الأمور بين الساطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير مايرام ، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطئ الآسيوي في ٢٦ ابريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفري بوايون . هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية - وبخاصة ريتشارد دي سالرنو وتنكرد - تجنبوا قسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورماني إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأي رباط مع الإمبراطور^(٣) .

رجموند دي تولوز وألكسيوس كومنين :

أما الجموع الصامبية الوافدة من إقليم بروقانس ، فقد وصلت إلى الأراضي

(1) Gesta Francorum, p. 31.

(2) Brehier : op. cit; p. 312.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

البيزنطية في الوقت نفسه تقريبا الذي شهد وصول حملة النورمان . وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروقانس . ولما كانت البابوية تطمع دائما في الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهمار — أسقف بوى — ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين بالشرق^(٢) . وقد بارحت تلك الحملة الغرب في اكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية ، دون أن تصادف عقبات كثيرة في الطريق فيما يختص بفاحية التموين . وكل ما هنالك هو أن الأهالي في الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين ، لاسيما وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لا يترددون في ردعهم^(٢) .

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور ألكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده في العاصمة ، فتمت المقابلة في أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية . وهنا وجد ريموند نفسه في مركز لا يحسد عليه . ذلك أنه كان يطمع في الحصول على زعامة الصليبيين جميعا في الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقه المندوب البابوي لملته ، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقة . ولكن هذه الزعامة التي اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، راعى الكنيسة الأرثوذكسية . هذا إلى أن ريموند كان يرى في بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول . فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا في اكتساب صداقة

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 24—25.

الإمبراطور البيزنطي وتأبيده ، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور هو أنه سيضطر في المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند ، وهو مالا يمكن أن يقبله^(١) . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الإمبراطور ، وقالها في صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح ، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح^(٢) . ثم إن ريموند استنكر أن يدخل في تبعية الإمبراطور ، في حين يظل الأخير قابعا في القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين في حرب المسلمين . لذلك أعلن ريموند أنه مستعد لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطي إذا خرج الإمبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم في الحرب الصليبية^(٣) .

وسرعان ما تآزم الموقف بين ريموند من جهة والإمبراطور ألكسيوس من جهة أخرى ، مما أذر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين . وهناتدخل جود فرى بوايون وقال لريموند أنه من الحماسة أن يفكر في شن الحرب على المسيحيين في القسطنطينية ، في الوقت الذي يربط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلومترات قليلة من نيقية^(٤) . أما بوهيموند النورمانى الذى كان قد سوى أموره مع الإمبراطور ، فقد أعلن في صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين في حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين . وأخيرا اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطي . حقيقة إن ريموند أبى بتاتا أن يقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور ، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الإمبراطور وشرفه ، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الإمبراطور^(٥) .

(1) Runciman : op. cit; I, p. 163.

(2) Raymond : d'Aigles (Hist. Occid. III), p. 238.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 283.

(4) Raymond d'Aigles p. 238.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الامبراطور البيزنطى وريموند. بفضل جهود أدهمار المندوب البابوى^(١). هذا إلى أن ريموند أتاحت له فرصة عقد اجتماع منفرد مع ألكسيوس كومنين، وفى ذلك الاجتماع صرح الامبراطور بتخوفه من بوهيموند والنورمان، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية فى آسيا. وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الامبراطور طاب قلبا وهدأ نفسا، وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد فى الامبراطور البيزنطى حليفا قويا ضد بوهيموند وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية تبديلا تاما^(٢).

الحملة الفرنسية: وألكسيوس كومنين:

وأخيرا وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على شاطئ البسفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمانديا — وهو ابن وليم الفاتح —، وصهره إتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر^(٣). وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثانى، استقلت السفن من برنديزى إلى البلقان فى أوائل ابريل سنة ١٠٩٧، فأرست فى دورازو ومنها اخترقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن ألكسيوس كومنين لم يواجه من تلك الحملة متاعب وصعوبات مثلما لاقى من الحملات السابقة^(٤). ولم يمانع زعيما هذه الحملة -- كونت نورمانديا وكونت بلوا — مطلقا فى أن يقسما يمين الولا والتبعية

(1) Setton : op. cit., I, p p. 287—288.

(2) Runciman, op. cit; I, p. 164.

(3) Michaud : Hist, des Croisades, I, p. 178.

(4) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 331—332.

للإمبراطور البيزنطي ، ولذا حرص الإمبراطور على أن يعقد عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإنعامات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة^(١) . وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين في القسطنطينية ، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا في اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا في حصار نيقية^(٢) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 188—189.

(2) Brehier : op. cit; p. 312.

الفصل السابع

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى - باستثناء ريموند وتنكرد -
بمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، وتعهدوا له برد
كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من
نيقية حتى أنطاكية . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين
في مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره في الحرب الصليبية ، وأن
يمددهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا^(١) .
ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى تم إبرامها في منتصف
مايو سنة ١٠٩٧ بين الامبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند الذي
كان يجادل الظهور دائما في صورة الحليف الأول للامبراطور البيزنطي^(٢) .

وأخيرا تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي قرب أزمير
حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم
الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسي لقلج
أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضي
في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة ، مما يهددهم ويهدد
خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لخطر جسيم . لذلك صدرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27.

(2) Chalaudon : Alexis Comnene p. 188.

الأوامر إلى الصليبيين في أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الامبراطور البيزنطي الصليبيين بآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكن لم تشترك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية في حصار نيقية ، وهي المدينة القوية التحصين ^(١) .

وفي ذلك الوقت كان قلعج أرسلان متغيبا عن نيقية ، حيث دخل في نزاع في كبادوكيا مع بني دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلعج أرسلان لم يهتم كثيرا بأبناء الغزو الصليبي ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من عينة أتباع بطرس الناسك الذين قضى عليهم السلاجقة في سهولة تامة ^(٢) . هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطي وجواسيسه أعطوا قلعج أرسلان صورة غير حقيقية عن الخلافات المستحكمة بين الامبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقي يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها ^(٣) .

ولكن قلعج أرسلان لم يلبث أن أدرك جدية الأمر ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك في المرة السابقة ، فأرسل قوة على عجل للدفاع عن نيقية وإنقاذها ؛ على أن تلك القوة لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية في ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع ^(٤) . ثم كان أن حضر السلطان قلعج أرسلان نفسه في حوالي ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعد معركة قصيرة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا

(1) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 285.

(2) Setton : op. cit; I. p. p. 288—289.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 176—177.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I. p. 29.

كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة في تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضا ، ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم قوة جديدة ^(١) .

وفي تلك الأثناء لم يتقاعس الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالموث والزاد ، كما أرسل أسطولا صغيرا من السفن إلى البحيرة التي تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالموث والإمدادات ^(٢) . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلج أرسلان بدأت تفكر في الاستسلام . ولكن أهل نيقية من الأتراك خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الامبراطور البيزنطي لعله يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا في الوقت الذي كان ألكسيوس كومنين متخوفا من نوايا ريموند وتنكرد — بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية — وخشى أن يعارض هذان الأميران في تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتدمير ^(٣) . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطي بسرعة ، وفاوض حامية نيقية على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجيء الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئا عن المحادثات السرية التي دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطي من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية في ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧ ، أي بعد ستة عشر سنة من احتلال السلاجقة لها ^(٤) .

(1) Albet d'Aix, p. p. 320—321.

(2) Gesta : Francorum, p. 37.

(3) Chalandon : Alexis Comnene. p. 190.

(4) Brehier : op. cit, p. 312.

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الامبراطور البيزنطي تجاه أسرى نيقية ، إذ ضايقتهم تسامح الامبراطور مع الأسرى واستعداده لإطلاق سراح زوجة قنوج أرسلان وأولاده دون فدية . وكان الامبراطور ألكسيوس — من معاملاته العديدة مع المسلمين — يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الامبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية ^(١) .

وقد أسرع الامبراطور ألكسيوس كومننين إلى دعوة زعماء الحملة الصليبية — غداة الاستيلاء على نيقية — للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل في آسيا الصغرى . وفي ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء للامبراطور ، وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الامبراطور والاستجابة له ، في حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء للامبراطور ^(٢) . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين — باستثناء تنكرد وريموند أدركوا أهمية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم في مشروعهم الخطير ^(٣) . حقيقة إن الامبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على قونية ، ولكنه أمدهم بفرق من الجيش البيزنطي لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم . وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين تقاسموا مهمة محاربة الأتراك في الأناضول ، فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة السلاجقة في فريجيا واختاروا الزحف على صور ليوم وقونية ، إذا بالامبراطور ألكسيوس كومننين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى أي من أقاليم مسيا Mysie وأيونيا وليديا ^(٤) .

(1) Runciman, op. cit, I, p. p. 180—182.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193.

(3) Chalandon : Premiere Crisade, p. 167.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 31.

وخلاصة القول أنه مهما يقال في استيلاء الصليبيين من مسلك الامبراطور البيزنطي - سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسامين - فإن سقوط نيقية نفخ في الصليبيين روحاً وعزيمة شجعتهم على المضي قدماً في طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون^(١). ثم إن الغرب الأوربي قابل أبناء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجماً عن المشاركة في الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعاً على الصليبيين وهم في طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التي ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفاً حذراً من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جديدة جعلتها تسهم إسهاماً فعلياً في تلك الحرب^(٢).

موقعة ضورليوم والانتصار على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا سيرهم عبر فريجيا في أواخر يونيو سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على نفوذ سلاجقة الروم في أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ؛ فسارت إحدى الشعبتين في الاتجاه الشمالي الشرقي والأخرى في الاتجاه الجنوبي الشرقي ، على أن يلتقيا في ضورليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعاً أي نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت ؛ في حين كان على

(١) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا تتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبها ، فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولمدد محدودة (Cam. Med. Hist. vol 5, p. p. 285)

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 182—183. & Setton : op. cit; I, p. 291.

رأس الشعبة الثانية المندوب البابوي أدهارومعه من الأمراء جودفري بوايون وريموند .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعت ضورليوم حتى وجد نفسه فى مازق خطير^(١). ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من الأتراك فى آسيا الصغرى — وهما البيت السلجوقى وبنو دانشمند — يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلعج أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت جميع قوى الأتراك فى آسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين فى سهل ضورليوم (٣٠ يونية)، فوجد بوهموند نفسه فى خطر محقق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول^(٢). على أن وصول جودفري بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، غير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذ دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولا تخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذ جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة السلاجقة^(٣).

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب صعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ولم يجدوا ما يحمل متاعهم

(1) Albert d'Aix, p. p. 328—329.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. p. 129—130.

(3) Grousset : op. cit; I, p. 35.

وأثقالهم^(١) . ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين في زحفهم حتى وصلوا أخيراً - حوالي منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ - إلى سهل قونية الغنية بكثافتها وشجرها .

ولم ير الصليبيون ما يدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التي وضعها قلعج أرسلان عقب الكارثة التي حلت بجيوشه في ضروريوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ؛ اللهم إلا من بعض الأرمن الذين قدموا النصح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقبلوا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة^(٢) .

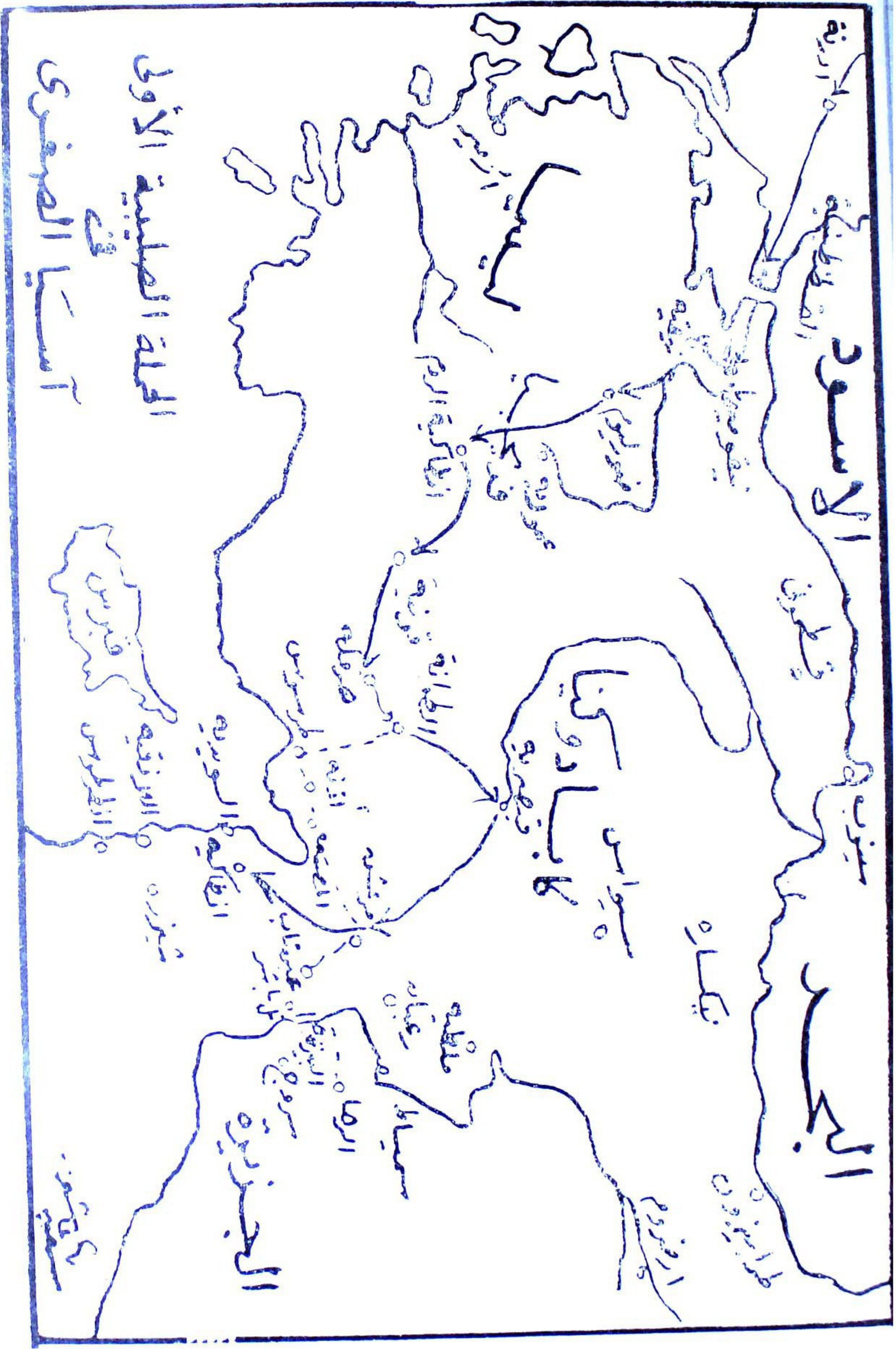
وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عندهرقله ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل^(٣) . و بعد أن استراح الصليبيون بضعة أيام قليلة في هرقله انقسموا مرة أخرى إلى شعبتين ، فانشق تنكرد ومعه بلدوين - شقيق جودفري بوايون -- واتجهوا في حوالي منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية في الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى ، في حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المندوب البابوي وجودفري نفسه وبوهيموند وريموند طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التي استولوا عليها في ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧^(٤) . ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقي ، فاستولوا في أوائل أكتوبر على بلاكتيا - وهي قلعة أرمينية في جبال طوروس ذات موقع هام - كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطي المرافق للصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 55.

(2) Gesta Francorum; p. p. 55-57

(3) Setton: op. cit; vol. 1; p. 295.

(4) Gesta : Francorum, p. 61.



تسليمه تلك القلعة باسم الامبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم
بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة (١) .

و بعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياح الأرمينية حيث رحب بهم
الأرمن وأظهروا لهم الود والصدقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل طوروس الماية
للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ،
فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها في ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم
منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على
كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية (٢) ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو
الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصى شرقى انطاكية في ٢٠ أكتوبر ،
وبذلك بدأ الغزو الصليبي للشام (٣) .

وقبل أن نتبع الغزو الصليبي للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود
الامبراطور الكسيوس كومنين في استرداد أيونيا و فريجيا ، وجهود تنكرد و بلدين
البولوى في قيليقية وإقليم الرها .

عملية الكسيوس كومنين الصليبية في أبونيا و فريجيا :

لا شك في أن سقوط نيقية عاصمة قلعج أرسلان ، ثم هزيمة قلعج أرسلان
نفسه في موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كان بمثابة طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة
السلجوقية ومكانتها في الأناضول . وكما أن سقوط نيقية في أيدي السلاجقة سنة
١٠٨١ أدى إلى استيلائهم في سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ،

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I; p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 287.

(3) Michaud : op cit; p. p. 237—239.

فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الامبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربي من الأناضول برمته^(١).

وعندما أوغل الصليبيون في قلب دولة قلعج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر؛ وجد صفار الأمراء الأتراك على شاطئ بحر إيجه - مثل أمير أزمير وأمير إفسوس - أنفسهم مقطوعين عن الدولة السلجوقية، فلم يستطيعوا المقاومة طويلاً^(٢). ولا شك في أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذي أفاد من تلك الأوضاع، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشاً يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازبا كس Kaspaخ^(٣). كذلك اختار الإمبراطور البيزنطي - لكي يفت في عضد الأتراك - أن يرسل صحبه جيشه السابق مجموعة من أسرى السلاجقة في نيقية، وبصفة خاصة زوجة السلطان قلعج أرسلان نفسه. ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحاً كبيراً، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس^(٤).

وفي ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجييا من الأتراك. وبعد أن نجح القائد البيزنطي في استرداد تلك الجهات حتى أضاليا، اتجه صوب الشمال الشرقي حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور البيزنطي قد احتل بشنبا التي أخلاها الأتراك عقب موقعة ضور ليوم. وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربي من الأناضول (يونيه ١٠٩٨)، ولم يبق أمام الإمبراطور ألكسيوس كومنين سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية^(٥).

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.41.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 195.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 194.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 196—198.

(5) Brehier : op. cit, p. p. 312—313.

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية في استرداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهي نتيجة لها من الأهمية التاريخية ما لا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدي الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ما صارت إليه سنة ١٠٩٨ . ففي سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أي على مسافة قصيرة من بحر مرمرية والبسفور ، في حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما في سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من بثينا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية و الحضارة البيزنطية لتعيش من جديد ثلاثة قرون ونصف . ويكفي للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٤ في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم تبتد الحضارة البيزنطية والتراث البيزنطي مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التي تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تتأربها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١^(١) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 42—43.

الفصل الثامن

تأسيس إمارة الرها الصليبية

نجاح تنكرد وبلدوين البولوني في استرداد قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولوني — أخو جودفري بوايون — ، ومعه تنكرد ابن أخت بوهموند النورمانى — أن ينفصلا في ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة^(١) .

والواقع إن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حباً للمخاطرة والمجازفة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت في نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحرية لغزو الشرق . وقد رأى هذان الزعمان أنه من الخطأ اتخاذ الطريق الطويل حول كبادوكيا مارين بقيصرية ومرعش ؛ لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها إلا مبرر واحد هو الرغبة في تنفيذ الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماماً في الأناضول ، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التي عرفت فيما بعد اسم «أرمينيا الصغرى» التي كانت تسكنها عناصر مسيحية .

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين ، ومن ثم كان حراً في تصرفاته^(٢) . ويبدو أن بلدوين البولوني شارك تنكرد في كثير من آرائه ووجهة نظره ، ومن ثم تجنب الاثنان طريق كبادوكيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبية التي كانت دائماً موضع

(1) Chalandon : Premiere Croisades, p.172.

(2) Setton : op. cit; I, p. 296.

نزاع بين زعماء الأرمن في طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى،
بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها في تلك المنطقة^(١).

وكان إقليم قيايقية الذي طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين،
قد عمرته هجرة أرمينية ضخمة في القرن الحادي عشر، عندما اضطرت جموع
غفيرة من الأرمن — أمام غزو السلاجقة — إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان
في أواخر القرن الحادي عشر والاتجاه جنوباً صوب قيايقية. ولم يلبث أن صار
ذلك لإقليم فيما بين سنتي ١٠٧٧، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس
— المغامر الأرمني الذي سبق الكلام عنه — والذي استطاع أن يؤسس أول دولة
أرمنية في تلك المنطقة^(٢). وبسقوط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة
أن يخضعوا الجزء الأنظم من سهول قيايقية ومخاصة مدينتي المصيصة وطرسوس.
ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن من الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال
طوروس، ومن هؤلاء روبان Roupên الذين كان من رجال كاج الثاني آخر
ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالي سنة ١٠٨٠ داخل جبال
طوروس إلى الشمال الشرقي من سديس. وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول
(١٠٩٢ — ١١٠٠) الذي استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة
نفوذه في جميع أنحاء قيايقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال
طوروس في تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير في
تاريخ أرمينيا الصغرى؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه^(٣).

وعلى هذه الصورة وجد تنكرد وبلدوين البولوني قيايقية عند وصولهما إليها
في أواخر سنة ١٠٩٧، وبصحبتهم بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 43.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p. p. 88—91.

لها مهمة الزحف^(١). وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين في قبايقية من العوامل الرئيسية التي سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولوني ، لأن معظم سكان المدن والقلاع في ذلك الإقليم - كما لاحظ المؤرخ الصليبي وليم الصوري - كانوا من الأرمن ، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للأتراك وبها حاميات تركية^(٢).

لذلك كان أول ما فعله تنكرد عندما شرع في حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن (٢١ - سبتمبر سنة ١٠٩٧) . ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولوني قد أفزع حامية المدينة التركية ، فانهزت فرصة الليل وفرت منها ، وعندئذ أسرع سكان المدينة - من الأرمن والبيزنطيين - إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم . وللمرة الأولى تردد تنكرد في تسليم طرسوس لمندوبى الامبراطور البيزنطى - أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت في كافة المدن التي استولوا عليها - لأن تنكرد كان يطمع في فتح قبايقية لحسابه الخاص ، ولا سيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية^(٣).

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قبايقية ، بدأت تظهر في وضوح أطماع الأمراء في تأسيس إمارات خاصة لهم في الشرق . من ذلك أن بلدوين البولوني عز عليه أن ينفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة ، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هو نحو إقامة إمارة لنفسه في مدينة الرها . على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح

(1) Raoul de Gaen : (Hist, Occid, Tome III) p. 634 & Albert d'Aix : Hist, Occid, IV, p. 683.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 140.

(3) Crousset Hist. des Croisades, I, p. 46.

فترك طرسوس واتجه صوب أذنه^(١). وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من اتباع تنكرد قد تخلفوا عند طرسوس ، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدهم بالزاد ، وأجبرهم على المبيت في ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلوه عن آخرهم^(٢). وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولوني وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك .

وعلى أنه مما دعم نفوذ بلدوين في تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطئ قيليقية ، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين ، معظمهم من الأراضي المنخفضة بزعامة ونمار البولوني Winemar of Bologne - وهو قرصان محترف - قدم لبلدوين البولوني ثلثمائة جنديا لمساعدته ، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد في الاستيلاء على الاسكندرونة^(٣) أما تنكرد فكان في تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه ، ومنها إلى المصيصة التي كانت في قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الأرمن (أوائل اكتوبر ١٠٩٧)^(٤). وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة و بلدوين البولوني من جهة أخرى ، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد في الاستيلاء عليها^(٥). ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن ، فأغلق أبوابها في وجه بلدوين الذي اضطر إلى المرابطة بقواته خارجها . وكان أن حدث صدام بين القوتين ، ولكنه انتهى بالصلح السريع^(٦).

وهنا نؤكده مرة أخرى أن النزاع بين تنكرد و بلدوين البولوني إنما كان

(1) Cam. Med Hist. vol 5. p. 288.

(2) Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. p. 346—347.

(3) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 288.

(5) Chalandoo: Hist. de la Premiere Croisades, p. p. 172-173

(6) Stevenson : The Crusades in the East, p. 22.

يحمل بين طياته معنى خفياً ، وهو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم في الشرق^(١) . ذلك أن المفروض - حسب الاتفاقية المعقودة بين الامبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين - أن تسلم قيلية للامبراطورية ، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون في المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث في قيلية - وهي طرسوس وأذنه والمصيصة - سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية . وحوالي سنة ١١٠٠ أرسل الامبراطور ألكسيوس كومنين حملة تسلمت المدن الثلاث السابقة . وإذا كان تنكرد قد استولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١ ، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوها سنة ١١٠٤^(٢) وهكذا استمر الحال ، حتى أدى النزاع بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى ، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ، وهي مملكة أرمينيا الصغرى .

بلدوين البولوني وأمرائه الأرمن في طوروس والجزيرة :

لم يحاول بلدوين البولوني أن ينفذ في قيلية مشروع الخصاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ، وإنما ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفري بوايون وبقية الجيش الصليبي الكبير عند مرعش . ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة في البلاد الأرمينية^(٣) .

والملاحظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن في القرن الحادي عشر قد غيرت

(1) Setton: op. cit; vol. I, p 296.

(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 221—223.

(3) Albert d'Aix : Hist, Occid, III, p. XXVII.

وجه قيليقية ، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً في الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات ، أى في الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها . على أنه لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الأرمينية التي أقامها فيلاريتوس والتي سبق أن أشرنا إليها ، حتى إذا ماسقط فيلاريتوس ، حل محله في تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه (١) وفي ذلك الميدان صمم بلدوين على أن يعمل ، لاسيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بحجى الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم مما يلاقونه من ضغط المسلمين المحيطين بهم . وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجه بلدوين إلى تلك المنطقة الأرمينية لم يكن اعتباطاً ، وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمينية فيها واتصال بعضهم ببلدوين أثناء وجوده في قيليقية ، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والباوية ، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع — قبل ذلك بعشرين سنة — لطلب مساعدته عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر في إرسال حملة لمساعدة المسيحيين في الشرق (٢) . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن ، في تلك المنطقة الممتدة من شمالي الشام إلى شمال الجزيرة ، لنذكر الأساس الذى قامت عليه أولى الإمارات الصليبية في منطقة الشرق الأدنى .

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس ، واسمه جبريل . وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية ، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 182—183.

(2) Runcimen : op. cit, I, p. p. 202—203.

جنسه الأرمني ومذهبه اليوناني^(١) . على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحي ، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول في تبعية السلطان السلجوقي والخليفة العباسي . ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية ، وعادت الزوجة وهي تحمل لزوجها تآكيدا بضمأن بقائه في إمارته^(٢) . ثم إن جبريل لم يتردد في مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته . ومن ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وعندئذ أبى جبريل في إصرار تسليم مدينته . وإذا كان السريان في ملطية قد أظهروا دائما عداً للحكم البيزنطي الأرمني ، حتى أن حنا سعيد زعيم السريان في ملطية اتصل فعلا بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا في أوائل يولييه سنة ١٠٩٦^(٣) . وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلج أرسلان في نيقية وضورليوم وغيرها ، فخف ضغط السلاجقة مؤقتاً على ملطية ليهدها الخطر التركي من ناحية أخرى ، هي ناحية الركان من بني دانشمند في سيواس . ذلك أن صاحب سيواس — الملك غازي كمشكين — لم يلبث أن انتهز فرصة ما حل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازي يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالبا المساعدة^(٤) .

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لمندوبي الإمبراطور البيزنطي بعد أن خاصوها من الأتراك في أكتوبر سنة ١٠٩٧ . على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن هذه المدينة أرمنية قلباً وقالباً ، ومن ثم رأى أن

(1) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tome I, p. 437.

(2) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 50.

(4) Michel Le Syrien; p. 187.

يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثاتول Thatoul — الذي ظل يحكم مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤^(١) .

وفي شرق مرعش ظهر مغامر أرمني آخر — هو كوغ باسيل — الذي بسط سيادته على قلعتي كيسون (كيسوم) ورعبان ، قرب بهسني . وكوغ باسيل هذا أخو باكراد الذي رافق بلدوين البولوني بعد نيقية^(٢) ، والذي وجه نظرة نحو تلك المنطقة الأرمينية . ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع ومكانة خاصة في تلك المنطقة^(٣) .

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمني آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم ؛ الذي كان أيضاً من رجال فيلاريتوس . وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد خضعت للسلاجقة فترة عصيبة من تاريخها عند ما منحها السلطان ملكشاه للأمير بوزان سنة ١٠٨٧ . على أن النزاع الذي استحكم في تلك الفترة بين أمراء السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها سنة ١٠٩٥ ، وإن كان قد تجنب الدخول في صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم ، ولو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال^(٤) . وفي الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعي في حكم الرها هو الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي^(٥) . ومع كل ذلك فإن الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها ، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى .

هذا من ناحية الأرمن ، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضاً كانوا

(1) Chalandon : Les Comnènes, II, p. 105.

(٢) يذكر ابن العبري أن كوغ باسيل معناها « اللص باسيل لانه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها للأرمن إلى الآن » .

(ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .

(3) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

(4) Guibert de Nogent, III, p. 165.

(5) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm), I, p.35.

في حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن في تلك المنطقة . وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن العربي في الشرق الأدنى أمام الصليبيين ، لا سيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين ، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى في تلك الجهات^(١) . وكانت هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا في منطقة تل باشر — على الطريق بين الرها وأنطاكية — وفي منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية . وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد — الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى — أن يوجهه عند ما ترك الأخير مرعش^(٢) .

بلدوين البولونى والرها :

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدما كبيرا ، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة في تلك الجهات والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين^(٣) . وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة ، في الاستيلاء على تل باشر والراوندان ، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى . وقد أراد بلدوين أن يكافئ رفيقه الأرمنى باكراد ، فمنحه حكم الراوندان ، ولكنه عاد وتشكك في ولاء باكراد له فاعتقه^(٤) .

وفي تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين في

(1) Guillaume de Tyr : I, p. 153.

(2) Stevenson : op. cit, p. 23.

(3) Ibid

(4) Michaud : op. cit, I, p. 228.

الاستيلاء على تل ابشر من السلاجقة ، فأرسل إلى بلدوين يدعو للحضور إلى الرها لمساعدته (فبراير ١٠٩٨) . وكان ثوروس رجلا مسنا . ليس له ولد يرثه في إمارته ، فخشي أن تضيع الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون ^(١) . وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا (كربوقا) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشا كبيرا لإنقاذ أنطاكية من الخطر الصليبي ، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش — وهو في طريقه إلى الشام — الرها وغيرها من الإمارات الأرمنية ^(٢) .

وبها يكن من أمر ، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى في نفس بلدوين البولوني ، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية ، فأسرع إلى الرها في فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوة صغيرة من ثمانين فارسا ؛ واستطاعت تلك القوة أن تفلت من الوقوع في قبضة حامية سميساط التركية . وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة فاستقبلوها استقبالا حافلا ^(٣) كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة ، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمنية واللاتينية ، مثلما كان بين الكنيسة الأرمنية من ناحية والأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى ^(٤) .

والواقع أن سميساط — من فيها من أتراك — كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمنية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدوين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة ، فاستجاب بلدوين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميساط في النصف الثاني

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar), I, p. 35.

(2) Runciman : op. cit, I, p. 203—204.

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 36.

(4) Guilloume de Tyr, I, p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عند ما أشار إلى امتلاك الصليبيين الرها قال « إنهم ملكوا مدينة الرها بمكانة من أهلها لأن أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل » .
(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين في تلك العملية جيش من الأرمن ، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميساط . وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع ، إذ بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن^(١) .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولوني من ثوروس أمير الرها في تلك المرحلة ، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميساط جعل بلدوين يفكر في ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمينية إلى إمارة لاتينية — أرمينية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عندما استنجد ببلدوين هي أن يجعل منه قائد الجيش وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه . ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذي يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث في هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين في تل باشق قبل حضوره إلى الرها ، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذه إبناً ووريثاً وشريكاً له في حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه في حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى^(٢) . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلدوين فقد انتهى الموقف بأن تبنى ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له في حكم الرها ، وتمت مراسم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الأرمينية في القرن الحادي عشر^(٣) .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمينية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتيني هو الوريث الطبيعي

(1) Grousset : op. cit, I, p. 55.

(2) Runcimen : op. cit, I, p. 204.

(3) Guibert de Nogent : Hist. Occid, IV. p. 165.

للغنى الأرمنى فى حكم الرها . على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها ، بل لقد نغم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسى واعترافه بنوع من التبعية للإمبراطور البيزنطى هذا فضلاً عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالى ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه فى جمع الضرائب والأموال من الأهالى الخاضعين له^(١) . ولم تلبث أن أتاحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلديون إليهم ، فقامت ثورة عارمة فى الرها فى مارس سنة ١٠٩٨ ، وهى الثورة التى انتهت بقتل ثوروس وانقال مقاليد الأمور فى الرها إلى يد بلديون البولونى .

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن^(٢) ، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلديون تماماً من تهمة المشاركة — ولو بنصيب محدود — فى تحريض الثوار ومن تهمة التفريط فى حياة ثوروس ودمه ، وعدم القيام بواجبه كاملاً فى حمايته . ولا أدل على صحة هذا الاتهام من سياسة بلديون فى الرها ، إذ حرص دائماً على أن يكتسب مكانه شعبية فى نفوس الأهالى ، فضلاً عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار ، بل على العكس نصحه بالتسليم^(٣) وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المراجع إلى اتصال المتآمرين على حياة ثوروس ببلديون سرّاً فى ليلة من ذات الليالى ، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم ، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم فى المدينة عقب التخلص من ثوروس^(٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح

(1) Michaud : op. cit, I, 233.

(2) Albert d'Aix, p. p. 354—355. & Guillaume de Tyr: I, p. 206.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 206.

(4) Matthieu d'Edesse, I, p.p. 37—38.

بلدوين البولوني سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها . وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه ، بل إنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه في الشرق ويحقق أطواره السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها . حقيقة إن الرها لم تكن في الأراضي المقدسة ذاتها ، ولكن أهميتها في تاريخ المسيحية الأول معروفة^(١) . هذا فضلا عن أن موقعها في شمال الجزيرة جعل تلك إمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية في حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أي هجوم يأتي من الشرق .

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطي ، فتناسى أنه وريث ثوروس الذي ربطته بالإمبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة^(٢) . ثم إن الظروف التي أصبح فيها بلدوين البولوني سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الامبراطورية البيزنطية ، لأنه تولى مقاليد الأمور في الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة ، مما جعله يتحلل من أي قيد يربطه بالعرش البيزنطي ، في الوقت الذي كان بلدوين متحررا فعلا من التزامات الاتفاقية التي عقدها زعماء الصليبيين في القسطنطينية ، مع الامبراطور ألكسيوس كومنين . وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمنية ، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمنية . وتبدو أهمية ذلك كله في أن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي تم خرقها فعلا في الرها ، قبل أن يستولى الصليبيون على

(١) كانت مدينة الرها من أول البلدان التي قامت بها جالية مسيحية كبيرة في الشرق الأول ، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية في القرن الثاني للميلاد انظر: (Burkitt : Early Eastern Christianity).

(2) Runciman : op. cit, I, p. 206.

أنطاكية ويدخلوا في نزاع حول ملكيتها مع الامبراطورية البيزنطية^(١). أما الامبراطور ألكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ في مركز يسمح له بتأكيد حقوقه في الرها، لبعدها عن مركز قوة الامبراطور، ولذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتاً عما جرى في الرها من أحداث وعن استقلال بلدوين بها حتى تمكنه الظروف في المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطورية في تلك المنطقة بصورة عملية^(٢).

وسرعان ما أحس بلدوين بضرورة القيام ببعض الأعمال التي تعلى من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الأرمن وتضفي على حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والأهمية. لذلك أخذ بلدوين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط، وهي المدينة التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات، مهدداً للرها. وكان أن وفر أمير سميساط التركي على بلدوين عناء الحرب؛ إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، فعرض على بلدوين شراء سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب. ولم يجد بلدوين صعوبة في الحصول على هذا المبلغ إذ كان في خزانة أمير الرها الراحل — ثوروس — مبالغ طائلة، دفع منها بلدوين الثمن المطلوب واستولى على سميساط. وقد وجد بلدوين في قلعة سميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهائن الأرمن — معظمهم من أبناء الرها — فردهم إلى أهلهم وذويهم، مما أكسبه شعبية كبيرة بين أهل الرها^(٣).

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا في إخضاع مركز آخر قريب في الجنوب الشرقي هو حصن مروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب. وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهرام بن

(1) Grousset : op. cit, I, p. p. 60—61.

(2) Setton : op. cit, vol. I, p. 304.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 159.

أرتق ، أي أنه انتمى إلى الأراتقة وهم بيت من التركان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس ، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقي ، حيث أسسوا عدة إمارات في ديار بكر وشمال الجزيرة (١) . ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التي قامت في الرها ، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامرا من نوع رسل باليل ، فأرسل إليه يطالب منه المعونة ضد رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال . وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم في تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدوين على سروج ، فعزل بلك وضمها إلى أملاكه (٢) . ولا شك في أن الاستيلاء على سروج جاء متمما لفتح الرها ومؤمنا لهذه الإمارة الجديدة (٣) .

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩ ، وهي قلعة على نهر الفرات ذات موقع حربي هام ، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب) (٤) . حلى أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين ، كما سنرى فيما بعد .

أما عن سياسة بلدوين في حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التي صارت تتألف منها الإمارة ، وبخاصة الصايبيين الغربيين من

(١) ابن العري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .

(2) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV) p. p. 356-357 & 445-446.

(٣) أما رواية ابن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج ، فبقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وبلك بن بهرام ، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكان) بن أرتق نفسه ، وهو الذي كان في وقت ما صاحب بيت المقدس . ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركان ، ولكنه هزم واستولى الفرنج على سروج . وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 402.

ناحية والأرمن من ناحية أخرى . وقد ضرب بلدوين نفسه مثلاً لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda ، وهي ابنة أحد زعماء الأرمن (١) . على أنه إذا كانت سياسة بلدوين قد استهدفت الربط بين العنصرين ، إلا أنه من الواضح أن بلدوين نفسه كان حريصاً في الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمني خاضعاً للعنصر اللاتيني الغربي . لذلك جذب بلدوين إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال . ولكن هؤلاء عاشوا بعيدن عن الاختلاط بالأرمن ، مما أساء كثيراً إلى شعورهم (٢) . ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية في الرها ، تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفراده بالتجارة والزراعة . حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً — مثلما كان يفعل البيزنطيون — فظل التسامح الديني يسود العلاقات بين اللاتين والأرمن ، ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها ، واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل في ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة في الغرب الأوربي ، فضلاً عن أن الضرائب التي ظل يدفعها أهل الرها لم تخف مما كانت عليه أيام ثوروس (٣) .

لذلك لا عجب إذا استاء الأرمن من حكم الصليبيين ، وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، فاتصلوا بالأراراتمة سرّاً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعمائها عقاباً قاسياً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨ (٤) .

(1) Guilanme de Tyr, p. 402.

(2) Michaud : op. cit. I. p 235.

(3) Runciman : op. cit, I. p. 211.

(4) Albert d'Aix, p. 443 & Guillaume de Tyr p. 285.

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفي الوقت الذي كان بلدوين البولوني يعمل في محيط الأرمن بالجزيرة ، زحف بقية الجيش الصليبي الكبير على شمال الشام قاصدا أنطاكية ، وهي العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم . وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعا كبيرا في قلوب الأهالي ، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادي . وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله إن الصليبيين وصلوا « في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها . » ^(١) وكان الصليبيون قد غادروا مرعش في أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء ثم استولوا على حصن بفراس وقلعه أرتاح في الطريق ؛ ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند مدينة أنطاكية في ٢١ أكتوبر ^(٢) .

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الامبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمني ، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتمش في فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تنش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تنش ، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ (مطبوع) .

من التركان ، وهو ياغى سيان سنة ١٠٨٧^(١) . وكان ياغى سيان هذا على درجة من الكفاية مكنته من اكتساب رضاء تنش بعد وفاة ملكشاه ، حتى إذا ماتوا تنش ظل ياغى سيان محتفظاً بأنطاكية ، دون أن يستطيع ملك حلب — رضوان بن تنش — انتزاعها منه . وهكذا قدر لذلك الأمير التركمانى — ياغى سيان — أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين^(٢) .

ولم يكن الشقاق بين ياغى سيان أمير أنطاكية وسيد رضوان بن تنش ملك حلب هو العامل الوحيد الذى سهل مهمة الصليبيين فى شمال الشام ؛ وإنما حدث فى السنة نفسها التى أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوروبا إلى الشرق (١٠٩٦ — ١٠٩٧) أن قامت حرب أهلية بين ابنى تنش — رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق — بسبب رغبة الأول فى انتزاع دمشق من أخيه^(٣) . وكان أن زحف رضوان — يصحبه ياغى سيان — على دمشق لطرده دقاق منها ؛ ولكنه فشل فى ذلك وارتد « عائداً إلى حلب خائباً فى الأمر الذى طلب^(٤) » ولم يلبث أن ترك ياغى سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق ، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان فى حلب . ولكن دقاق فشل هو الآخر فى هجومه على حلب ، على الرغم من مساعدة ياغى سيان له^(٥) .

(١) ذكرته بعض المراجع باسم ياغى بسان ؛ وقال الدكتور زكى محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الأصح (زامباور : معجم الأنساب ص ٢٢١) .
ومع اعترافنا بصحة هذا رأى ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم فى غالبية المراجع المعاصرة .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) « وقد كان الملك نجر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلاً إلى دمشق وعباً لها ، ووثراً للمود إليها ، ولا يختار عليها سواها ، لمعرفته بحساسنها وترعرعه فيها » .
(ابن القلانسى : ١٣١ — ١٣٢) .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ .

هذه هي بعض الأحداث التي كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين في أكتوبر سنة ١٠٩٧،^(١) ومنها يتبين أن ياغى سيان بخيانته لسيدده ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي في أنطاكية . ويقول ابن العديم أن استبداد ياغى سيان وتعسفه آثار استياء المسيحيين في شمال الشام وبخاصة في أرتاح ، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم^(٢) .

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية^(٣) . ذلك أن الجبال العالية أحاطت بها من جهتي الجنوب والشرق ، في حين كان يحدها من من جهة الغرب مجرى نهر العاصي ، ومن الشمال مستنقعات وأحراش ، فضلاً عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها^(٤) . وعندما وصل بوهموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا مواقعهم في الجهة الشمالية للمدينة ، أي عند باب بولس . ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز ، وروبرت أمير نورمانديا ، وهيو أمير فرمندوا ، وستفن (إتين) أمير بلوا ، فاتخذوا جميعهم مواقعهم بين باب بولس وباب الكلب . أما ريموند والمندوب البابوي أدهار ومعهم فرسان بروفانس ، فاستقروا أيضاً على مقربة من باب الكلب ، إلى الجهة الغربية منه . وأخيراً عسكر جودفري بوايون في الجهة الشمالية الغربية ، أي في مواجهة باب الجذينة^(٥) .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(2) Stevenson : The Crusaders, p. 25.

(٣) « وفعل أهل أرتاح مثل ذلك ، واستدعوا المدد من الفرنج . وهذا كله لفتح سيرة ياغى سيان وظلمه في بلاده » .

(ابن العديم : زبدة الحلب ٢ ص ١٣١ — مطبوع) .

(4) Grousset : Hist, des Croisades I, p. 72.

(٥) ذكر ياقوت الحموي عن أنطاكية « ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور =

وكانت غالبية أهل أنطاكية في ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغي سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين « خاف من انصارى الذين بها » ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمي المدينة ؛ ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين في حصارهم ، في حين تحفظ هو على أهلهم « وكف أيدي المتطرفة إليهم » (١) .

هذه هي الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين ؛ أما الرواية اللاتينية فتختلف تماماً لأنها تقول إن « الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة ، فاستفسروا منا عن هذفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة اسرار المدينة » (٢) . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغي سيان قد اتخذ إجراءات تصفية ضد المسيحيين في أنطاكية عندما علم باقتراب الصليبيين ، فزج بالبطرق في السجن ، وطرده كثيراً من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلًا لخيوله (٣) .

ومهما يكن من أمر فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر - من ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونيو ١٠٩٨ (٤) - وكان من الممكن ألا

= الشامية. وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ... وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كمنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته نتم الدائرة ... (معجم البلدان ص ٢٦٧ - طبعة بيروت) .

(2) Guillaume de Tyr I, p. 174-175.

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. 69.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 214.

تطول مدة الحصار على هذا النحو لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتا طويلا في الانتظار والتفكير ، لا سيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التي استولت على الأتراك في أنطاكية عندما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطئ البحر ، وذلك عندما وصل إلى ميناء السويدية - عند مصب نهر العاصي - في حوالي ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٨ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين^(١) .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخرق الأناضول في طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندنافية على مساعدة الصليبيين^(٢) . من ذلك أن المغامر ونمار البولوني استطاع أن يستولى في أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور - أي في ربيع سنة ١٠٩٨ - زار اللاذقية أسطول انجليزى بقيادة إدجار اثننج وروبرت جودفنسن^(٣) .

أما ياغى سيان ، فقد حاول في تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعى ألا يطمع فى مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه فى العام السابق ، فأرسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلا عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسى ، « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجد والبعث على الخوف إلى الجهاد وقصد تحصين أنطاكية وإخراج

(١) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل - حوادث ٤٩١ هـ) .

(2) Raymond d'Agiles. (Hist. Occid. III), p. 242 & Caffo (Hist. Occid, V). p. 50.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133.

النصارى منها»^(١). وفي الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل ، فشحن القلاع بالجند والمقاتلين واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية^(٢).

وعندما طال حصار أنطاكية ، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيراً من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة — وبخاصة في حوض نهر العاصي — لتهبها والحصول على المبرة والغذاء . ويبدو أن ياغى سيان أحس بآبتهاد تلك القوة من الصليبيين ، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين ، وكاد ينجح في تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التي أنقذت الموقف ، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة^(٣). وفي ذلك الوقت تجمعت قرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية ، على رأسها دقاق السلجوقي ملك دمشق وبصحبته طفعتكين أتابك ، وأمير حمص العربي جناح بن ملاعب . وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءاً من الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت أمير فلاندرز — يزحف على امتداد نهر العاصي ، قرروا الخروج لملاقاتهم ، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧^(٤). ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين في ذلك الاشتباك ، وأنهم « قتلوا منهم جماعة »^(٥).

ويبدو أن تلك المعركة نبهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوباً ، فاكتفوا بالإغارة شرقاً حتى معرة مصرين حيث « قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها »^(٦) على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(2) Runciman : op. cit, I, p. 215.

(3) Idem, p. 220.

(4) Stevenson : op. cit, p 26.

(٥) ابن العديم : زبدة الخبايا ج ٢ ص ١٣٢ (مطبوع) .

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢ .

يرجونه من زاد وطعام ، فعادوا إلى أنطاكية « منتصرين ولكن الأيدي خاوية » ، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين^(١) . وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية ، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرس والغرب حيناً وتنقطع أحياناً . وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند^(٢) . وفي تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة ، أخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون خفية . ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين ، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون Melun اختفيا فجأة ، فجد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادها إلى بوهيموند الذي ونجها علناً لهروبهما ، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس^(٣) .

بوهيموند وسكاز أنطاكية :

وفي وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التي أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية . أخذ بوهيموند يبدو في صورة الرجل القوي الذي تركت فيه آمال الصليبيين . ولكن بوهيموند لم يعمل في ذلك الدور لوجه الله والصليبيين فحسب ، ولم يبذل ما بذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطي ، وليسلمه إلى

(1) Raymond d'Aigles, (Hist. Occid, III), p. 245.

(2) Cuillaume de Tyr, I, p. 188.

والعروف أن بطرق بيت المقدس السابق — وهو سيمون — كان مقماً عندئذ بقبرس فدأب على إرسال المؤن والمأكولات والنبذ من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية ؛ لأنه رأى في انتصار الصليبيين الغربيين — رغم اختلاف المذاهب — انتصاراً للمسيحية ، ونيلاً من المسلمين . انظر :

(Runciman : op. cit, I, p. p. 222—223)

(3) Gesta Francorum, p. p. 77—79.

ما شاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين . وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذي قطعه على نفسه في القسطنطينية للإمبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للإمبراطور كل ما استولى عليه من بلاد في آسيا الصغرى ؛ فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغيير الذي ترتب عليه حدوث تحول خطير في تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطي لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلا مانع إذاً من أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور^(١) .

وقد نفذ بوهيموند خطته في براءة فائقة ، فاختر أصعب أوقات الحصار وأشدّها حرجاً - في أوائل يناير سنة ١٠٩٨ - ليعلم أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لا يستطيع الاستمرار في تلك العملية الحربية الطويلة التي لم يكن مستعداً لها ، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية^(٢) . ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعريض الصليبيين جميعاً لكارثة محققة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العمود الفقري للقوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية . لذلك أمرع جميع الزعماء الصليبيين - فيما عدا ريموند - وتوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفايته في الاستيلاء على أنطاكية^(٣) .

(١) أشار ابن القلانسي إلى نقض الصليبيين للعهد الذي قطعه على أنفسهم الإمبراطور البيزنطي ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .
(ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 79.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Premiere Croisade, p. 193.

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikios أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على المدينة ، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطي سيطالب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذي قطعه الزعماء الصليبيون على انفسهم للامبراطور البيزنطي^(١). لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطي ، وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساندة من بقية الزعماء الصليبيين ؛ كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية في الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر في النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرس^(٢). والواقع إن اتهام تاتكيوس كان يعنى اتهام الامبراطورية البيزنطية كلها، فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداوة ، وأخذوا في أزمتههم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطي ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم باخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التي أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التناكر لوعودهم للامبراطور البيزنطي ، على أساس أن البيزنطيين انفسهم هم الذين بدءوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتخلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلاً عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام انطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار^(٣). وبذلك نجح بوهيموند في إحكام خطته ولم يبق في طريقه ما يحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها في أيدي الصليبيين .

(1) Brehier : op. cit, p. 312

(2) Setton : op. cit, I, p. p. 313—314.

(3) Runciman : op. cit. I, p. p. 224.

مَشْرُوعُ التَّحَالُفِ بَيْنَ الصَّلِيبِيِّينَ وَالْفَاطِمِيِّينَ

على أن الشيء الذي يسترعى العجب حقا ، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين في مصر فكروا في مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام ، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعني الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام^(١) .

وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٦٤ - ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الأمر ، أي حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من أنه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة - أعداء الدولة الفاطمية الألداء - فكر في أن يقيم تحالفا بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين^(٢) . وربما استند الأفضل في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحتها في القرن العاشر لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادي عشر ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل نقفور فوقاس وحننا الشمشقيق في نهاية القرن العاشر^(٣) .

ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر نتيجة لوصول

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. 196.

(2) Stevnsen : op. cit; p. 26.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 83.

الصلبيين ، وأرسل جيشا تمكن من فتح بيت المقدس « وملكه وتسلم محراب داود من سكان »^(١) . وفي تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير - فبراير ١٠٩٨) . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وجودهم في القسطنطينية ، بأن يحاولوا مخالفة الفاطميين في مصر . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة في ذلك الوقت ، إلا أن بعض المراجع الصليبية أشارت إلى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر^(٢) . وإذا كان هذا الرأي ليس له ما يؤيده في بقية المراجع الصليبية ، إلا أن الصليبيين لم يندسوا نصيحة الامبراطور البيزنطي مما جعلهم يرحبون بالسفارة التي أرسلها إليهم الأفضل في أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية^(٣) . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوراث على أيدي الصليبيين^(٤) .

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لأقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكا للأتراك السلاجقة في

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 230.

(3) Riabt : Inventaire des lettres des Croisades, I, p.162.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 191—192.

أشد الأوقات حرجاً^(١). هذا فضلاً عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية، أكسبت أولئك الأخيرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي. ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم في مهارة بالغة عندئذ، فلم يكتفوا ببيت شعور الطمانينة في نفوس الفاطميين، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام، وإنما حاولوا أيضاً أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق؛ فأرسلوا إلى دقاق يطمئنوه على مصيره ويؤكدون له أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى؛ أي الرها وأنطاكية واللاذقية^(٢). وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة رضوان ملك حلب، حتى إذا ما فرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهم إماره بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام.

تم نقل رضوان ملك حلب، موقفه المهم:

ويبدو أن تلك الخطة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير، إذ هداً دقاق في دمشق، وظل حيناً بعد هزيمته في البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية. أما أخوه رضوان ملك حلب، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغي سيان، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلاً في موقفه السلبي تجاه أنطاكية. ذلك أن ياغي سيان كان قبل كل شيء تابعاً وفصلاً لرضوان، في الوقت الذي

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 84—85.

« وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم ولا نطلب سواها، مكرراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أصحاب أنطاكية ». (ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان في الدولة السلجوقية^(١).

وكان ياغي سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية ، فاتجه الابن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والإعتذار له عما فات . وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد من أن يتناسى الماضي ، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية ، وصاحبه في حملته سيمان (سيمان) ابن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلاً عن قوات أخرى من حمص ومن الأرائقة في إقليم الجزيرة^(٢) . وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها في حارم ، وهي قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً من أنطاكية ، إلى الشرق منها . أما الخطة التي وضعها المسلمون لخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأة ، في الوقت الذي تخرج جيوش ياغي سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل ، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين^(٣) .

على أن المسيحيين في حلب وحارم — وبخاصة السريان والأرمن — علموا بتلك الخطة ، فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية في أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذن على غرة^(٤) . وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف فترك المشاه يحرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية في حين خرج هو على رأس حوالي سبعمائة فارس لصد المسلمين (٨ فبراير ١٠٩٨) واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصي من ناحية أخرى^(٥) . وفي اليوم التالي دارت الموقعة

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 86.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Premiere Croisade, p. p 195.

وانتهت في سرعة باندحار المسلمين الذين ارتدوا نحو حصن حارم ، وفي أعقابهم الصليبيون . وعندما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هي الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار في الحصن ، وبذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن^(١) . وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً لأهميتها في -قاية أنطاكية من ناحية حلب^(٢) .

وفي تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغى سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجيء في غيبة الفرسان الصليبيين ، فخرج ياغى سيان فعلاً وقام بهجومه ، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه ، واستمر الصراع حاداً بين الطرفين لحين عودة الفرسان ظافرين يحملون رؤوس ضحاياهم في معركة العمق ؛ فقدفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم ياغى سيان بما حل بخلفائه^(٣) .

سقوط أنطاكية :

وعندما رأى ياغى سيان أن الهزيمة حلت بالحمليين مثلما حلت بالدماشقة من قبل أرسل نداءً جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس وتابعه كربوغا (كربوقا) أتاك الموصل . وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم ؛ مما جعل الصليبيين يفكرون في طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس في صلاحهم^(٤) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

Guillaume de Tyr, I, p. 196.

(2) Stevenson : op. cit, p. 27.

(3) Gesta Francorum, p. p. 80—86.

(4) Michaud : op. cit, I, p.p. 264—267.

والواقع إن كربوغا كان قد أعد عدته فعلا لنجدة أنطاكية ، ولكنه توقف في الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين ، وبذلك أضاع الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو في حصار الرها دون جدوى . مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت^(١) . وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت به مقابر للمسلمين ، فاستغلوا ما عليه من أحجار في بناء تلك القلعة التي مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة^(٢) . وعندما تم بناء القلعة في ١٩ مارس ، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والإمدادات إليها أو خروج أهلها معها لرعى ماشيتهم في المراعى القريبة^(٣) وصادف عندئذ وصول أسطول انجليزى من عدة سفن إلى ميناء السويدية في ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيرا مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار ، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك - أى في أواخر نوفمبر من العام السابق - أسطول جنوى من ثلاث عشر سفينة - مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحرى تدريجيا في خدمة الصليبيين ومساعدتهم^(٤) .

وفي تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى . ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هى الراجحة فى تلك الاشتباكات ، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية أصبح تاماً بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبامارة الرها التى غدا يحكمها واحد منهم ، هو بلدوين البواونى من جهة أخرى .

ويشهد المؤرخون المسلمون أن ياغى سيمان لم يهمل الدفاع عن المدينة ،

(1) Runciman. op. cit.; I, p. 231.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 291.

(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 228. & Cam. Med. Hist; vol 5, p. 292.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 198.

وأنا أظهر من الشجاعة «وجوده رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره»^(١).
على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها في سقوط أنطاكية. ذلك أنه وجد في
المدينة رجل اسمه نيروز - ويعرف بالزراد - كان ياغى سيان قد صدره
«وأخذ ماله وغلته، فحمله الحق على أن كاتب بيمند (بوهيموند)^(٢)». .
ويبدو أن نيروز هذا كان قد اعتنق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان، حتى عهد إليه
بحراسة أحد أبراج المدينة في الجهة الجنوبية. ولم يلبث ذلك الأرمني المسيحي
الأصل أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن، وأمكنه
عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سرّاً^(٣)، فقال له «أنا في البرج
الفلاني، وأنا أسلم إليك أنطاكية إن امتنني وأعطيتني كذا وكذا». وكان أن
وافق بوهيموند وبذل له «مالاً وإقطاعاً»^(٤). على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر
المؤامرة، ورفض أن يذيعه على الأمراء «وكنتم أمره عن باقي الفرنج»؛ كما
أخذ يجسم للأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين ويطلب منه الموافقة على
تحقيق حلمه الكبير، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها
ثمنا لجهوده في إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير^(٥). ولم يلبث أن وافق الأمراء
على طلبات بوهيموند تحت تأثير الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون، فضلاً
عن الخوف من الإشاعات التي انتشرت بين صفوف الصليبيين والتي أكدت
أن كربوغا أتاك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف في طريقه إلى أنطاكية
لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو).

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ (مطبوع).

ويؤكد المؤرخ الصابي وليم الصوري أن نيروز الزراد هذا أرمني الأصل.

Guillaume de Tyr, I, p, 212.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(5) Gesta Francorum, p. 100.

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت في عضدهم ، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم^(١) . ومن هؤلاء إتين دي بلوا الذي أتجه إلى اسكندرونة في ٢ يونيو على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار في تلك الظروف الصعبة ، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذي أوشك أن يحل بهم على يد كربوغا . ولو كان إتين دي بلوا ينتظر عدة ساعات لغير رأيه في الانسحاب ، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذي انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذي كان به الخائن نيروز الزراد . ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية في صباح اليوم التالي بعد أن فتحت أمامهم أبوابها ، فهرع إليهم أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم في التعرف على خفاياها وفي قتل من فيها من المسلمين^(٢) . وقد حاول ياغي سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه « فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج »^(٣) . وكان أن تطرف الصليبيون في قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين « فقتل وأسروا وسبوا من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر »^(٤) .

هذا إلى أن خبر سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن »^(٥) . ولا شك في أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل في العالم المسيحي لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها في أيدي الصليبيين . فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها الحافل

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 232—233.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٩١ هـ &

Guillaume de Tyr I, p. 231.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .

وأهميتها الكبرى في نظر المسيحيين . ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الامبراطورية الرومانية ، فضلا عن أنها المدينة التي أطلق فيها على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين^(١) ، والتي أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية له . وقد ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتى استولى عليها المسلمون في القرن السابع ، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية ، والمركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية^(٢) .

تدخل - الامة فارس ، صعدة كربوغا :

رأينا كيف أضع كربوغا عدة أسابيع في حصار الرها ، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية . وقد دفع ذلك المؤرخ ولیم الصوري إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هي التي أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية^(٣) . ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم - غداة استيلائهم على أنطاكية - أمام مهام عاجلة خطيرة ، فأسرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر ؛ وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التي أحدثوها في أهلها من المسلمين ، فعجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها في التراب حتى لا تكون سبباً في انتشار الوباء^(٤) . وبينما الجندي يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهار - - ومعه رجال الدين - على إعداد استدرائية

(١) « ودعى النلايد مسيحيين في أنطاكية أولا » .

(سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) .

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 213.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 216—217.

(٤) قدرت المراجع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في أنطاكية

بمئيرة آلاف .

(Michaud : op. cit, I, p. 292.)

القديس بطرس وغيرها من الكنائس التي سبق أن استولى عليها السلاجقة ،
 لتعود إلى وظيفتها الأولى بوصفها دور عبادة للمسيحيين . كذلك أخرج البطريرق
 الأرثوذكسي حنا الرابع من سجنه الذي وضعه فيه ياغي سيان ، وأعيد إلى كرسي
 البطريرقية في أنطاكية — رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية — وذلك حتى ترد
 تعليمات من البابوية في ذلك الشأن^(١) .

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على
 أنطاكية، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا . وكان كربوغا بعد مغادرته
 إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تنش ملك
 دمشق وطفتكين أتاك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكان بن أرتق
 « وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم »^(٢) . أما رضوان ملك حلب فظل معاديا لأخيه
 دقاق في تلك الأوقات الحرجة التي شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية . ولكي
 يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلى الحلف الإسلامي لإنقاذ
 أنطاكية، ضم إليه الأمير العربي جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وهو من قبيلة
 بني ملاعب وكان قد تزوج أم رضوان أي أرملة تنش^(٣) .

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقي الكبير في مرج دابق ، ومنها أخذ يزحف
 على أنطاكية عن طريق نهر العاصي . وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة
 عند جسر الحديد — إلى الشمال الشرقي من أنطاكية — فقتل المسلمون رجالها
 عن آخرهم في ٤ يونيو سنة ١٠٩٨^(٤) ؛ ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش

(1) Runciman, op. cit, I. p. 237.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٣) ذكر ابن العديم أن رسل الملك رضوان كثر ترددها في تلك الأثناء على كربوغا،
 الأمر الذي أخاف دقاق وأثار الظنون في نفسه .

(زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ — مطبوع) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .

السلجوقى أمام سور أنطاكية . وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التي كانت لا تزال « باقية في أيدي المسلمين » ، وساعدهم في ذلك شمس الدولة بن ياغى سيان ، ولكن كربوغا فشل في تحقيق تلك الخطة^(١) ، وعندئذ لجأ إلى تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها . ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر في السهل الممتد جنوبى أنطاكية عند باب البحر^(٢) ؛ كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية قرابة ثلاثة أسابيع (٨ — ٢٨ يونية) ، فساءت حالتهم وبدأ بعض أعيانهم في الفرار، في حين أخذت السفن الراسية بالسويدية تفلح عائداً وعليها من استطاعت حمله من الفارين^(٣) .

ولعله من الواضح كيف انقلب الوضع وصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها ؛ وذلك بعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغى سيان وحاميته من السلاجقة^(٤) . وتشير المراجع إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن « فعدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة » ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير دينارا والبيضة الواحدة دينارين . ولم تكن هذه الأسعار في متناول غالبية الصليبيين ، فاضطر بعضهم إلى العيش على أوراق الأشجار ، فضلا عن « الميتات والدواب »^(٥) . وفي وسط تلك الأزمة أخذ كثير

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ و ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 292.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ . أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ : « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » .

(ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم ، والحضور إلى الشرق ، بل لقد جاهر بعضهم بأن إتين دي بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده^(١) .

ولم يبق أمل للصليبيين في أنطاكية للخلاص من تلك المحنة التي ألمت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ليطنن كربوغا وجيوشه من الخلف . لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذي استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقا آسيا الصغرى^(٢) . ولكن لم يلبث أن التقى بالامبراطور في آسيا الصغرى إتين دي بلوا وبعض زملائه ، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين فعلا ، وأنهم عندئذ في طريقهم إلى آسيا الصغرى لضرب الإمبراطور وجيوشه قبل أن يصل إلى أنطاكية^(٣) . وكان أن اهتز الامبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعا ، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين ، ولذلك قفل راجعاً ولم تفلح الجهود التي بذلت لحملة على المضي في طريقه إلى أنطاكية^(٤) . ولا شك في أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل أنطاكية ، كما كان لتلك العودة أثرها في تشجيع كربوغا . وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيرا من الصليبيين ، فخارت قواهم وتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشعال النار في المدينة في ١٢ يونية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة^(٥) .

(1) Ruciman op. cit, I, p. 238.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 250—354 & Gesta Francorum, p. p. 141—147.

(3) Michaud : op. cit, I, p p. 300—302.

(4) Gesta Francorum, p.p. 147—148.

(5) Guillaume de Tyr I, p. 255.

ويروي ابن القلانسي وابن العبري أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام ، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية ، وقال لهم « لا تخرجون إلا بالسيف »^(١). وعندما مرض ريموند — القائد الأعلى للقوات الصليبية — حل محله بوهيموند في حوالي ٢٠ يونيو ، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسة المعروفة يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين^(٢).

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجمعة متماسكة ؛ بل على العكس ظل المسلمون في ذلك الدور الحاسم يعانون خلافاً واضحاً في صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة . ذلك أن رضوان ملك حلب رفض — كما سبق أن ذكرنا — المشاركة في الحلف الإسلامي للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين ؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب ، وكلاهما سقط في قبضة الصليبيين^(٣) . ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية ، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذي رافق كربوغا ، كان من العوامل التي خلقت جواً من القلق والاستياء في صفوف المسلمين . ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان ، بدأ يسعى للاتصال به ، وعندئذ « توهم دقاق من ذلك ! »^(٤) . وفي الوقت نفسه أحس دقاق برغبته في العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين في فلسطين ، وهو التوسع الذي سبب له قلقاً بالغاً^(٥) . ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين — أمير

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول

ص ١٩٦ .

(2) Michaud : op. cit; I, p. 304.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 98.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .

(5) Runciman : op. cit; I, p. 246.

حمص العربي الذي أسهم مع كربوغا في حصار أنطاكية — ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذي كان على اتفاق مع رضوان . بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم ، فظهر الشقاق بين أتراك كربوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود من ناحية أخرى « وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركان بتدبير الملك رضوان ورسالته »^(١) . أما المؤرخ أبو الفداء فيعمل لروح التباعد والفرقة التي سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن « كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين ، وتكبر عليهم ، نجثت نياتهم على كربوغا »^(٢) .

وفي الوقت الذي كان معسكر المسلمين يعاني ذلك التصدع والشقاق ، أخذ بوهيموند ينفخ في الصليبيين روحا جديدة . وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين — أحدهما بطرس الناسك — إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لإقناعه بترك الحصار ، ولكن كربوغا — رغم ما كان يعانيه من تفكك في معسكره — أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط^(٣) . وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب ، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية في ٢٨ يونية سنة ١٠٩٨ للدخول في معركة فاصلة ضد المسلمين . وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة ، إذ « خرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوغا ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من خرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » . وبذلك أضاع

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Chalandon : Premiere Croisade, p. 220.

كربوغا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين « لما عاملهم كربوغا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم »^(١) .

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وكان للتركان أول من « عاث في العسكر فانهزم »^(٢) ؛ في حين ظل سكان بن أرتق وجناح الدولة « آخر من انهزم » من الأمراء ، وعند فرارها من الميدان لجأ كربوغا هو الآخر إلى الفرار ، وبذلك عمت الكارثة^(٣) . ثم إن التعليمات التي صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم ، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين واشترك معهم في تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن ، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلا ، حتى جسر الحديد وحارم شرقا^(٤) ، « ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن »^(٥) .

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصارا على سلاجقة الروم وحدهم ، وإنما أيضا على سلاجقة الشام وفارس ، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل ، وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل . أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه^(٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج « وبقيلوا أولا فأولا فلم يرج المسلمون على شيء من ذلك لانهم أيقنوا بالظفر بالفرنج وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم » . (ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(4) Gesta Francorum, p. 159.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٦) يروي ابن العديم أن الصليبيين أمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في دار بأنطاكية =

التنافس بين بولهييموند النورمانى وريموند الصنيجيلى حول أنطاكية :

تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقى واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أدبيا في شخص تابعه كربوغا ، فإن دقاق هزم شخصيا أمام أنطاكية . و بانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحا أمام الصليبيين ، لأن أنطاكية بالذات تعتبر « مفتاح بلاد الشام » على قول بعض المؤرخين (١) . وكان يجب على الصليبيين - برا بقسمهم الصليبي - ألا يضيعوا وقتا طويلا وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر ، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون في مشاكلهم الداخلية (٢) .

والواقع إن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ضخمة عقب انقضاء موجة الفرح الأولى التي عمتهم بعد الانتصار على خطر كربوغا وضممان الاستيلاء على أنطاكية . حقيقة إنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكمتها وأسوارها سليمة ، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تتطلب عدداً كبيراً من الرجال المحاربين ، في الوقت الذي تناقص عدد الصليبيين ، فضلا عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل ماديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس . ثم إن الصليبيين لم يجدوا في أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التي ظلموا يحلمون

« وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل » .

(ابن العديم : زبدة الحجاب ج ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨) .

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 108.

بها طويلاً . وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين ، وهؤلاء — وبخاصة السريان — لم يطمئن الصليبيون إلى شعورهم وإخلاصهم^(١) . وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التي استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فإمن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين ؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من إمرائهم أولى بها ؟^(٢) .

والواقع إن حقوق الامبراطورية البيزنطية في إقليم أنطاكية ، كان واضحة لاشبهة فيها ، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقي سنة ١٠٨٥ ، بل أيضاً وفقاً للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي أنكسيوس كومنين في القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهي الاتفاقية التي كان بوهيموند نفسه أول من أقرها^(٣) . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الامبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل في أن يعينه ألكسيوس كومنين نائبا عنه في حكم بلاد الشام التي كانت قديماً جزءاً من الإمبراطورية ، فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه تحمل العبء الأكبر في الاستيلاء على أنطاكية ، قرر في نفسه أن يتحلل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها^(٤) .

وكان أن طلب بوهيموند في أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها ، فقبلوا جميعاً

(1) Runciman : op. cit, I, p. 236.

(2) Cam. Med. Hist. vol . 5 p. p. 294—295.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. p 203—205.

(4) Vasiliev : op. cit; I, p. p. 408—409. &
Ostrogorsky : op. cit, p. 323. &
Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 294.

باستثناء ريموند الصنجيلي الذي أخذ ينازع بوهموند أنطاكية^(١) . وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكر بوغا، أطلق الصليبيون على بوهموند لقب « أمير انطاكية » اعترافاً منهم بأن الفضل الأول في الاستيلاء على المدينة من المسلمين إنما يرجع إليه^(٢) .

ولكن ريموند الصنجيلي لم يكن أقل من بوهموند والنورمانى طمعاً في الاستئثار بأنطاكية ، ولذلك رفض أن يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله في المدينة. وهكذا صارت أنطاكية ، قسمة بين بوهموند وريموند ، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة^(٣) .

على أن الانقسام الداخلي بين بوهموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانوني لمشكلة أنطاكية ، أي أحقية الدولة البيزنطية في تملك المدينة وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بمعهدهم وطمعوا في الاستيلاء على أنطاكية ، فإن الامبراطور البيزنطي نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهدده . لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين ، وبخاصة في المحنة التي تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كروغا امام أنطاكية^(٤) . لذلك عقد الصليبيون مجلساً في مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨ ، حضره جميع زعمائهم ، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور الكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية

(1) Raymond d'Agiles, p. 262.

وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب إلى مقاطعة Saint—Gilles بفرنسا ، خرف العرب هذه النسبة إلى الصنجيلي .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 109.

(3) Guillaume de Tyr p. 274.

(4) Cam.Med. Hist. vol. 5, p. 294.

وفقا للاتفاقية المعقودة بين الطرفين . وقد هلك احد هذين الرسولين في الطريق ، في حين وصل الآخر إلى القسطنطينية في أواخر يولييه^(١) . على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهي تعرض على الامبراطور استلام أنطاكية ، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصيا على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس^(٢) .

ولو اغتتم الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فورا على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع بوهموند جميعا . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا درجة شديدة من الوهن والضعف بعد ملاقوه من مشاق أثناء زحفهم في آسيا الصغرى ، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكية ، مما جعلهم في حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور البيزنطى تعيمهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس^(٣) . كذلك لا يخفى علينا أن موافقه بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطى بالشرط السابق لم يكن الدافع إليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التى قطعوها على أنفسهم فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، بقدر ما كان الأمل فى الحصول من الامبراطور البيزنطى على المساعدة المحتاجين إليها مقابل إعطائه المدينة^(٤) .

والواقع إنه من الصعب تفسير موقف ألكسيوس كومنين السلبي من ذلك

(1) Gesta Francorum, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة ، إذ قل : إن الرسولين اللذين أوفدهما الصليبيون إلى الإمبراطور كلفا بإخطاره أنه حث بوعوده للصليبيين ، وبناء على ذلك فإنهم صاروا فى حل من تعهداتهم له .

(Albert d'Aix, p. 434).

(2) Guillaume de Tyr, p. 277.

(3) Brehier: op. cit; p. 314.

(4) Chalandon : Alexis Comnène, p. p. 204—205.

العرض السخى الذى يمكنه من استرداد شمال بلاد الشام ، فضلا عن تمكينه من الاشراف على فتح بيت المقدس ؛ لاسيا وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاح له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضى الإمبراطورية المفقودة فى الأناضول . ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم ، وظن أنهم سيستمرون فى سياستهم التى اتبعوها فى آسيا الصغرى ؛ فيفتحون البلاد ليسلمونها للإمبراطورية لقمة سائغة! وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين ، ستكون هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالإمبراطورية البيزنطية — تابعة للقسطنطينية ، أو على الأقل سيكون حكمها من الصليبيين التابعين للإمبراطور المعترفين له بالولاء . ولذلك اختار الإمبراطور أن يصمت مؤقتا ولا يرد على رسالة الصليبيين^(١) .

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة . ذلك أن الصليبيين قرروا فى ابريل سنة ١٠٩٩ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى أنطاكية أكثر من تسعة أشهر . وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس ، تلقوا رد الإمبراطور البيزنطى على رسالتهم^(٢) . وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكية ، ولكنه طلب منهم انتظاره حتى شهر يوليو^(٣) . ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطى جاء متأخراً ، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكية ، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز . هذا إلى أنه فى الوقت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 112.

(2) Setton : op. cit; I, p. 329.

(3) Raymond d'Agiles, p' 286. & Guillaume de Tyr, p. 307.

الذي أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم على انتزاع فلسطين من الفاطميين ، إذا به يعقد اتفاقاً سرياً مع الفاطميين في مصر ضد الصليبيين . وشاء سوء حظه أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الإمبراطور إلى الوزير الأفضل في أيدي الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة^(١) .

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون في حكمة بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية . ولا أدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاملتهم لبطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسي ، الذي عذبه الأتراك كثيراً وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة ، حتى إذا ما سقطت أنطاكية في أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة ، وأقاموا حفلاً كبيراً ثبتوه فيه رئيساً للكنيسة أنطاكية^(٢) . كذلك لم يتعرض الصليبيون لأتباع المذهب الأرثوذكسي في البلاد التي استولوا عليها ، وإنما تركوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين ، بما في ذلك السريان والأرمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها الفسيفساء والايقونات والصور وغيرها . أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم ، فقد تركهم الصليبيون في مناصبهم ولم يتعرضوا لهم ، وكل ما هنالك هو أنهم غيروا بعض رجال الدين من الكاثوليك في الاسقفيات الشاغرة^(٣) .

على أن هذه السياسة الوديدة تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تسكسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين في الحضور إلى الشام لمساعدة الصليبيين : ثم عندما اكتشف الصليبيون اتصالاته مع الفاطميين في مصر . من ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه في أنطاكية لجأ إلى خلع حنا الرابع بطريرك أنطاكية الأرثوذكسي وأحل محله بطريركاً كاثوليكياً^(٤) .

(1) Chalandon : Alexis Croisade, p. 207.

(2) Albert d'Aix : p. 433.

(3) Guillaume de Tyr, p. 274.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 114.

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا أن ينتظروا الإمبراطور الكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يوليه سنة ١٠٩٨ ولم يحضر ، عقد زعمائهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس واختير أول شهر نوفمبر لذلك حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدثها وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية^(١) .

امتداد البارة ومهرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التي قضوها في شمال الشام ، ففترت الحماسة الصليبية في نفوسهم ، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم ؛ وبدأ كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره في الحرب الصليبية ينتهي بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه في الشرق ، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت في شمال الشام . وقد حرص بوهيموند في تلك المرحلة على أن يبدو دائماً في صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحده ، فمنح الجنوبية في ١٤ يوليه براءة خواتهم الحق في سوق خاص بهم وكنيسة ، فضلاً عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية . وبذلك ضمن مناصرة الجنوبية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للاحتفاظ بمواصلاته مع صقلية وإيطاليا^(٢) .

وربما كان الرجل الوحيد الذي ظل يوحد بين صفوف الصليبيين في ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوي أدهمار ، الذي حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين ويوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التي أتوا من أجلها إلى الشرق . على أن تعدد المعارك في

(1) Runciman : op. cit, I, p 250.

(2) Heyd : op. cit; Tome I, p. 134.

ساحة أنطاكية وكثرة القبلى والجيف ، نتج عنه انتشار وباء فى معسكر الصليبيين .
ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهار نفسه (أول أغسطس
سنة ١٠٩٨) . وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات
قريبة — خارج أنطاكية — ليعتدوا عن منطقة الوباء^(١) .

ومن تلك الغزوات الصغيرة التى قام بها الصليبيون عندئذ ، خروج فارس
من أتباع ريموند الصنجيلى — اسمه ريموند بليه Raymond Pilet — على رأس
قوة صغيرة فى منتصف يولييه سنة ١٠٩٨ مخترقا طريق معرة مصرين بقصد احتلال
معرة النعمان وتل منس (تلمنس) ، وهى الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقى
من أنطاكية ، أى داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقى .
وبفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن
فى تلك النواحي قبل أن يقوم بحملته وأنهم شاركوه فى الزحف مما سهل له
مهمته^(٢) . ولكن رضوان أسرع بإرسال « قطعه من عسكر حلب إليهم » ،
فالتقى الحلبيون بالصليبيين بين تل منس ومعرة النعمان ، وعندئذ لم يقو الصليبيون
على مقاومة الجيش الحلبى من جهة وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى
« فانهزم الفرنج وبقى الرجال منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل ، وحملت
رؤوسهم إلى معرة النعمان » ، فى حين ارتد ريموند إلى تل منس .

أما جودفرى بوايون فقد خشى على نفسه من الوباء الذى انتشر فى
أنطاكية ، فقصد أخاه بلدوين فى الرها ، الذى أعطاه تل باشر والراوندان

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 295, &
Michaud : op. cit; I, p. 333.

(٢) « وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقتلواها » .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٨ (مطبوع)

Gesta Francorum, p. s. 162—165.

(أوائل أغسطس ١٠٩٨) ^(١) . هذا في حين أتجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التي تركها تنكرد في طرسوس وأذنه والمصيصة ومرسين في الخريف السابق ، وتأكد من ولائها له ، مما يشير إلى أنه كان ينوي إدخال إقليم قيليقية في حيز الإمارة التي ينوي إقامتها لنفسه في أنطاكية ^(٢) .

وفي سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفري بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيلي حملة اكتسبت طابعاً غريباً ، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والي عزاز ضد رضوان ملك حلب ^(٣) . وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً شمالاً حلب ، على الطريق الرئيسي بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى . وعندما عصى عمر والي عزاز سيده رضوان ، أرسل الأخير جيشاً لمحاصرته ، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفري ^(٤) ! وأكثر من هذا أن عمر أرسل ابنه محمود ليظل رهينة عند جودفري ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته في التفرير بالصليبيين ^(٥) . ولم يكن في وسع جودفري أن يشن حرباً على حلب دون الاستعداد الكافي فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين في الرها ، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب . على أن جودفري بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية في شمال الشام ولذلك استمر في طريقه إلى عزاز ، حيث خرج عمر والي الحصن لاستقباله ، وترجل أمامه من فوق فرسه ، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨) ^(٦) .

(1) Setton : op. cit; I, p. 325.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 254 & Stevenson : The Crusaders, p. 29.

(3) Setton : op. cit, I, p. 325.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ (مطبوع) .

(5) Michaud : op. cit; I, p. 339.

(6) Albert d'Aix, p. 439 & Guillaume de Tyr p. 283.

ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر فعلته هذه ، فما زال به حتى أخذ عزاز منه وقتله في حلب^(١) .

وفي نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيلي بحملة على البارة ، وهي مدينة تابعة لمملكة حلب ، تقع شرق نهر العاصي بين جسر الشغفر (الشغور) ومعرة النعمان^(٢) . ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البارة فاستولى عليها ريموند في حوالي ٢٥ سبتمبر « وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً » ؛ فضلاً عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة^(٣) .

على أن تلك الغزوات المحلية التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن في حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس . ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة ؛ فعقد الصليبيون مجلساً في ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ما عدا بالدوين الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته في الرها^(٤) .

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمم الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانوني ، لاسيما وأن بوهيموند — يسانده معظم الأمراء — ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على المدينة ، في حين نازعه ريموند ذلك الحق . حقيقة إن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها مرة أخرى بأن أرسلوا إلى البابا في ١١ سبتمبر يخبروه بوفاته مندوبه أدهار ويطلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية ، بوصف البابا

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

(2) Chalandon : Premiere Croisade p. p. 248—249.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

Gesta Francorum p. p. 167—169.

(4) Michaud : op. cit; I, p. 346—347.

ورث القديس بطرس في كرسيه . ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم ، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية على يد البابا مما يتطلب التفكير في وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم^(١) .

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطي ، صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور ، فتحوّلت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها ؛ وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطي سنة ١٠٩٧^(٢) . وهكذا انقلب الموقف رأسا على عقب ، فصار بوهيموند — وهو أول من عقد اتفاقا مع الإمبراطور البيزنطي تعهد له فيه بالولاء — ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق ، في حين أمسى ريموند — وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم بيمين الولاء للإمبراطور — هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادي باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين . وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين ، فضلا عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض^(٣) .

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية ، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان ، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبي ويستردوا بيت المقدس ، فأندروا الزعماء بأنهم إذا استمروا في منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية ، فإن الصليبيين جميعا سيتركونهم

(1) Runciman : op. cit; I. p. 256.

(2) Brehier : op. cit; p. 314.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 120.

في أنطاكية ويتجهون رأساً إلى بيت المقدس ؛ ولكنهم ان يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعميين المتنازعين — ريموند وبوهيموند — مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعاً^(١).

ولاشك في أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعاً، فضلاً عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة؛ ومن ثم بدأت المساعي الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة. ويبدو أن بوهيموند وريموند خشياً عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم ، فتوصلاً إلى اتفاق سريع في نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم في مهاجمة المسلمين . أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان ، التي سبق أن هاجمها الصليبيون في شهر يوليو وباء هجومهم بالفشل^(٢).

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم أحد »^(٣) . ولم يكن للأهالي من القوة والإمكانات ما يمكنهم من المقاومة طويلاً ، فاضطروا إلى التسليم للصليبيين في ١١ ديسمبر^(٤) ، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذي أعطوه لأهل معرة النعمان ، وإنما « غدروا بهم ورفعوا الصليبان فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به »^(٥) . وتضيف المراجع الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 171.

(2) Stevenson : op. cit, p. 30.

(٣) ابن الأثير : انكامل ، سنة ٤٩١ هـ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(4) Albert d'Aix, p. 268 & Gesta Francorum, p. 175.

(٥) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ . وقد قدر ابن العديم عدد قتلى

المسلمين في معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، في حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف .

أحرقوا المعرة أولا عن آخر^(١) .

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموند سويا في الاستيلاء على معرة النعمان ، إلا أن الحزاقات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية . ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغي وأنه لا بد من وضع حد سريع لها ، ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به في أوائل يناير سنة ١٠٩٩ ، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنونه زعيما أوحدا للصليبيين جميعا ؛ ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء^(٢) . وأخيرا رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد أن عم الاستياء جميع صفوف الصليبيين ، فخرج ريموند من معرة النعمان في ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس ، وتبعه بقية الصليبيين ، ماعدا بوهيموند الذي اختار البقاء بأنطاكية^(٣) . وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه أمير آخر في قيادة الحملة الصليبية ، في حين قنع بوهيموند بتحقيق حاميته في امتلاك أنطاكية^(٤) .

. وأخيرا تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا في شمال الشام (أكتوبر ١٠٩٧ — ديسمبر ١٠٩٨)^(٥) .

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 249.

(2) Gesta Francorum, p 279.

(3) Michaud : op. cit, I, p. p. 345—347.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 295.

(5) Setton : op. cit, I, p. 327.

الفصل العاشر

الطريق إلى بيت المقدس

الصلبيون والإمارات العربية في أواسط بهرد الثامن:

أجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب، وهي قلعة على بعد عشرين كيلو متر إلى الجنوب، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩، وفي تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنكرد. و بوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية الصغيرة التي انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر^(١). وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفا تماما عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف، في حين أدرك الأمراء العرب في الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر، فأثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض^(٢).

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ - صاحب شيزر (١٠٩٨ - ١١٥٤) - أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له بالألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة، فضلا عن أنه أرسل إليهم في ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين في عبورهم إقليم العاصى. وقد تم

(1) Setton : op. cit., I, p. p. 164—165.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ وما بعدها .

فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب في ذلك الدور نحو مسالمة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم^(١) .

ثم كان أن اختار بعض الصليبيين - وعلى رأسهم ريموند الصنجيلي - أن يتجهوا إلى الشمال الغربي ليستولوا على جبلة ، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبي اللاذقية ، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار^(٢) . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات - من قبرس والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربي - إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها^(٣) . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل - وهو طريق طويل متعرج - فيستولون في طريقهم على جبلة وانظر طوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأي بعد أن أدرك النقص الكبير في عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبي يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين^(٤) . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلي إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار جميع الموانئ السابقة مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتا طويلا ، بحيث يصل الصليبيون في نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضائل عددهم

(1) Guillaume de Tyr, p. 295 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, p. p. 272-273.

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفاصيل التي وردت في المراجع الغربية ، وإنما اكتفى بعبارة « وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها » .
(الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٩١ هـ) .

(٢) كان يحكم طرابلس وقت الغزو الصليبي لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي توفي سنة ١٠٩٩ ، خلفه أخوه أبو علي نخر الملك ابن عمار .
(انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠) .

(3) Heyd : op. cit, I, p. 134.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 253.

وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصمهم وقتاً كافياً للاستعداد لملاقاتهم ، مما يجعل مهمتهم في الاستيلاء على بيت المقدس - وهي هدفهم الأساسي من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلي المباشر إلى بيت المقدس فإنهم سيتجنبون كثيراً من المشاكل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدسة ، سهل عليهم بعد ذلك انتزاع بقية المدن الساحلية - مثل طرابلس وصور وعكا - واحدة بعد أخرى ^(١) .

وقد أدرك بقية الصليبيين أتران رأى تنكرد ، فقرروا اتخاذ أقصر الطرق الداخليه إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر كما استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتلك الخطة ، فمروا بمصيف في ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وعندئذ خرج إليهم أميرها العربي ، وعقد معهم اتفاقية ، ثم اتجهوا نحو بعين ومنها إلى سهل البقاع حيث فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة ^(٢) . وقد احتفى أهالي تلك المنطقة من العرب المسلمين بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ومعهم ما استطاعوا حمله من ثروة ومال ، فأتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً حتى سقط الحصن في أيديهم في ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجة حتى لا يتعرضون لبلادهم بسوء ^(٣) .

(1) Raymond d'Aigles p. 273.

(2) Stevenson : op. cit; I, p. 31.

(3) Gesta Francorum, p. p. 183—185.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين « ساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة » . (الكامل ، سنة ٤٩١ هـ) .

الحمد الصليبية الأولى وبنو عمار :

و بعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة وهي مدينة صغيرة تقع شمالي طرابلس وتتبعها^(١). وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبني عمار — كما سبق أن أشرنا — فأسرع صاحبها أبو علي نخر الملك بإرسال الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربي بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين^(٢). أما ريموند الصنجيلي فقد أرسل من جانبه رسلا إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها نخر الملك ؛ وعندئذ استرعى نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا في زيادة الجزية وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها نخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التي تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسنا ، لاسيما وأن عرقة نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غني بمياهه وثروتها الطبيعية^(٣).

وفي الوقت الذي اتجه جزؤ من الجيش الصليبي لحصار عرقة ، اتجه فريق آخر نحو انطربوس واستولوا عليها في حوالي ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . وكانت انطربوس هذه ميناء صغير على شاطئ البحر ، تابع لبني عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية^(٤). هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انطربوس ساعد الصليبيين بعد قليل في الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

(1) Michaud : op. cit, I, p. 349.

(2) Raymond d'Agiles, p. 275.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 132—133.

(4) Raymond d'Agiles, p. 276.

عل أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث في الوقت الذي أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقه ، أن اتجه جودفري بوايون وروبرت دي فلاندرز لحصار جبلة ، وهي التي كان مفروضا هي الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ولكن القاضي أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بني عمار . وقد استمر حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبي محمود قاضي جبلة والصليبيين تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيل . وبعد ذلك اتجه جودفري وروبرت إلى عرقه تلبية لنداء ريموند الذي طلب مساعدتهما (١) .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقه في ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر ، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات في إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقه طال دون نتيجة (٢) . وفي تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى عرقه محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفري بوايون على الاستمرار في حصار عرقه ، بعد أن «حصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب ، فلم يقدرُوا عليها» (٣) . وقد نادى جودفري بأن الوقت الذي أضاعه الصليبيون في تلك العملية الحربية لا يعادل بأي حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفري على أن يترك الصليبيون حصار عرقه في الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس (٤) ومن الثابت أن ريموند أخذ في تلك المرحلة يندم على استعانته بجودفري

(1) Gesta : Francorum, p. 187. & Albert d'Aix : p. 453.

(2) Stevenson : op. cit; I. p. 31.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ .

(4) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, p.p. 454-455.

وروبرت واستحضرهما من جبلة لمعاونته . فحتى ذلك الوقت - ومنذ أن زحف للصليبيون من أنطاكية - كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال . أما وقد حضر جودفري ، فإن نفوذه أخذ يطفئ على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفري ، مما أضر ضرراً بليغاً بمركز ريموند الصنجيلي ومكانته^(١) .

وزاد الموقف توتراً بين ريموند وجودفري وصول بعثة من قبل الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين - في حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ - تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقه . وقد استهل الامبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ ، ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للإمبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فأستأثر بأنطاكية وأصر على أن يجعل من نفسه سيداً عليها . وأخيراً عرض الامبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونيو ليحضر إليهم بنفسه ، ويشترك معهم في الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها^(٢) .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الامبراطور البيزنطي بدا طيباً لأول وهلة ، لأنه سيؤدي إلى إنشاء جبهة مسيحية قوية في الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها . هذا فضلاً عن أن حضور الامبراطور بنفسه سيهيء للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهار - المندوب البابوي - في أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيلي بفكرة انتظار الامبراطور ، وربما رأى في ذلك الحل فرصة طيبة

(1) Runciman : op. cit, I, p. 271—272.

(2) Guillaume de Tyr, p. 307.

للاستعانة بالامبراطور في توطيد زعامته على الصليبيين من ناحيه^(١) ، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار في الاستيلاء على عرقه ليتخذها — بالإضافة إلى أنطربوس — نواة للإمارة التي أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه في طرابلس^(٢) .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين — وعلى رأسهم جودفري بوايون — عارضوا فكرة انتظار الامبراطور البيزنطي ، ونادوا بالزحف فورا على بيت المقدس . وكانت حججهم في ذلك قوية وهي أن العرض البيزنطي جاء متأخرا بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الامبراطور ألكسيوس كثيرا ما وعد وأخلف ، وطالما خدع الصليبيين بمساعدته ومنامهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق وعوده . وكان آخر ما يذكره الصليبيون للامبراطور البيزنطي أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم في أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر^(٣) . هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون في ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطي والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الامبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه ، ولكنه أنكر علاقته بها^(٤) .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفري بوايون — يسانده روبرت دي فلاندرز استطاعا إجبار ريموند الصنجيلي على احترام رأى جموع الصليبيين في الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفري محبة الصليبيين وتقديرهم^(٥) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene. p. 214—215.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I; p. 138.

(3) Michaud : op cit; p. p. 361.

(4) Runciman : op. cit; I, p. 272.

(5) Albert d'Aix, p. p. 455 & Raymond d'Agiles p.289.

وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقه في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ،
وبذلك فشلت تجربته في استخدام الصليبيين في تأسيس دولة لنفسه على شاطئ
الشام مثلما فعل بوهيموند في أنطاكية^(١) .

ولا شك في أن إخفاق الصليبيين في الاستيلاء على عرقه بعد ذلك الحصار
الطويل ، وما ظهر في صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ،
كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذي لم يلبث أن
سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقه .
ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين في أواخر
شهر مارس وأوائل أبريل ، كل ذلك جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن
إلى مسالمة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار في دفع الجزية ، كما دفع غرامة حربية
باهظة لهم^(٢) . وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس في ١٦ مايو
سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الأدلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء
١٩ مايو أمام بيروت^(٣) .

الفاطميون وبيت المقدس :

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى
الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض
الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع
قدراته على المال والرجال !! »^(٤) . ثم يسترسل أبو المحاسن في وصف سوء حال

(1) Stevenson : op. cit, p. 32.

(2) Raymond d'Agiles p. 285 & Guillaume de Tyr p. p. 308—309.

(3) Albert d'Aix, p. p. 458 & Gesta Francorum p. 193.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .

الصلبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين في العراق والشام حاولوا صدّهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهباً للخروج! (١) » .

والحقيقة هي أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها — كما سبق أن أشرنا — وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس ؛ ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصلبيين جميعاً . ولا أقل لإثبات صحة هذا الرأي من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس .

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك أتمز بن أبق أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أتمز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تنش الذي عين أحد رجاله التركمان — وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراقة — حاكماً على بيت المقدس . وعندما وفاة أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكرمان تحت سيادة تنش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تنش ملك دمشق (٢) .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ؛ وكذلك رحبوا بتقدم الصليبيين في منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك ؛ ووجدوا في ذلك فرصة طيبة لإسترداد حقوقهم الضائعة في فلسطين . بل إن المؤرخ بن الأثير لم يتردد في اتهام ، الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى بلاد الشام ليساعدوهم ضد الأتراك السلاجقة (١). وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في ضور أيوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابة نصف قرن من الزمان استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً، الشيعة والسنة سواء.

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة في تلك اللحظة التي وجدوا نفوذ الأتراك قد انهيار، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدمهم أو يقف في طريقهم. وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت، الانتقام للعنصر العربي بوجه عام، والشيعة بوجه خاص (٢). ولم يكذب الحبل الصليبيون بإقليم أنطاكية، حتى أسرع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه.. حاكم مصر الفعلي عندئذ (١٠٩٥-١١٢١) - إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين، وهم الأتراك السلاجقة؛ ووصلت رسل الأفضل فعلاً إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها في أوائل سنة ١٠٩٨. أما العرض الذي تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً، خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالي (سوريا) للصليبيين، والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين (٣). وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم في غرب أوربا ويتحملوا ما تحمله في الشرق إلا لاستخلاص

(١) « وقيل: إن أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمككها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقباس (أنز) إلى مصر وحصرها، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين! »
(ابن الأثير: الكامل؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ).

(2) Grousset: Hist. des Croisades I, p. 144-145.

(3) Setton: op. cit; I, p. 316.

الأراضي المقدسة في فلسطين . فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هي الهدف الأول الرئيسي للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختاروا أن يتركوهم على عماهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة - رداً على سفارة الأفضل - تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك (١) .

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين ، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف » في ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب (٢) . ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب في صيف سنة ١٠٩٨ والصليبيون مازالوا متعثرين في منطقة أنطاكية ؛ فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكان (سقمان) الارتقى وأخيه إيلغازي في ٢٦ أغسطس سنة ١٠٩٨ (٣) . وقد « أحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازي ومن معهما وأجزل لهما العطاء » ، كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فاتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبني أرتق هناك (٤) . أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية ولم تك تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالاً ومجرى الأردن شرقاً (٥) .

(1) Michaud : op. cit, I, p. 362.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) « فساروا إلى دمشق ثم عبر الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغازي إلى

العراق » . (ابن الأثير : الكامل ؛ سنة ٤٩٢ هـ) .

انظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق

ص ١٣٥ - ١٣٨ .

(5) Setton : op. cit; vol. 1; p. 316.

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي
 أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن
 الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو
 المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على
 بيت المقدس غدا الخليفان وجهاً لوجه ، ولا مفاص من حدوث صدام بينهما .
 وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل
 إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة
 لكل واحد من زعماء الصليبيين ؛ كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي
 خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج
 بشرط ألا يكونوا مسلحين^(١) . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون
 من الحج فعلاً ، ولكن بمعونة الله . وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين
 والفاطميين من أجل بيت المقدس^(٢) .

سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبي نهر الكلب؛
 ولكنهم - فيما يبدو لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم في تلك الجهات والدفاع
 عنها ؛ وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية
 التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى^(٣) .
 وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد
 أن غادروا طرابلس في طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك الموانئ

(1) Michaud : op. cit, I, p. p. 362—363.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. p. 305—306.

(3) Runciman, op. cit, I, p. 275.

الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها فتحصل على مسالة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والفلال المملوكة للعرب^(١) . وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا في احتلال بيت المقدس^(٢) . وهكذا بعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو سنة ١٠٩٩) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة و يعقدون على الضياع القريبة^(٣) .

و بعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور حيث انضم إليهم (٢٣ مايو سنة ١٠٩٩) بعض الفرسان القادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور، فمروا بعمكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس^(٤) . وهكذا مضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بقيسارية في ٢٦ مايو، ثم بأرسوف بعد ذلك بقليل^(٥) . ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة . ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر ، فاحتلوا

(1) Setton : op. cit, p. 331.

(2) Albert d'Aix, p. 458.

(3) Guillaume de Tyr, p. 311.

(٤) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يتقدروا

عليها » . (الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) . والرواية الأولى هي التي أجمت عليها المراجع الصليبية .

(5) Albert d'Aix, p. 460.

الرملة التي هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة^(١) . وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التي أقامها البيزنطيون ، فلما علم أهل تلك الناحية باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة، ولكن الصليبيين رموها ، وأقاموا أسقفا كاثوليكيا على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسية في كنيسة القديس جرجس^(٢) .

وأهم ما حدث في تلك الفترة التي قضاها الصليبيون في الرملة (أوائل يونيه سنة ١٠٩٩) ، أنهم عقدوا مجلسا للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل أهمها الرأي القائل بأن يبدأ الصليبيون بهجمة الفاطميين في مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا في القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقره في بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا^(٣) . وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مهيمنة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التي أحاطت بالصليبيين فعلا في نهاية القرن الحادي عشر لم تسمح مطلقا بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد ، ولأن أقدم الصليبيين لم تكن قد ثبتت في فلسطين مثلما صار عليه الوضع في القرن الثالث عشر^(٤) .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فترك الصليبيون الرملة في ٦ يونيه سنة ١٠٩٩ . وفي الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 33.

ويقول أبوالمحسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة « وقت إدراك الغلة » أي وقت الحصاد . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠) .

(2) Gesta Francorum; p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313.

(3) Raymoud d'Agiles, p. 299.

(4) Albert d'Aix, p. 292.

بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات في بيت المقدس^(١) . لذلك أرسل جودفرى فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم ، حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه لا فرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان^(٢) . وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبي ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونية ، إلا وكان الصليبيون جميعا أمام بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون في وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها في نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم^(٣) .

وفي تلك الأثناء كان افتخار الدولة — حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل^(٤) — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار، وقطع موارد الماء وأخفى المواشى^(٥) ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ؛ فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجنود المصريين والسودان^(٦) .

ولم يكفد الصليبيون يشرعون في حصار بيت المقدس في ٧ يونيه سنة ١٠٩٩ ،

(1) Ibid.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 354—355.

(3) Guillaume de Tyr, p. 318.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ، ص ١٤٨

(5) Gesta Francorum, p. 199. & Raymond d'Agiles P. P. 293—294.

(6) Foucher de Chartres (Hist. Occid) III, p 359.

حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم^(١). وفي حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوبية التي استطاعت الاستيلاء على المدينة في سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف^(٢). ومن الثابت أن تلك السفن الجنوبية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين^(٣)، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية^(٤). ولا شك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى تدعيم مركز الصليبيين وفى إمدادهم بما احتاجوا إليه مما مكنتهم من مواصلة الحصار والهجوم، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة من العالم الخارجى تماماً^(٥).

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس ومالكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم. ولم تلبث أن انتشرت اشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها، مما جعل الصليبيين يفكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة^(٦). وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه. أما البرج الثانى فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور « وحكموا به البلد وكشفوا من

(1) Gesta Francorum p. 195.

(2) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(3) Heyd: Hist. du Commerce, I, p.p. 134—135. & Cam. Med Hist, vol. 5. p. 268.

(4) Gesta Francorum, p. 199.

(5) Chalandon: Premiere Croisade. p. p. 269—271.

(6) Runciman: op. cit; I, p. p. 283—284.

كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون ... » (١)

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذي قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالي ، أي الجمعة ١٥ يوليو وهو اليوم الذي استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام «نيفا وأربعين يوماً» (٢) . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتباء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحاً وحشية رهيبة « حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين !! » (٣) .

وفي الحال أخذ جودفري بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، في حين قام البعض الآخر - مثل تنكرد - باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فهبوها عن آخرها (٤) .

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم في سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة في القطاع الجنوبي . أما افتخار الدولة - حاكم المدينة الفاطمي - فقد احتدى مع طائفة من الجند بمحراب دارد حيث « اعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام » ، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٣) Gesta Francorum, p. p 203—205.

(٤) « أخذوا (الصليبيون) من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ... » ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ . ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

أن « بذل لهم الفرنج الأمان »^(١) . وفعلاً أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين^(٢) .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتسى به من المسلمين وعددهم أكثر من سبعين ألفاً « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم »^(٣) وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف . ومهما يكن في هذا الرقم الذي ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية الصليبيين وعظم الجرم الذي اقترفوه في بيت المقدس^(٤) .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر ولیم الصوري بيت المقدس شهدت عند دخول الصليبيين مذبحاً رهيباً حتى أصبح البلد « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم »^(٥) . كذلك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق & Gesta Francorum, p. 205.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) لم يذكر هذا الرقم من ضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون — مثل ابن الأثير — نسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون . مثل ابن العبري الملطي الذي ذكر النص الواحد « ولبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى يزيد على سبعين ألفاً ! » (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

كذلك ذكر متى الرهاوي أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفاً .

(Doc. Arm, I, p. 45).

(5) Guillaume de Tyr, I, p. 354.

ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون ؛ لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه^(١) . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ، إذ « جمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم »^(٢) .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى^(٣) . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحيانا — فيما بعد — في معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهي المذبحة التي ظلت تثير الأسى في قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام^(٤) .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار في برود وظلت تغط في سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في الشام وهناك في بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ؛ « وحضروا في الديوان (الخليفة) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين^(٥) » . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا ، وكذلك السلطان

(1) Raymond d'Agiles, p. 300.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ..

أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٥٠ .

Michaud : op. cit, I, p. p. 424—425.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 161 &

Runciman : op. cit; I, p. 287.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 287.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

بركياروق « ووقع التقاعد » (١).

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التي اندرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم في بلاد الشام .

(١) وقد قال أبو المظفر الأبيوردى شعراً في عدم اكتراث الخلافة العباسية ، واعتماد المسلمين عندئذ على البكاء والنحيب :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه
فأيها بني الإسلام إبت وراءكم
وكيف تنام العين ملء جفونها
ولاخوانكم بالشام أضحي مقلهم
تسومهم الروم الهوان وأنتم
أرى أمي لا يشرعون إلى العدى
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
أترضى صنديد الأعراب بالأذى
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وقائع تلحق الذرى بالناسم
على هفوات أيقظ كمر نائم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تجرون ذبل الخفض فعل المسالم
رملحهم والدين واهى الدعائم
ولا يحسبون العار ضربة لازم
ويفضى على ذلك كماء الأعاجم

الفصل الحادي عشر

تنظيم الفتح

بيت المقدس غزاة الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكاة أساسية ، هي تحديد وضع البلاد التي فتحها الصليبيون وطريقة تنظيمها وكيفية بناء دولة غربية على أرض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوروبا ليلقى بها جميعا في صعيد واحد⁽¹⁾ . حقيقة إن الحملة الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية ، كما أن نجاحها أيضا تم نتيجة المصادفات التاريخية ، إذ نبتت الدعوة الصليبية في الوقت الذي ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة ؛ ولكن كان لزاما على الصليبيين الأوائل بعد ما حققوه من نجاح في الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف لخلق دولة ثابتة في بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفضل الأول في وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨) . أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول في حكمها سنة ١١٠٠ ، فكانت فترة انتقال ، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمرء ورجال الدين من جهة والأوضاع

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem p. p. 28-29.

التي تتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وفي فترة الانتقال هذه ، قام جودفري بوايون بالوصاية على بيت المقدس^(١) .

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من المسلمين ، هي عدم وجود زعيم أورئيس أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته ، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم فضلاً عن تنظيم البلاد التي فتحوها^(٢) . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التي أصابتهم بوفاة أدهار المندوب البابوي ، وهو الذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين ، فضلاً عن أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهار في أنطاكية في أول أغسطس سنة ١٠٩٨ — كما مر بنا — أدت إلى افتقار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية ، كما أصبحت تلك الحملة من الناحية السياسية — لا تعدو مجرد حلف بين الأمراء يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم^(٣) . ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء ، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف في الطريق لتحقيق كسب خاص ، مثلاً فعل بلدوين البولوني في الرها وبوهيموند في أنطاكية ، وما أراد أن يفعل جودفري بوايون في جبلة وريموند في عرقه^(٤) .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفري بوايون لأن ريموند منعه من التوقف في جبلة ، وريموند لأن جودفري بدوره منعه من التوقف في عرقه وطرابلس ؛ فضلاً عن تنكرد وروبرت دي فلاندرز وروبرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 164—165.

(2) Runciman : op. cit, I, p. 289.

(3) Runciman : op. cit, I, p. p. 289.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. 278—279.

النورمانى . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة القيامة فى بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله ويطلبون حسن ثواب الدنيا والآخرة^(١) .

جورجى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يولييه لتنظيم فتحهم الجديد . رهنا بدأت المشكلة الأولى وهى هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح فى الإشراف على بيت المقدس ، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل فى الدعوة للحرب الصليبية^(٢) . ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى - وهو المنسوب أدهار - حيا ، لأمكن أن يتولى الزعامة العلمانية تلك الدولة الجديدة ، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة ؛ وما قام به من دور بارع فى توجيه الأمراء المشتركين فى الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى^(٣) . وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خاليا عند سقوطها فى أيدي الصليبيين ، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى - سيمون (سمعان أو شمعون) - مات فى قبرس قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وبذلك أصبحت يد الصليبيين مطلقة فى تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقا على بيت المقدس^(٤) .

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 357.

(2) Michaud : op. cit, I, 428—429.

وقد توفى البابا أوربان الثانى فى ٢٩ يولييه سنة ١٠٩٩ ، أى بعد سقوط بيت المقدس فى أيدي الصليبيين بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذى طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

(3) Setton : op. cit, I, p. 338.

(4) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV); p. p. 489.

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية في بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم ، كانت فكرة خاطئة ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا نفذت كان لا يمكن لها البقاء . ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين في بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها . ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة لاسيما وأنه لم يكن صحتهم الزعيم الديني الرشيد الذي يصلح لتلك الزعامة^(١) .

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد . وهنا بدأت مشكلة أخرى ، هي أي الأمراء يفضل الآخرين ليكون زعيما لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوروبا ، جعل الأمر محصورا بين اثنين ، هما ريموند وجودفري^(٢) . وليس هناك من شك في أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه ، هذا فضلا عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذي جعله يؤيد التحالف مع الدولة البيزنطية^(٣) . على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى ، جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره . هذا إلى أن سياسته تجاه الامبراطور ألكسيوس كومنين ، وإفراطه في التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين ؛ حتى فرسانه ورجال جيشه . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه ، ولكنه رفضه^(٤) . وهكذا لم يبق هناك سوى جودفري

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 166—167.

(2) Archer : The Crusades, p. 93.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 291.

(4) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

دى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر ؛ ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩^(١) .

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهيئة ، إذا كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص . هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين ، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما مسوه فى أخلاقه من استعدادات تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس وقد جرت الأساطير بأن التاج عرض عليه ولكنه « رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجا من الشوك »^(٢) لذلك اكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو « حامى بيت المقدس Advocatus Sancti Sepulchri^(٣) » ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها . وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الاخطار الجسيمة المحيطة بها^(٤) .

(1) Iorga : Hist. des Croisades, p. 67.

(2) Michaud : op. cit, I, p. 436.

(3) Runciman op. cit, I, p. p. 292-293.

(4) Grousset : op. cit, I, p. p. 171.

اختيار أرنولف مالكورن بطرقة على بيت المقدس :

وكان أن أخذ رجال الدين في بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب بعد ما لمسوه فيه من لين العريكة . وعندما اجتمع رجال الكنيسة في أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس ، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن^(١) . وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار ، وحاولوا تجريح أرنولف والقول بأن انتخابه غير قانوني لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس ؛ ولكن كل هذه الطعون لم تجد ، لاسيما وأن عدم اختيار ريموند حاكما أضعف من مكانة رجاله أبناء إقليم بروفانس^(٢) .

على أن البطرقة الجديد كان من جانبه معتدلا ، فاختر ألا يقحم نفسه في مشاكل مع جودفري ، وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية . وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرسي بيت المقدس ، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة — وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين في بيت المقدس — ؛ واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة ، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين^(٣) . وكان بعض القساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمية قد أخفوا صليب الصلبوت — أو الصليب الأعظم — الذي يقال إن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على

(1) Richard: Le Royaume Latin, p. 93.

(2) Raymond d'Agiles, p. 302.

(3) Runciman. op. cit.; I, p. 294.

إظهاره^(١) . ولم يعد أمام الأرثوذكس في بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعمائهم الدنيويون وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليكي الجديد^(٢) .

٤

(1) Raymond d'Agiles, p. 302.

(2) Michaud : op. cit, I, p. 438.

الفصل الثاني عشر

إتمام غزو فلسطين

امتلأ نابلس :

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين في بيت المقدس على النحو الذي وضعناه،
صارت الخطوة التالية أمامهم هي الاستيلاء على بقية مدن فلسطين، حيث لم يمتلكوا
منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا⁽¹⁾.
ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة في تلك المهمة، لأن سقوط بيت
المقدس أحدث موجة من الرعب في نفوس أهالي المدن والقرى المجاورة، فضلاً
عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع. وكان أن أسرع أهالي نابلس إلى الاستسلام
وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة، فتسلم تنكرد نابلس في غير
صعوبة في أواخر يوليو سنة ١٠٩٩⁽²⁾.

ولم يكف تنكرد يفرغ من تلك المهمة، حتى تلقى رسالة عاجلة من جودفري
بوايون في ٤ أغسطس — الذي كان في بيت المقدس — يطلب منه التوجه مباشرة
صوب شاطئ البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت
من مصر إلى أرض فلسطين. لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية،
ومن هنا اتجهوا جنوباً على امتداد الشاطئ حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية،
حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة، فقبضوا
عليهم وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل في طريقه

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 197.

(2) Gesta Francorum p. 209 & Guibert de Nogent; p. 304.

فعلا إلى عسقلان لاسترداد بيت المقدس . وفي الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفري بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلي الصليبيين ^(١) .

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يكف عن الاستعداد لمقاتلة الصليبيين منذ أن سمع بزحفهم على بيت المقدس ، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلائهم عليها ، ولكنه وصل عسقلان في ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ، أي بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوماً ^(٢) . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه » ^(٣) .

ولكن يبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً في ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ؛ إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضع وقتاً ثميناً « ينتظر الأسطول في البحر والعرب » ^(٤) . وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظراً في عسقلان اكتشف الصليبيون أمره فبادروا

(1) Gesta Francorum p. 269.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ . (Rec. Hist. Orient III)

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٢٠ & (Rec. Hist. Orient III)

وإبن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

وجدير بالذكر أن أبا المحاسن يقول : إن الأفضل جد في السير حتى وصل إلى القدس ثاني يوم فتحه « فقصدته الفرخ وقائلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد في بقية المراجع ما يؤيد رواية أبي المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولاً ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبوالمحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦) .

بالمهجوم لأنه خير وسائل الدفاع^(١) . ولم يلبث أن أسرع جودفري بوايون في الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطريرق أرنولف وروبرت دي فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورماندي وريموند الصنجيلي ومعهما رجالهما^(٢) .

ولم يكفد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة في ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوبا في اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير^(٣) . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشقت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر ، فألقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا ؛ في حين احتفى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة في البحر فارين إلى مصر . وهكذا « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمعلوغة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر »^(٤) .

ومن الواضح أن النصر المعنوي والأدبي الذي حققه الصليبيون في عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التي غنموها^(٥) فكما أن الهزيمة التي حلت بكر بونا على أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة الشام ، فكذلك أدى

(1) Stevenson : op. cit; p. 35.

(2) Gesta Francorum, p. 211 & Guillaume de Tyr p. p. 380.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٦٤ .

Gesta Francorum, p. p. 217—219 & Albert d'Aix, p. 497.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 297.

انتصار الصليبيين في موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين بفلسطين ، فلم يجرؤا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين وقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تنساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الغزاة. وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة في فلسطين منذ انتصارهم في عسقلان ، مثلما صارت يدهم طليقة في شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا^(١) .

وكان أن بدأ جودفري بوايون بحصار عسقلان نفسها ، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأرادوا التسليم فوراً دون مقاومة لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس في الحرم الشريف من قتل وذبح . وكان أهل عسقلان قد لمسوا مافعله ريموند الصنجيلي (Saint-Gilles) مع افتخار الدولة القائد الفاطمي الذي احتفى مع فريق من رجاله في محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس - ، إذ أمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان^(٢) . لذلك وثق أهل عسقلان في ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين ، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلادهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحريةهم^(٣) . وعندما قبل ريموند الصنجيلي الدعوة ، خشى جودفري أن ياجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين في مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر ، وبالتالي يقطع الصلة بينها وبين الغرب . لذلك طلب جودفري من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس ، فاستاء ريموند الصنجيلي وفضل أن تبقى عسقلان في أيدي المسلمين عن أن يستولى عليها جودفري . وهكذا انسحب ريموند ، وحرص بقيه الأمراء على الانسحاب معه بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 175.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 337.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 297.

بالثبات والمقاومة . أما جودفري فقد وجد نفسه وحيدا أمام عسقلان التي اشتد أهلها في المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها^(١) .

وفي تلك الأثناء انصرف ريموند الصنجيلي نحو أرسوف محاولا الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفري ظل واقفا له بالمرصاد ، فاحق به وأصر على أن أرسوف هي الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيلي نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفري^(٢) . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم والمنافسة بين زعمائهم إلى عدم تمكنهم عندئذ من الاستيلاء على موانئ فلسطين ، بل إن بلدا مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون في سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا امتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ !! . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان قاعدة للقوات المصرية ، تخرج منها الحملات للإغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب في بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها^(٣) .

ولم يلبث جودفري أن ارتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبي وأن مهمتهم انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس^(٤) . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانئ الهامة في أواسط بلاد الشام — وهي عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس —

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid, III), p. 703.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن « بذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس ، والله أعلم »

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 180.

(4) Stevenson : op. cit, p. 36.

فقد بقيت في أيدي المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانئ الأربعة الأولى ، في حين كانت طرابلس في قبضة بني عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة في تلك الموانئ في تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يتولى الصليبيون على جبله واللاذقية^(١) .

أما عن ريموند الصنجيلي ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، اختار أن يبقى في شمال الشام ليعمل — بمساعدة حلفائه البيزنطيين — على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوربي في تلك المرحلة — أي عقب سقوط بيت المقدس مباشرة — ترك الدولة الجديدة التي ولدت في الشرق في حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، في الوقت الذي أحاط بها أعداؤها من كل جانب^(٢) .

تسكرد واحتلال إقليم الجليل :

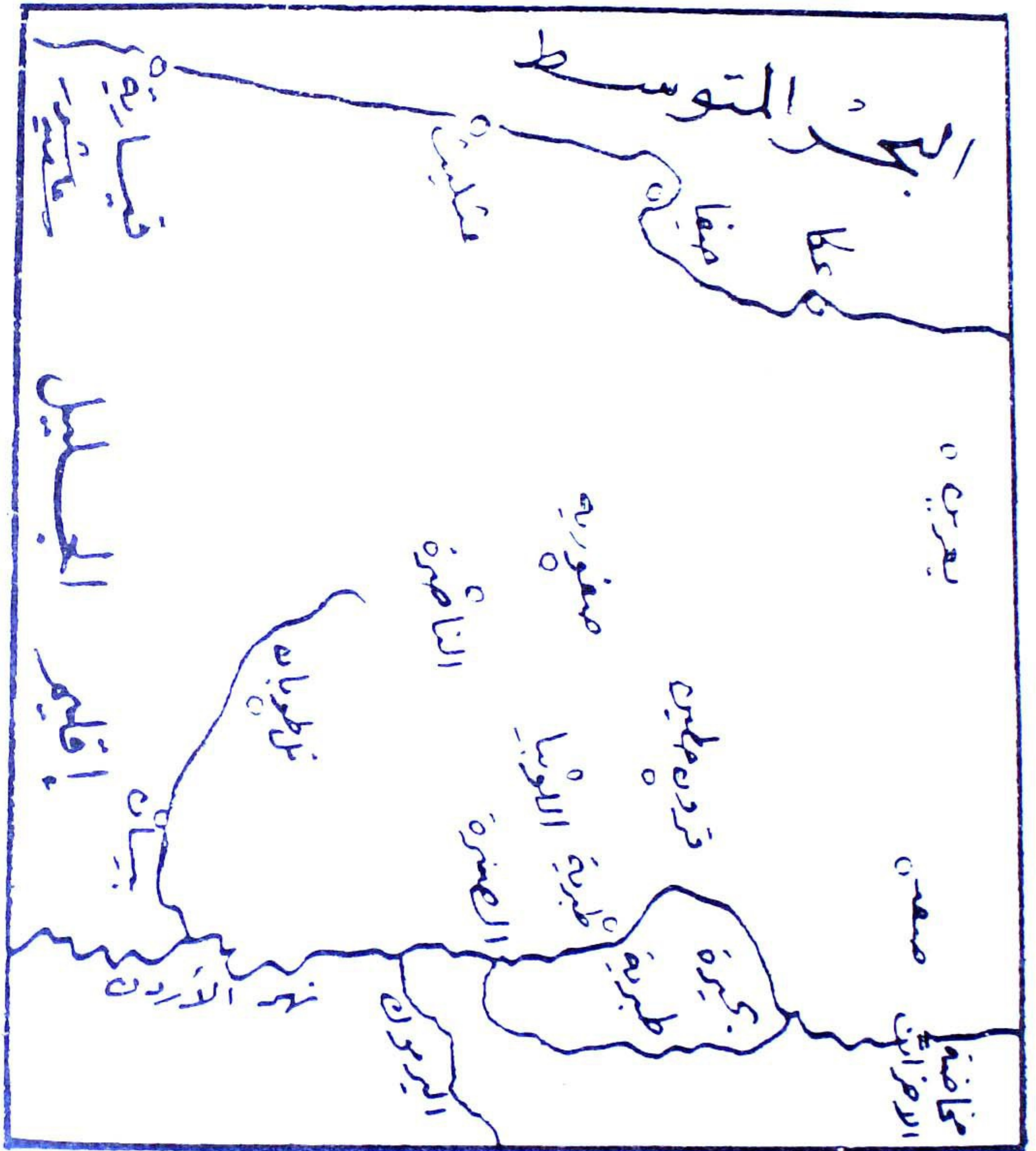
وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفري بوايون سوى تسكرد ، ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل يعمل في فلسطين تحت رئاسة جودفري . وكان أن عهد جودفري إلى تسكرد بفتح إقليم الجليل واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميراً عليه تابعاً لجودفري^(٣) .

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من احتلال ذلك

(1) Albert d'Aix, p. 499—500.

(2) Iorga ; Hist. des Coirades, p. 67.

(3) Raoul de Caen, p. 703 & Guillaume de Try, I, p. 384.



الإقليم سقب هزيمة الفاطميين في عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد^(١) . وهكذا استطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فاحتلوا مدينة طبرية في سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قويا حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة^(٢) . وفي الجنوب الشرقي من الجليل احتل تنكرد بيسان ، وهي مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيام بإغارات عدوانية على البلدان الإسلامية المجاورة ، فتارة يعتدى على الجهات التابعة لسلاجقة دمشق ، وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية^(٣) .

على أن تناقص الصليبيين يوماً بعد يوم جعل موقف جودفري وتنكرد في غاية الخطورة ، إذ لم يبق لديهما سوى بضعة مئات من الجنود ، في حين أخذ الباقون يبحرون بالجملة عائدين إلى بلادهم في غرب أوروبا . وهكذا عاشت دولة بيت المقدس الصليبية في تلك المرحلة على ذكرى انتصارات الصليبيين في أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل احتلالها لفلسطين فعالياً ، واكتفى الصليبيون بوضع حاميات في المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرية . أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت في أيدي أصحابها العرب . ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوقة من الدخلاء الغاصبين^(٤) .

(1) Runciman : op. cit. I, p. 304.

(2) Albert d'Aix, p. p. 217—218.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 384.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 181.

الرتنقيات التجارية بين الصليبيين وموالي فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التي أقامها الصليبيون في بيت المقدس سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جودفري بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجي عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر في الاستيلاء على أرسوف - شالي يافا - وهي التي لم يستول عليها الصليبيون في أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفري وريموند الصنجيلي^(١) . على أن إمكانيات جودفري كانت قد ضعفت كثيراً ، وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، في الوقت الذي افتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر ، ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التي أرسلها جودفري في ديسمبر سنة ١٠٩٩ للاستيلاء على أرسوف وعادت تجر أنيال الفشل مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين في بيت المقدس عندئذ^(٢) .

أما جودفري فاكتفى بأن ترك في الرملة - على مقربة من أرسوف - بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استقطعت هذه القوة الصليبية أن تظفر في فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمي في مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم^(٣) . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي . وقد تشجع أهل أرسوف

(1) Stevenson : op. cit, p 39.

(2) Albert d'Aix, p. p. 507—511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, 1, p. 182.

عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا في القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون في مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول في تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحه أراضيهم القريبة . وهكذا انتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفري بوايون في أواخر مارس سنة ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وتعرض عليه الدخول في تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية^(١) .

وفي تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل في تحصين يافا وتقوية استحكاماتها ، وساعد جودفري في هذه المهمة الأسطول البيزى^(٢) . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطئ فلسطين بأكمله ، كما فاقت في قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية^(٣) . وبعبارة أخرى فإن يافا أصبحت مركزاً لنشاط تجارى وحربى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيسى للدولة بيت المقدس الصليبية ، فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من امدادات من ناحية أخرى^(٤) .

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ اتخذ الصليبيون يافا مركزاً لشن إغارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب في قلوب أهالى المدن الإسلامية

(1) Albert d'Aix, p. p. 513—514.

(2) Heyd : op. cit, I, p. 135.

(٣) أشار ابن الأثير إلى جهود جودفري في تحصين يافا فقال : إنه « عمر مدينة يافا ووسلها إلى قص من الفرنج اسمه طنكرى (تنكرد) » . الكامل ؛ حوادث ٤٩٤ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 183. &

Heyd : op. cit, I, p. 136.

في فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزا لتلك التبعية، فضلا عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواشى وغللال وزيت وغيرها من الفروض العينية^(١). كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائهم في الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم. وهنا نلاحظ أن جميع تلك الاتفاقيات التي عقدها المسلمون في فلسطين مع جودفري حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ - سواء تلك التي أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية - كان لها جانبها التجارى ، فضلا عن الجانب السياسى ، ما جعل البضائع المختلفة - من توابل وغللال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشى - تتدفق على بيت المقدس ويافا؛ وبذلك توافر لدولة الصليبيين في بيت المقدس قسط وافر من الاستقرار والثبات^(٢).

على أنه يلاحظ أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التي عقدت بين العرب والصليبيين في فلسطين ، والتي حققت قسطا من السلام المؤقت بين الطرفين ، لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة. من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرّموا على عرب فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التي عقدها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى في البحر المتوسط عندئذ^(٣). وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانى فلسطين العربية على ما يلزمها من إمدادات وموّن من الاسكندرية ، مما أدى

(1) Albert d'Aix, p. 515.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Heyd : op. cit, I, p. p. 134—136.

إلى إضعافها ثم سقوطها في نهاية الأمر دون عناء في أيدي الصليبيين . وفي الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجاري في بلاد الشام في أيديهم^(١) . وكانت السفن الغربية التي تتولى حراسة شواطئ فلسطين تتصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس ، لتصادرها وتقتل بحارتها . ومع ذلك فإن تلك الاعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذي تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠ ، فأخذ عرب عسقلان يذهبون في أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة ، في حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف^(٢) .

سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وهكذا غدا جودفري بوايون علي درجة من القوة وثبات المركز مكنته - بمساعدة تنكرد - من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد طبرية) ، شرقي بحيرة طبرية ، وهو الإقليم الذي كان تابعا لدقاق ملك دمشق . ذلك أن تنكرد استطاع في مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم باغارات مدمرة في إقليم السواد ، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار - في الأرواح والأموال - بأهل الإقليم من العرب^(٣) . وعندما طلب أمير السواد - وهو الذي أطلق عليه الصليبيون اسم المزارع السمين - النجدة من سيده دقاق ملك دمشق ، أمده الأخير بنحو خمسمائة فارس ، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخره

(1) Runciman : op. cit; I, p. 310.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 186.

قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين - غير أن الدعاشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم فانسحبوا عائدين من حيث أتوا، في حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالي الذي لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد، وإنما أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها^(١).

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق، تحمل إنذارا إلى دقاق باعتراف المسيحية أو ترك دمشق فوراً، فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليها بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام؛ فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون. وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك، خرجا على رأس جميع قواتهما، واستمر الصليبيون يعيشون فسادا في الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين. وعندئذ أدرك أمير السواد أن دقاق عاجز عن حمايته، فاعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له^(٢).

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل مارا بعكا وقيسارية، أسرع أمير قيسارية - بوصفه تابعا لجودفرى - إلى إقامة وليمة حافلة له. وهكذا أصبحت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية، يحوطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها^(٣).

(1) Runciman : op. cit, I, p. p, 310—311.

(2) Albert d'Aix, p. p. 518—519.

(3) Grousset : op. cit, p. 187.

الفصل الثالث عشر

النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت بفرصه نفسه على دوت بيت المقدس :

كان حكم جودفري بوايون في بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكي والثيوقراطي ، وفيه ترضية - ولو جزئية - لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة ؛ ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لقولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها⁽¹⁾ . ويقول المؤرخ وليم الصوري إن جودفري بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت في حكم بيت المقدس ، وذلك في حالة عدم وجود ورثة مباشرين لجودفري نفسه⁽²⁾ . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعني تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية فعلا ، أي حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ما سعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على أن قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس واستبعاد كل فكرة تستهدف نظاما ملكيا وراثيا ، كان أمرا أصعب التحقيق . ذلك أن المدة القصيرة التي تولى فيها جودفري بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه

(1) Stevenson : op. cit; p. 42.

(2) Guillaume de Tyr p. 403.

وهناك رأى آخر في المراحم يؤكد أن جودفري بوايون أوصى فعلا لآخيه بلدوين أمير الرها بأن يرثه في حكم بيت المقدس . انظر :

Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304. &

Stevenson : op. cit; p. 42.

يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية في بيت المقدس . هذا فضلا عن أن أرنولف مالكورن - البطريرك السابق لبيت المقدس الذي خلفه دايمبرت - كان له انصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية في بيت المقدس ، لالشيء سوى التثني في دايمبرت والوقوف في وجه أطباعه وآماله^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية في ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا جميعا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون ، وأرادوا أن تكون الملكية المنشودة محصورة في ذلك البيت بالذات . وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فأوفدوا من قبلهم أسقف الرملة ومعه اثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين أميرالها لمطالبته بالحضور على وجه السرعة لاستخلاص حقوقه وتولي السلطة بوصفه الوريث الشرعي لدولة الفرنجة في بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري^(٢) .

وهنا فكر دايمبرت في وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الاستئثار بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الأمراء الصليبيين ممن يعتبرون أندادا لبلدوين نفسه . وفعلا اتصل دايمبرت بصديقه بوهيموند أمير أنطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التي تستطيع أن تقف في وجه بلدوين ونحول دون وصوله إلى حكم بيت المقدس ، هذا فضلا عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم ، من بينهم تنكرد ابن أخت بوهيموند^(٣) . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على أنه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن اتفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم

(1) Albert d'Aix : p. 526.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 19.

(3) Stevenson: op. cit; p. 42.

بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التي يمكنها الوقوف في وجه بلدوين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى^(١). ويتضح من الرسالة التي بعث بها دايمبرت وتفنكره إلى بوهيموند أن الغرض منها كان استثارة الأخير، وأنه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة حرب أهلية بين الصليبيين في بلاد الشام، أعني بين بلدوين أمير الرها من جانب وبوهيموند أمير أنطاكية من الجانب الآخر، مما يؤدي بالصليبيين جميعاً في الشرق إلى كارثة كبرى. وفي وسط تلك الأزمة ازداد وضوح الرأي الذي نادى به عقلاء الصليبيين، وهو ضرورة قيام فكرة ترقية في بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحول دون فك المسلمين أو البيزنطيين بهم من جهة أخرى^(٢).

منها يظهر من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التي بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، إذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية في أيدي رجال دكتور الصفيلى، المنافس اللدود لبوهيموند^(٣). ولعلنا نذكر كيف أصر بوهيموند على خردان ريموند من أى حق في أنطاكية نقب سقوطها، مما أثار حور المرارة والكرهية في قلب الأخير. حقيقة إن بوهيموند علم بالأحداث الجارية في بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان في الوقت الذي حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث في شهر يوليو سنة ١١٠١ — أى في الوقت الذي توفي جودفري بوايون — أن كان بوهيموند في طريقه إلى حلب ليقيم النجدة لأميرها الأرمني ضد الأتراك من أتباع الملك

(1) Guillaume de Tyr, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. p. 62—63.

(3) Albert d'Aix, p. 524.

بوهيموند أن ريموند نفسه لم يكن موجوداً عندئذ في بلاد الشام، وإنما كان متنبهاً في طريقه إلى حلب ليقيم النجدة لأميرها الأرمني ضد الأتراك من أتباع الملك

(Runciman : op. cit, I, p. 318—319.)

غازي كشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوق بوهموند أسيراً في قبضة كشتكين ، ولم تفلح الجهود التي بذلها الصليبيون لإنقاذه^(١) . وهكذا قدر لبوهموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات في قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود^(٢)؛ مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس . والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلاً ذكياً طموحاً لا تفوته فرصة الدعوة التي وصلتته من أنصاره في بيت المقدس ، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويسخر شخصيته الفذة في خدمة دولة الصليبيين الناشئة في فلسطين ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التي شهدها بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية^(٣) .

والواقع إن بلدوين امتالك من الشجاعة والقوة والإخلاص ، مما كفل له النجاح والتغلب على خصومه^(٤) . وتبدو لنا أخلاقه في وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهموند على يد الملك غازي كشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركي . ذلك أن بوهموند عندما وقع في الأسر أرسل رسالة سرية إلى بلدوين أمير الرها مستنجداً به ، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبي لتكون دليلاً على صدق الرسول ولم يكذباً . بلدوين يتأكد من صحة الخبر حتى أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه في اتجاه ماطية لإدراك كشتكين وفك أمر بوهموند^(٥) . ولكنه لم يكذب يصل إلى ماطية حتى كان التركان قد أسرعوا بالانصراف عنها متجهين إلى سيواس ومنها إلى نيكسار قرب البحر الأسود . وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ماطية من التركان ، وعندئذ أعلن أمير ماطية الأرمني ولاءه وتبعيته لبلدوين الذي ترك

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٩٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 589).

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهموند وقع أسيراً في معركة دارت بأرض مرعش .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(4) Setton : op. cit; I, p. 381.

(5) Runciman : op. cit, I. p. 321.

بضعة مئات من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد إلى إمارته في الرها دون أن يستطيع أن يجازف بنفسه ويتبع التركان في عقر دارهم لإنقاذ بوهيموند^(١).

على أن بلدوين لم يكفد يستقر في إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى في أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التي بعث بها أنصاره في بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفري ، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور في المدينة المقدسة. وهنا أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه أكثر من فرحه للاستيلاء على إرثه^(٢). ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التي أتاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس ، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة في ٢ أكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد بشئون الرها إلى قريبه بلدوين دي بوج ، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هدها خطر^(٣).

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على إتمام رحلته الموفقة إلى بيت المقدس ، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقا ووصلته رسالة دايمبرت ، لسبب له كثيراً من المضايقات . ولكن الأمر لم يقف عند حد أسر بوهيموند ووقوع الرسالة في يد رجال خصمه ريموند فحسب ، بل إن أهل أنطاكية من الصليبيين ، حملوا بلدوين جيلا كبيرا لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم^(٤). لذلك لا عجب إذا استقبلت أنطاكية بلدوين — وهو في طريقه إلى بيت المقدس — استقبالا حماسياً طيباً ؛ ففضى بها ثلاثة أيام ثم غادرها في ١٢ أكتوبر متبعاً طريق الساحل ، فمر باللاذقية حيث التقى بالمندوب البابوي موريس دي بورتو Maurice de Porto الذي

(1) Albert d'Aix, p. 525—526.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p. 373.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 301.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 208.

كان قد وصل إلى الشام منذ قريب. ويبدو أن بلدوين واجه بعد أن غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقة دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه؛ ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس في ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الاعياء^(١). وفي طرابلس أكرمه أميرها العربي أبو علي ابن عمار، وأمدّه ورجاله بما كانوا في حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء وتعهد بأن يحميه علماً بتحركات عدوهم المشترك، وهو دقاق ملك دمشق الساجوق^(٢). وليس هذا مجال الخوض في العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام في ذلك الوقت، ولكن تكفي الإشارة إلى أن العداء الشديد استحكّم عندئذ بين سلاجقة دمشق من ناحية وبنى عمار في طرابلس من ناحية أخرى، الأمر الذي دفع العرب في طرابلس إلى السعي لمخالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف في وجه سلاجقة دمشق^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن بلدوين استطاع أن ينجو من شبك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة ابن عمار. وكان دقاق قد خرج وبصحبه جناح الدولة أمير حمص العربي، لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب في مكان ضيق بين الجبال والبحر^(٤). ولكن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين الذي غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول^(٥). وهكذا استأنف بلدوين طريقه إلى بيت المقدس، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة في أمراء الموالي الفاطمية

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 407. & Albert d'Aix, p. 528.

(2) Estoire d'Eracles, I, p. 407. & Gesta Francorum, p. 520.

(3) Foucher de Chartres, p. p. 374—376.

(4) Guillaume de Tyr, p. 407.

(٥) يفهم من الإشارة الموجزة التي أوردها ابن الأثير عن تلك الموقعة أن دقاق هو الذي انتصر « على الفرنج »؛ وهذا غير صحيح.
(ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

على الساحل — مثل بيروت وصيدا وصور وعكا — فقدموا لبلدوين ما احتاج إليه من زاد وميرة^(١).

قيام مملكة بيت المقدس الصليبية

وأخيرا نجح بلدوين في الوصول إلى حيفا، وهي أول مدخل للصليبيين في فلسطين. وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد - حليف دايمبرت - ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيبا عندئذ في بيت المقدس لمساعدة حليفه في السيطرة على المدينة المقدسة. ولم يستطع أتباع تنكرد في حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته — بوصفه على الأقل أميرا صليبيا فضلا عن أنه أخو سيدهم السابق جودفري — فحصل بلدوين على مالزمه من زاد، ثم اتجه إلى يافا، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ في فلسطين^(٢). ومن يافا اتجه بلدوين إلى بيت المقدس، حتى إذا ما اقترب منها في حوالي ١٠ نوفمبر سنة ١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة — على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم — لاستقباله استقبالا رائعا، بوصفه أخو جودفري ووريثه؛ بل لقد نادوا جميعا به — داخل المدينة المقدسة ذاتها — ملكا وسيدا عليهم^(٣).

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التي أراد البطريرك دايمبرت إقامتها في بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف أمام الرأي العام المسيحي، واضطر إلى الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون^(٤). وكانت ساعة التار قد حانت بالنسبة لأرنواف مال-كورن — بطريرك بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. p. 528—530.

(2) Foucher de Chartres, p. 377.

(3) Guillaume de Tyr, p. 410.

(4) Idem p. 411.

السابق الذي عزله دايمبرت — فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين . على أن بلدوين كان من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بيت المقدس ، وذلك خوفاً من إحداث فتنة داخلية في تلك الفترة الحساسة من تاريخ المملكة الوليدة ؛ وإنما اختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية في المناطق القريبة ، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم ^(١) . ذلك أنه خرج في ١٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة ، فأدب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أغار على بعض المراکز قرب البحر الميت . وأخيراً عاد إلى بيت المقدس في ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠ ^(٢) .

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والاتفاق بينه وبين دايمبرت وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلاً له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين في الشام ؛ فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفه بيزا ، أى الزعيم الروحي لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام في قصة الحروب الصليبية . ولم يكن في استطاعة الصليبيين في الشام أن يستغنوا مطلقاً عن مساعدة الأسطول البيزى ، تلك القوة البحرية الضاربة التي كان في وسعها الوقوف في وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانئ التي ظلت بأيدي المسلمين في الشام حتى ذلك الوقت ^(٣) . هذه الاعتبارات وغيرها لم تغب مطلقاً عن فكر بلدوين ، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر ، فأثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلاً بعيداً عن التطرف من دايمبرت ، مما جعل

(1) Albert d'Aix, p. p. 533—536.

(2) Stevenson : op. cit, p. p. 43—44.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 216.

الأخير يمنح تلقائياً نحو الاستسلام ويوافق على مبدأ تتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التتويج في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ في كنيسة العذراء بيت لحم ، فوضع دايبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية^(١) . وبتتويج بلدوين تبذرت جميع آمال دايبرت ، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس^(٢) .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفري وما أعقب تلك الوفاة من أحداث بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذي جعله جودفري أميراً على الجليل والذي استولى على حيفا بعد ذلك ، أصبح بدون شك الرجل الثاني في دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الحوادث بعد وفاة أخيه جودفري جاء في حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد و بلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلى أيام التنافس بينهما حول الاستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايبرت وأن يحول دون وصول بلدوين إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل في كل ذلك ، وانتهى الأمر بقيام بلدوين ملكاً على بيت المقدس^(٣) . وهكذا صار من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداة والخصومة الشديدة ؛ بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته في يناير سنة ١١٠١^(٤) .

(1) Stevensen : op cit, p. 44.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 63.

(3) Setton : op. cit, I, p. 381.

(4) Runoiman : op. cit; I. p. 325.

وفي وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتنكرد ، تلقى الأخير رسالة في مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين في أنطاكية يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلا ناجحا للموقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التي ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفي الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل انقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فاسطين في مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطا من نوع آخر في شمال الشام^(١) .

(1) Albert d'Aix; p. p. 537—538.

الفصل الرابع عشر

بلدوين الأول والفاطميون

مناعب الصليبيين في الشام :

أجمع المؤرخون على أن جودفري بويون كانت تنقصه صفات السياسي الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحيانا في خصومات عنيفة مع زملائه من أمراء الصليبيين ، وفي الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغي مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذي امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلا عن الشجاعة ما جعل منه حاكما ناجحا⁽¹⁾ . لذلك جاءت وفاة جودفري وتتويج بلدوين ملكا على بيت المقدس بمثابة عملية إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلا وشاقا ، ولم تكن المهمة التي أمامه - وهي الخاصة بتدعيم أسس البناء الذي أقامه الصليبيون بالشام - بالأمر الهين ، بسبب الأزمات العديدة التي واجهت الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر⁽²⁾ .

والواقع إن الأزمة الشديدة التي عاناها الصليبيون عندئذ في بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد ، وإنما كانت في حقيقة أمرها أزمة في المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد

(1) Cam. Med Hist. vol 5. p. 304.

(2) Рунцимаа: op cit, II, p 3.

أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير في الفرسان ، في الوقت الذي كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب^(١) . ولعل خير دليل على افتقار الصليبيين في ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية ، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذي كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون في الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل^(٢) .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرها ، أخذت تجلب باستمرار حجاجا من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيرا ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقيا ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسلمون في كثير من الحالات من إغارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل منهم في النهاية إلى المستعمرات الصليبية إلا قلة قليلة^(٣) . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضي التي سيطر عليها الصليبيين بالشام ، أدركنا في النهاية ، خطورة الوضع الذي أضحت فيه الإمارات الصليبية ، لأن عدد المدافعين كان لا يتناسب إطلاقا واتساع الممتلكات الصليبية^(٤) . هذا في الوقت الذي كانت تلك الإمارات أشبه شيء بجزر منعزلة وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف ، مما يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم في تلك الظروف لم يكن مرده إلى قوتهم بل إلى ضعف القوى الإسلامية في الشرق الأدنى وتفككها

(1) Stevenson : op cit; p. 39. n. 1.

(2) Setton : op. cit, I, p. 382.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 218—219.

(4) Grousset : L'Empire du Levant. p. p. 198—199.

وانقسامها على أنفسها^(١). ولو أقام المسلمون في الشرق الأدنى — أو على الأقل في العراق والشام ومصر — جبهة متحدة، لاستطاعوا في غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الصليبية المتناثرة في بلاد الشام وتطهير الوطن العربي منها قبل أن يستفحل خطرها.

وفي مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة مع القوى الإسلامية المجاورة له، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته في فلسطين؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة، مكتملًا بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن الانتصارات السريعة الخاطفة التي حققها الصليبيون في الشام على أيام جودفري، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب؛ حققت للصليبيين قسطًا من المهابة في نظر القوى الإسلامية المجاورة^(٣). ولم يكف ذلك يتم لتوجيه بلدوين الأول ملكًا على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة عربية كبيرة كانت تعبر الأردن في ربيع سنة ١١٠١، فقتل معظم رجالها وسبق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة. وكان من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة وهي على وشك الوضع، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادماتها وجمالين وقدر من الزاد. ولم تلبث أن وضعت في الطريق

(1) Runciman : op. cit; II, p 4-5.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. p. 414-415.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 71.

وعادت إلى زوجها الذي سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجميل في يوم من الأيام^(١). ويهمننا من هذه القصة الآن أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر، جاءت لتزيد من خطره في نظر جيرانه المسلمين. ولم تلبث الموانئ الساحلية في فلسطين — وهي عسقلان وقيسارية وعكا وصور — أن أرسلت مندوبين عنها في مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول، تحمل إليه الهدايا والجزية، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادي والمتاجرة مع الفرنجة. وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقي الذي أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين في موقعة نهر الكلب، وتم فعلا تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال^(٢).

استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وفيبارنة :

وضع بلدوين الأول عند تتويجه ملكا على بيت المقدس خطة استهدفت ضم جميع شاطئ فلسطين المواجهة للمملكة؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيرا من أسباب القوة^(٣). وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية، فإن حسن حظ بلدوين أمدته بأسطول جنوى وصل إلى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١، ومنها أبحر إلى يافا في منتصف

(1) Guillaume de Tyr, p. 415.

(٢) ابن الفلاني : ص ١٣٦ — ١٣٧ .

Albert d'Aix, p. p. 541—542.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 7.

الشهر التالي^(١). وكان أن افترض بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لِقابلة الجنوية، واصطحبهم معه إلى بيت المقدس، حيث احتفلوا جميعاً باحياء عيد الفصح، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذي يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق غرضه. ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات، فضلاً عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليمتخدونه مركزاً يباشرون فيه نشاطهم التجاري^(٢).

وقد اختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف، ذلك الميناء الذي ظل تابعا للدولة الفاطمية، والذي لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليه من قبل بسبب افتقارهم إلى المساعدة البحرية. ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة، فاستسلمت في أواخر أبريل سنة ١١٠٦^(٣). وبعد أن ترك بلدوين حامية في أرسوف اتجه براً وبجذائه الأسطول الجنوي في البحر قاصداً قيسارية. وكانت قيسارية أيضاً — من الناحية الاسمية على الأقل — تابعة للدولة الفاطمية، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلاً فاستولى عليها الصليبيون «بالسيف» في ١٧ مايو سنة ١١٠٦^(٤). وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحاً وحشية في قيسارية فقتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء، وأعقب ذلك توزيع الغنائم وفقاً للاتفاقية المعقودة مع الجنوية^(٥). وعندما احتمى بعض أهالي قيسارية بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا

(1) Cafaro: Liberatio Civit. Orientis (Hist Occid V), p. p. 60—61.

(2) Guillaume de Tyr, p. 419.

(3) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩. & Cafaro, p. 62.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧.

(5) Foucher de Chartres, 389—390

بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين^(١) .

الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ : موقف الرملة الأولى :

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذي انتابهم عقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين لم يستمر طويلاً ، وإنما اختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسي الذي كان حاكم بيروت من قبل^(٢) . وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان ، التي صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة . على أن الحملة المصرية أضاعت كثيراً من الوقت في عسقلان ، فعرض الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل ، وربما في انتظار إمدادات جديدة تأتيه من مصر؛ مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعداد فيها وجمع قواته ووضع خطته^(٣) . وأخيراً تحركت الجيوش الفاطمية في أوائل سبتمبر بعد أن وصلت الإمدادات المطلوبة ، فالتجّهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وكانت الأخبار قد وصلت لبلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية ، وإنما استهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربي في يافا في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر في ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة المسلمين فوراً^(٤) . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التي عليه أن يواجهها ، إذ كانت قوته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارساً وتسعمائة من

(1) Albert d'Aix, p. p. 453—454.

(2) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Stevenson : op. cit, p. p. 44—45.

(4) Runciman : op. cit; II, p. 74.

المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست بأعداد الجيش الفاطمى الصغيرة من العرب والسودان ^(١) . ولكن بلدين أخذ يشجع رجاله وذكروهم بأنهم إذا ماتوا فإنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا انتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة ^(٢) .

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصابوت وعلى رأسهم بلدين ورجال الدين ، حتى التقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة . وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة — سعد الدولة القواسى — صريعا فى المعركة ^(٣) . واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدين لتوزيع الغنائم — وما أكثرها — إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين » ^(٤) .

ولم يكذب بلدين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوربا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها ^(٥) . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض

(1) Albert d'Aix, p. 549

(2) Foucher de Chartres, p. 392.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. 553 & Guillaume de Tyr, p. 426.

وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

وبلاحظ أن رواية أبى المحاسن عن هذه الموقعة غير صحيحة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا « وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يسير » .

(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢) .

(5) Runciman, op. cit; I, p. 76.

أمرائها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحجج . وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢) شرع معظمهم في العودة إلى غرب أوروبا ، في الوقت الذي كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين^(١) .

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ؛ موقعة الرملة الثانية :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبوا على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ، واجتمعت هذه الحملة التي بلغت عشرين ألف رجل في عسقلان في منتصف مايو سنة ١١٠٢ ، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل^(٢) . وقد اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذي اتبعته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمي من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس . وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبة ، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس (١٧ مايو) في قلة من الفرسان تبلغ مائتي فارس ، قاصدا الرملة^(٣) . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله في غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبي كبير آت في أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجالهم فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن في استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية « فانهزم الفرنج وقتل

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 428.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 230.

منهم مقتله عظيمة»^(١)، وفر بعضهم إلى يافا، في حين لجأت البقية الباقية ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢)^(٢).

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين، كان في استطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها في غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس. ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالي^(٣). وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره في الصباح التالي، إذا بفكرة الهروب في منتصف الليل تراود نفسه. ويقال إن الذي أوحى إليه هذه الفكرة وساعده في تنفيذها هو شيخ العرب الذي كان بلدوين في العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر، فحفظ له الشيخ ذلك الجميل وأتى لیساعد بلدوين في محنته^(٤). ومهما يكن من أمر فاللهم هو أن بلدوين «تفكر وخرج منها إلى يافا»، وكان فراره ليلا وبذلك استطاع أن يفت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سوا خبر فراره^(٥). أما الرملة فسقطت في يد الفاطميين في ١٩ مايو سنة ١١٠٢، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا صحبة بلدوين^(٦). ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة «أربع مائة صبيرا وأرسل ثلثمائة إلى مصر»^(٧).

(١) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

(2) Albert d'Aix, p. 593.

ويذكر ابن الأثير في موضع آخر أن بلدوين كان في سبعمائة فارس، ولم يكن في مائتي فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون، كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين اختفى بردويل في «أجمة قصب» فأحرقها المسلمون ولحقت النار ببعض جسده ففر إلى الرملة. (الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ).

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. 365.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 414—415.

(٥) ابن الأثير: الكامل، سنة ٤٩٥ هـ.

(6) Foucher de Chartres, p. 402.

(٧) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين — وهو في طريقه إلى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف شمالى يافا (١٩ مايو سنة ١١٠٢)^(١) . وكانت فرحة الصليبيين في أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين على قيد الحياة ، بعد أن اندثرت الشائعات بخبر مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، في حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية^(٢) . وشاءت الصدفة أن تصل إلى ميناء يافا في أواخر شهر مايو مائتي سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجنود والحجاج الانجليز ، وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمي ، وبذلك حصل بلدوين في يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة^(٣) . وفي ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هي إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم في إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التي ولت الأدبار نحو عسقلان^(٤) .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي ، أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم وتألقت من

(1) Albert d'Aix, p. 595.

(2) Michaud · op. cit; II, p. 30.

(3) Runciman, op. cit, II. p. 79-80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا « فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فبرز بهم بغدوين (بلدوين) للفرز ... » . (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ) .

(4) Foucher de Chartres, p. p. 404—405 & Guillaume de Tyr, p. 435.

أربعة آلاف فارس؛ والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس^(١). ولكن الشيء الذي كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن إعداد الرجال وإنما إحكام الخطط الحربية؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له « ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل. ولم يحضر عنده ولا أعانه. فأرسل القادوصي إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأت، ولا أرسل رجلاً»^(٢).

وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصي على أنطاكية وإلى بلدوين دي بوج أمير الرها الجديد يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة^(٣). ولم تأت هذه النجدة التي بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاة أن وصلت يافا في سبتمبر سنة ١١٠٢، وعلى رأسها أميراً أنطاكية والرها^(٤). وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا في القتال في معركة فاصلة ضد الصليبيين؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الانسحاب — وفي أعقابها الصليبيون — حتى عسقلان. وفي وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »^(٥).

على أن اجتماع تنكرد وبلدوين دي بوج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشا كل حساسة محورها تحديد العلاقة بالضبط بين إمارتي أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى. على أنه يبدو أن أهم

(١) ابن الأثير: الكامل؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

(٢) المرجع السابق

(3) Stevenson: op. cit; I. p. 46.

(4) Albert d'Aix, p. p. 597 & Raoul de Caen, p. 707

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ. (Rec. Hist. Or, p. 464) &

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

مسألة أثيرت في تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين في التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذي توج بلدوين مكرها والذي أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثاني مندوبا إلى بيت المقدس للتحقيق في ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوي سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك وجشعه . وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدافعة ، مما جعل المندوب البابوي يصدر حكمه باعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) في المدينة سنة ١١٠٢^(١) .

على أن تنكرد انتهز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس في العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب بإعادته إلى بطريركية بيت المقدس ، كشرط أساسي لاعترافه بالولاء لملك بيت المقدس . وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى انتهى الأمر بعقد مجمع ديني في بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية^(٢) . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسي بيت المقدس ، ولكنه توفي في يونيو سنة ١١٠٧^(٣) .

أما تنكرد وبلدوين دي بورج فقد استاءا لعدم تلبية رغبتهما الخاصة بإعادة دايمبرت إلى كرسيه البطريركي ، وانسحبا إلى إمارتيهما في الشمال (حوالي ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

(1) Runciman, op. cit, II, p. 81—82.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 94.

(3) Albert d'Aix, p. p. 598—600.

بلدوين الأول وفتح عكا :

من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائما تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطا قويا ، وإلى تأمين اتصالها بالشاطئ تأمينا ثابتا ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذي ربطها بقلب العالم الغربي وتنزود عن طريقه بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانئ المحدودة التي استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهي يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمع في الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين العربية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين ^(١) . حقيقة إن سيطرة الفاطميين على هذه الموانئ صارت شكلية ، ولكن من بدرى ، وربما أصبحت سيطرتهم فعلية في المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها المسلمون في طعن مملكة بيت المقدس الصليبية في الصميم عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوربي . ومثال ذلك ما حدث في شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت بضعة سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب الأوربي على شاطئ الشام ، فأسرت السلطات الفاطمية في صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم في أسواق الرقيق بالقاهرة ^(٢) .

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول في ربيع سنة ١١٠٣ بحاصر عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا - كما هو معروف عنها في جميع عصور التاريخ - من أحصن موانئ الشام . ولم تلبث أن وصلتها

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 239.

(2) Albert d'Aix, p. p 600-601.

« النجدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا لن يتم في سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى^(١) . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا في تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية ، وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عندما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية البحرية - التي سبقت الإشارة إليها - ضد يافا في أغسطس سنة ١١٠٣ . ولكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا ، ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها في أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحري عنها^(٢) .

وأخيراً أتاحت الفرصة لبلدوين الأول في أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على شواطئ الشام^(٣) . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » فاستعان به ريموند الصنجيلي في القيام بهجوم فاشل على طرابلس « فلم يروا فيها مطعماً » ؛ وعندئذ انتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقتلوا حتى طلب أهلها الأمان وسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل « وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب »^(٤) . ولم يكفد الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته في جبيل حتى استعان به الملك بلدوين الأول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ . &

Foucher de Chartres. p. 406.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ . &

Albert d'Aix, p. p. 603-604.

(3) Heyd : op. cit, I, p. 139.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٧ هـ . &

Runciman, II, p. 60.

في مهاجمة عكا في أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي^(١) ، الذي « قاتل حتى عجز » ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر ، فاضطر إلى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً^(٢) . » وتذكر المراجع الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذي أعطاه بلدوين لأهل المدينة ، فاعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام . أما الجنوية فكان بلدوين قد وعدهم بإعطائهم ثلث عكا ليكون حيا تجاريا لهم ، وفعلا نفذ وعده كما منحهم ثلث قيسارية وأرسوف أيضاً^(٤) . أما عن المسلمين فإن خسارتهم في عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحد بعد آخر في أيدي الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الأمر الفاطمي كان « يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وإن كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلاً شيئاً...!!»^(٥) .

(١) اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ) . وتذكر بقية الروايات ان

الجيوشي طلب الأمان وأنه أجيب إلى طلبه . ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبي المحاسن تختلف عن الرواية السابقة التي أجمع عليها المؤرخون الغربيون ؛ إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشي « طلب الأمان له والمسلمين فلم يعطوه لا علموا من أهل مصر أنهم لم ينجدوه » .

(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨) .

(3) Albert d'Aix, p. 606—607.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 445.

(٥) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥ ، موقعة الرملة الثالثة :

وفي تلك الأثناء لم يتنخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة في هذا الصدد في صيف ١١٠٥ فجمع في عسقلان جيشا كبيرا بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين^(١) . وفي الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السفين على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ؛ فعرض على طفتكين - الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تنش في صيف سنة ١١٠٤ - أن يساعده في قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طفتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله - واسمه «اصبهبد صباوا» - ومعه ألف وثلثمائة فارس ؛ وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين^(٢) .

وعندما علم بلدوين الأول بملك الأحداث ترك يافا وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أفصالة من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلا عن أرتاش (بكتاش) ابن تاج الدولة تنش الكبير المطالب بملك دمشق^(٣) والذي رافق بلدوين لمساعدته ومعه مائة من

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) توفى دقاق ملك دمشق في يونيو سنة ١١٠٤ ، فألت الساطة الفعلية إلى الأتابك طفتكين الذي اختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تنش الصغير ابن دقاق ، مع أن تنش =

رجالہ۔ ولم یكد ابرمار بطرق بیت المقدس یأتی ومعه صلیب الصلیبوت وعدد من الرجال فی ٢٧ أغسطس، حتی دارت المعركة الممتظرة مع المسلمین . وقد انتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق، وفرار الدماشقة الذین أرسلهم طفتکین، وقتل كثير من أمراء الجيش من ضمنهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصلیبيين أيضاً كانت عظيمة فی تلك الموقعة، فقتل منهم كثیرون علی رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا . وقد عبر ابن الأثیر تعبيراً دقیقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه «لم تظهر إحدى الطائفتین علی الأخری، فقتل من المسلمین ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم^(١)» . أما الأسطول الفاطمی فقد قفل راجعاً إلى صور وصیدا وطرابلس، ولاكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه علی الموانی الصلیبية، فأسرھا الصلیبیون^(٢) .

والواقع إن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصلیبيين فی تلك الفترة، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصلیبيين بين حين وآخر ولكن فی نطاق محدود . وكان مركز الهجمات الفاطمية دائماً مدينة عسقلان . ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ علی قافلة من الحجاج الصلیبيين بين يافا وأرسوف، كما أغارت سنة ١١٠٧

= كان فی العام الأول من عمره . وبعد قبل خلع طفتکین الطفل تنش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش، وهو أخو دفاق ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . علی أن أرتاش خشي خطر طفتکین ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس طالباً حمايته . وبعد أن اشترك أرتاش فی مساعدة بلدوين فی موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة علی الفرات . انظر :

(ابن القلانسی : ذیل تاریخ دمشق ص ١٤٨ - ١٤٩ هـ . &

(Runciman: op. cit, II, p. 89.

(١) ابن الأثیر : الكامل، حوادث سنة ٤٩٩ هـ . &

Gesta Francorum, p. 541.

(2) Foucher de Chartres, p. 414.

على الخليل ؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها^(١) .

أمراء الجليل وحرب المسلمين:

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده في المنطقة الساحلية ، ظل فصله هيوفالكنبرج - خليفة تنكرد في حكم طبرية - يعمل على توسيع إمارته في الجليل على حساب المسلمين ، وذلك بالتوسع في الشمال الغربي تجاه صور وفي الشمال الشرقي في إقليم السواد . وكان هدفه الأول جهة البحر الاستيلاء على صور من الفاطميين ، ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبنين في مواجهة ساحل صور ، وهو الحصن الذي صار له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية^(٢) . أما في الجهة الشرقية من بحيرة طبرية ، فقد دأب هيوفالكنبرج على القيام باغارات في إقليم السواد - سواد طبرية - التابع لدمشق ، فشيّد هناك حصن عال على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحيرة .

وقد تم بناء هذين الحصنين - تبنين وعال - في خريف سنة ١١٠٥ ، الأمر الذي أزعج طغتكين صاحب دمشق ، لأنه رأى في ذلك تهديداً خطيراً لبلاده^(٣) . وكان أن انقضت جيوش دمشق على هيوفالكنبرج في نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملاً بالغنائم من إحدى إغاراته على المسلمين ، فأصيب هيوفالكنبرج بخطر مات بسببه ، وتشتت رجاله^(٤) . ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال « بما فيه من آلات وغيرها » ، في حين عين بلدوين فارسا فرنسيا

(1) Runciman : op. cit; II, p. p. 90—91.

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥١ . &

Guillaume de Tyr, p. 459.

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ؛ وقد أطلق ابن القلانسي على حصن عال اسم « علمال » .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٩ هـ . (p. 530)

اسمه جرفيه Gervais (جرفاش) ليكون أميراً على الجليل (١) .

وسرعان ما استغل المسلمون في عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمر الجليل للقيام باغارة على طريق يافا — بيت المقدس . وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية في تلك المدن في ٩ أكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة — بين أرسوف ويافا — وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبي (٢) . وقد استمرت تلك القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين في طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدتهم الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تسانده من ناحية البحر (٣) .

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففي الوقت الذي أخذ طفتكين أتاك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور بشق هجمات عنيفة ضد حصن تبنين (٤) . ولم يلبث طفتكين أن نصب كميناً للصليبيين في أوائل مايو سنة ١١٠٨ في الجبال القريبة من طبرية ؛ ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا في ذلك السمين ، ووقع جرفيه (جرفاش) أمير الجليل — « وهو من مقدمى الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة » — أسيراً في أيدي

ابن القلانسي ص ١٤٩ هـ . (1) Albert d'Aix, p. 635. &

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 247—248.

(3) Albert d'Aix, p. p 635—638.

(4) Setton : op. cit; vol. I, p. 386.

المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيدا بالسلاسل^(١) . وقد أبدى طفتكين استعدادا لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا . ولكن الملك بلدوين الأول رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طفتكين بقتل جرفيه^(٢) .

على أن طفتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين ، ففكر في عقد هدنة مع بلدوين الأول ، في الوقت الذي كان الأخير لا يرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طفتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين ليعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين استقبالا حسنا . وقد تحدث كل من أبي المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين اتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثاني لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للفلاحين العرب^(٣) . ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها « لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتية ذكرا أمرا عظيما ... »^(٤)

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان . (p. 536) & ابن القلانسي ؛ ص ١٦١ & Albert d'Aix, p. 657.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ — ١٦٢ & Guibert de Nogent, p 259.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . & Stevenson : op. cit, p, 50.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ .

استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التي ما زالت بأيدي الفاطميين ، وهي عسقلان في الجنوب وصور وصيدا وبيروت في الشمال . وقد أدرك بلدوين أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها دون استعدادات كبيرة . لذلك اختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا في ربيع سنة ١١٠٦ مستغلاً فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الأنجليز والفلمنكيين والدانيين عندئذ في بيت المقدس ليساعده في ذلك الأمر . وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالته ، فقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين^(١) . ثم كان أن وصل إلى شواطئ فلسطين في أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية وأمانى ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة في الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلاً في حصارها براً وبحراً ، وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث أن تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى ميناء صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية^(٢) . وكان ذلك في الوقت الذي طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعد على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة قدرها المئورخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وهنا أدرك بلدوين أن العملية فاشلة ، فأثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكف ينسحب بلدوين حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذي تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفاً من أن تكون هناك مؤامرة دبرها

(1) Albert d'Aix, p. p. 632—634.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 253.

طفتكين للاستيلاء على صيدا . وعندما هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه^(١) .

وفي صيف سنة ١١٠٩ اتجه بلدوين لمساعدة برتراند — ابن ريموند الصنجيلي — في جهوده للاستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة في ١٢ يوليو في أيدي برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلى فيما بعد . ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده في العام التالي في الاستيلاء على بيروت^(٢) . وقد استمر حصار بيروت عدة أشهر — من فبراير حتى مايو سنة ١١١٠ — وعيضا حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر في سفينته ليلا إلى قبرس ، فاضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان^(٣) . ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذححة رهيبة في أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع الملك بلدوين استعادة الأمن والسلام إلا في صعوبة بالغة^(٤) .

ولم يلبث أن وصل عكا في صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجي ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى — كمعادته — أن يستغل تلك القوة في تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التي فشلوا من قبل في الاستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بحراً في الوقت الذي كان بلدوين الأول يحاصرها براً (أكتوبر

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix : p. 654—655.

(2) Michaud : op. cit, I, p. 40—44.

(3) Foucher de Chartres p. 421 & Albert d'Aix, p. 671.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(١١١٠) ، شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتي إلى الشام أسطول بندقي كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر^(١) . وهكذا أدرك قاضي صيدا وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم فطلبوا الأمان (٤ ديسمبر ١١١٠) وعندئذ أمنهم بلدوين ، وسمح للقاضي ومعه عدد كبير من الأهالي بالخروج إلى دمشق « وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان »^(٢) . وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، في حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة في عكا^(٣) .

أطماع بلدوين الأول في عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان — وهي القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين في فلسطين — فقد أوشكت هي الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنجة . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل إلى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين^(٤) . وقد انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ولكنه أعطى تعليمات سرية لقائد الحملة لكي يعزل شمس الخلافة ويحل محله في حكم المدينة^(٥) . على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن

(1) Heyd : op. cit, I, p 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ هـ &

Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit; I, p. 142.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسي ؛ ص ١٧٢ & Albert d'Aix p.p. 679—680.

شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً »^(١)؛ الأمر الذي أساء إلى شعور أهل عسقلان فناروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن بالمدينة من الفرنج في يوليو سنة ١١١١ ؛ وفي الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها^(٢) .

وعندما سمع بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصايبيين »^(٣) .

أمام مدينة صور فكانت — مثل عسقلان — من المدن التي استعصت على بلدوين الأول لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بخرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم في كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوتهم الإسلامية قريبة منهم . وفعلاً أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم « وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج » . فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا وعين عليهم والياً اسمه مسعود وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »^(٤) . وفي الوقت نفسه تم الاتفاق على أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Albert d'Aix, p. 481.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 95.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

يرسل أهل صور ما لديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين — الذي استاء لهذه الاتفاقية — بموعد خروج القافلة التي تحمل ثروة الصليبيين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة^(١) .

ويبدو أن الحصار الذي فرضه بلدوين على صور في نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاماً لعدم وجود أسطول صليبي قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلاً كان الحال في حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عدة اشباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع في كل برج ألف رجل . ويروي ابن الأثير أن شيخاً من أهل طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب « سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت »^(٢) .

أما طغتكين فقد استجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلّم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت ما فعلت إلا لله تعالى لا لرغبة في حصن ومال ، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى »^(٣) . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور ، مما جعل بلدوين يقنظ تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فانصرف عنها

(1) Albert d'Aix, p. 690.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٥٠٦ هـ — ٥٠٨ هـ .

وأخذ يباشر نشاطه في منطقة طبرية ضد أتاك دمشق^(١). كذلك لجأ بلدوين الأول الى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة، فكان يهاجمها في وادي موسى جنوبي البحر الميت وينهب ما تحمله من ثروات وبضائع^(٢).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر. (p. 467).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٨ — ٢١٨. & Albert d'Aix, p. 693.

الفصل الخامس عشر

بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١ ، بلدوين الأول وسبزر :

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك في باب آخر مستقل ؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث في إيجاز ، لإيضاح الدور الذي قام به الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها .

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولاً بموضوع خروج شمس الخلافة في عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية في القاهرة واتجاهه نحو مخالفة الصليبيين ، إذا برسالة تصله من بلدوين دي بوج أمير الرها تفيدته بأن الأتراك غزوا إمارته . وكان بعض أهالي حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسي وسليمان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكائه لتفكر دحاكم الرها ، وطلبوا الجد في جهاد الصليبيين^(١) ، وفي الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الإمبراطور البيزنطي لاستشارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تفكر د) « والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم ، وترك التراخي في أمرهم ، واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم »^(٢) . ويبدو أن هذه

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه « كان بخيلاً شجعاناً قبيح السيرة ، ليس في قلبه رافة ولا شفقة على المسلمين . وكانت الفرنج تغاور وآسي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم » .

(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠٥) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

التيارات استشارت الملمين في بغداد ضد الخليفة العباسي المستظهر والسلطان محمد السلجوقي لماطلتهما في الجهاد، فهبت الثورة، وصاح الناس في السلطان « أما تتق الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم ! » (١)

وإزاء تلك الثورة العنيفة، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقي في أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين، فلبجأ السلطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين في إبريل سنة ١١١١ (٢). وعندما استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد - مثل أمراء ميافارقين ومراغة وأربل وهمدان وغيرهم - أحس بلدوين دي بوج أمير الرهابتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته، فشرع في تحصين الرها وخرن الميرة والطعام فيها، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثانی مدن تلك الإمارة الصليبية وهي مدينة تل باشر غربي الفرات (٢٨ يوليو).

على أن أمير تل باشر الصليبي نجح هو الآخر في مقاومة الحصار (٣)، في الوقت الذي طلب أمير شيرز بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية؛ كما أن رضوان ملك حلب تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد. لذلك فكر مودود في مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب، وعندئذ كشف رضوان النقاب عن وجهه وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين، فأغلق أبواب مدينته في وجه مودود ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين. وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طفتكين أتابك

(١) ابن الأثير: الكامل؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥.

دمشق ، الذي كان يأمل في غزو طرابلس بمساعدة مودود ، فالتقى به قرب معرة النعمان واتفقا على الاشتراك في حرب الصليبيين^(١) . ولكن طغتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقي الكبير الذي كان تحت إمرة مودود . ومن يدري فرما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التي أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ! ويروي ابن الأثير أن طغتكين عندما اجتمع بالأمير مودود « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرح في مهادنة الفرنج سرا ! »^(٢) . وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالفشل ، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك في الآخر ، وبقي مودود في نهر العاصي مع طغتكين ، حليفه غير الوفي^(٣) .

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكا قويا ، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات ؛ فانسحب تنكرد من أمام شيزر — التي كان يهاجمها — وعاد إلى قاميه مسرعا ؛ ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالبا مساعدته ضد المسلمين^(٤) . ولم تلبث أن تجمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرهب فامية — في الجزء الأوسط من حوض نهر العاصي — ومن ذلك الموقع بالذات كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام فضلا عن شاطئ لبنان وفلسطين .

ويبدو أن مودود خشي الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التي بلغت نحواً من ستة عشر ألف ، فدخل على رأس جيوشه مدينة شيزر ومعه طغتكين في ١٥ سبتمبر سنة ١١١١ ؛ وذلك للاحتماء بها ؛ ونصب جنودها خيامهم فوق أسطح

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 266.

(4) Runciman : op. cit, II, p. 122.

المنازل^(١). وكان أن تحركت القوات الصليبية هي الأخرى - وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها - إلى شيزر حيث عسكرت في مواجهة المدينة. ولم تلبث أن ساءت الأوضاع في معسكر المسلمين، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له ببقية أمراء المسلمين في الزحف جنوباً لمهاجمة طرابلس، وهو أمر لم يقره عليه باقى زعماء القوى الإسلامية المتحالفة. أما برسق أمير همدان فقد مرض ورغب في العودة، في حين توفى فجأة سكران صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت. وكذلك اختار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية^(٢). وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه، مما جعله لا يقوى بمفرده على منازلة الجيش الصليبي الكبير الذى ظل متمسكا مستعدا للمعركة. لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب، ثم عاد مودود إلى الموصل وطفتكين إلى دمشق^(٣).

وإذا كانت تلك الحملة السجلوقية لم تحقق شيئا للجانب الإسلامى، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين. ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعا من الزعامة والأولوية على بقية أمراء الصليبيين^(٤). وكفى أن تنكرد - الخصم العتيد لبلدوين الأول - اعترف بتلك الزعامة؛ وحاكاه فى ذلك بلدوين دى بورج، فصار بلدوين الأول يتصرف

(١) ابن القلانسى، ص ١٧٧.

(2) Runciman : op. cit, I, p. 123.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

ابن القلانسى : ص ١٧٧ - ١٧٨.

Albert d'Aix. p. 684.

(4) Setton : op. cit, I, p. 400.

في حملة سنة ١١٩١ يوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين والزعيم الأوحده الذي دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا - حتى سنة ١١٨٦ - صار الصليبيون في بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة ، على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية . وبعبارة أخرى فإن النظم والتقاليد الملكية التي وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت في أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسي استمر نحواً من خمسة وثمانين سنة (١) .

لمجموع الأتراك سنة ١١١٣ ؛ موقفه الصنيرة :

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التي قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لا شيء ، فإن هذه النتيجة لا ينبغي أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو رجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الديني (٢) . والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولاً إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود إلى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام ، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين في صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور - كما سبق أن رأينا - مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى . وعندئذ أتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول

(١) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 268.

(٢) وصف أبو المحاسن مودود بأنه « كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٠٧) .

إليه . «^(١) والواقع إن مودود لم يكن في حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد ، فعبر الفرات عند منتصف مايو سنة ١١١٣ ، وتبعه بعض أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة ، وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية - إلى الجنوب الشرقي من حماه - اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية . ولم يلبث مودود وطفتهكين أن حاصروا مدينة طبرية المنيعه ، وعندما استعصت عليهما ، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور^(٢) . على أن طفتهكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين ، فاحتميا بسرعة في شبه الجزيرة التي يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبى بحيرة طبرية ، وهى الجهة التي تعرف بالأقحوانه^(٣) .

وكان الملك بلدوين فى عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية فأرسل فى الحال يطلب المساعدة من أمراء أنطاكية وطرابلس . وفى ذلك الوقت كان روجر الصقلى Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد - الذى توفى سنة ١١١٢ - فى حكم أنطاكية ؛ فى حين خلف بونز Pons أباه برتراند فى حكم طرابلس ، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين . غير أن بلدوين الذى طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما ، فتعجل فى مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢ . ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة - إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية - فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ ، حتى فكر مودود وطفتهكين فى نصب كمين له^(٤) . وكان أن وقع بلدوين الأول فى الكمين ، ولم ينج ومعه البطرىق أرنول مالكورن - إلا بمشقة

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

Albert d'Aix, p. 694.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٤٦ - ٥٤٧ هـ .

ابن القلانسى : ص ١٨٥ هـ .

بالفة ، في حين وقع جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه في أيدي السلاجقة هذا عدا من غرق من الصليبيين في نهر الأردن أو في بحيرة طبرية^(١) ؛ حتى قدرت خسائر الصليبيين في تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٢٨ يونيو ١١١٣)^(٢) .

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما ؛ وبذلك « قويت نفوس الفرنج » وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة . وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددي لخصومهم ، ولذلك تحاشوا الاشبك معهم في موقعة فاصلة ، واكتفوا بالاحتماء ببعض المرتفعات الواقعة غربى بحيرة طبرية ؛ « فالتجأوا إلى جبل في المنزل » وظلوا قابعين في مكمنهم ستا وعشرين يوماً « والمسلمون بازاءهم يرمونهم بالنشاب ، ومنعوا الميرة عنهم ، لعلمهم يخرجون إلى قتالهم ، فلم يخرج منهم أحد »^(٣) .

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التي لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة ، فخرّبوا المراكز الصليبية في إقليم الجليل حتى وصلوا إلى ييسان ونابلس « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة . »^(٤)

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجاً في ذلك الوقت عندما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها ، مستغلة فرصة جمود الملك بلدوين

(١) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً في تلك المعركة ، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل ، سنة ٥٠٧ هـ)

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 485. & Foucher de Chartres, p. 426,

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عدد قتلى الصليبيين في موقعة الصنبرة « بألف فارس من الشجعان والأبطال » (p. 547)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

الأول والجيش الصليبي قرب طبرية^(١) . وهكذا تقدم الجيش الفاطمي من عسقلان يدمر وينهب ويقتني أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس . ولكن حامية بيت المقدس ومن بقي فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماما ، في الوقت الذي كان الجيش الفاطمي الذي خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربي ضخم ضد المدينة ، مما جعل المسلمين يشجعون في العودة إلى عسقلان في الليلة نفسها التي بلغوا بيت المقدس^(٢) . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية ، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربي كبير يهدد الصليبيين تهديدا خطيرا ويجعلهم بين نارين^(٣) .

ولم يلبث أن وصل إلى عكا في شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين ، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفا^(٤) مما بدّل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، لاسيما وأن مودود وطفتكين لم يحاولا إطلاقا الاستفادة من النصر الذي أحرزاه على بادوين الأول عند الصنبرة . وكان أن انصرف مودود وطفتكين إلى دمشق ، وهناك أذن مودود لرجال جيشه « في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة »^(٥) . أما مودود نفسه فقد بقي — ومعه بعض خواصه — في دمشق في ضيافة طفتكين ، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣)^(٦) .

(1) Stevenson : op. cit; p. 63.

(2) Foucher de Chartres, p. p. 426—427.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 274.

(4) Albert d'Aix, p. 696 &
Guillaume de Tyr, p. 487.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(6) Setton : op. cit, p. 402.

مقتل مودود، التحالف بين أتاك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة^(١). وقد اتهم المؤرخون - مثل ابن الأثير وابن القلانسي - طفتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطني على قتله^(٢). والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف طفتكين الذي خشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة في بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين. وربما كان في تعجل طفتكين في قطع رقبة القاتل في الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص من أداتها، فضلا عن اظهار استنكاره لتلك الجريمة^(٣). ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طفتكين، بل شاركهم في هذا الرأي أيضا بعض المؤرخين الصليبيين^(٤).

ومهما يكن من أمر، فإن الصليبيين هم الذين استنادوا من تلك الجريمة، في الوقت الذي أحس طفتكين باتهام الرأي العام الإسلامي له، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين. وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت لم يقدرُوا المصلحة العليا للعالم الإسلامي، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام، مما دفعهم إلى مخالفة الصليبيين للاحتفاظ باماراتهم، خوفا من أن تلتهمها ساطنة السلاجقة في فارس واحدة بعد أخرى^(٥).

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٩.

(٢) « فقل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه، وفيل بل خافه طفتكين فوضع عليه من قتله » (ابن الأثير: الكمال، حوادث سنة ٥٠٧ هـ).

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧.

(4) Guillaume de Tyr, p. 487. & Albert d'Aix p. 700.

(5) Grousset: Hist. des Croisades, I; p. 276-277.

حملة الصليبية سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية في شمال الشام والعراق لزلزال عنيف في نوفمبر سنة ١١١٤، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها^(١)، فرأى السلطان محمد الساجوق أن يستغل ذلك الظرف وما نجم عنه من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق؛ لمحاربة الصليبيين فضلاء عن الانتقام من طفتكين أتاك دمشق والقضاء على إيلغازي أمير ماردين^(٢). ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات في مايو سنة ١١١٥، حتى أجمع الأمراء - سواء من المسلمين أو المسيحيين - على مقاومتها. فمن الجانب الإسلامي قاوم تلك الحملة إيلغازي بن أرتق أمير ماردين، ولوؤاؤ الخادم الوصي على حلب، وطفتكين أتاك دمشق؛ في حين قاومها من الجانب المسيحي، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس. ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بني منقذ في شيزر وابن قراجه صاحب حمص، ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذي صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم وملتهم، فمضى في طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً^(٣).

وهكذا استولى برسق على حماه التي كانت تابعة لطفتكين « وبها ثقله » كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية^(٤)، الأمر الذي أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم

(1) Archer : op. cit; p. 151.

(2) خرج مع برسق « الأمير جيوش بك والأمير كينتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداة بقتل إيلغازي وطفتكين، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقتلوه وحصروا بلادهم ». (ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٩ هـ) .

(3) Runciman, op. cit.; I, p. 131.

(4) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

يتفقون على مقاومة العدو المشترك . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن طفتسكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعا إلى طلب معونة أمير أنطاكية الصليبي ضد برسق^(١) ؛ في حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن أمير أنطاكية هو الذي بدأ بطلب مخالفة طفتسكين ضد الخطر المشترك . وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى ، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام^(٢) .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنبا إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهة برسق ، الأمر الذي جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء ، فأثر الانسحاب إلى الجزيرة . ولم يكذب برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال ، فانصرفا بجيوشهما . ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل ، وعندئذ واجهه الصليبيون وأنزلوا به الهزيمة عند دانيث في ١٥ سبتمبر ، وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة » . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا في صعوبة ، ويقال إنه مات بعد عدة أشهر « وقد ندم على الهزيمة » ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقي في المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين في بلاد الشام^(٣) .

(١) المرجع السابق .

(2) Setton : op. cit., I, p. p. 404.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ .
وقد وصف ابن الأثير برسق بأنه كان « خيراً ديناً » .

وفي الوقت الذي كان بلدوين الأول مشغولاً بحملة برسق على شمال الشام ،
 عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا براً وبحراً ، ولكن حامية يافا الصليبية
 صمدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين
 من شمال الشام ، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم
 (سبتمبر ١١١٥) (١) .

(1) Guillaume de Tyr p. p. 494-495.

الفصل السادس عشر

سياسة بلدوين الأول

وصوله إلى البحر الأحمر وغزو مصر:

وبعد أن اطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام المروءة التي كانت تربطهم بامارات الشام الإسلامية، بدأ يفكر في عدة مشاريع توسعية قام بها في جراءة بالغة. ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة. ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية، فإنه يمكن الصليبيين أيضاً من عزل مصر عن بقية العالم الإعلامي في الشرق وقطع الطريق البري بينها وبين الشام والعراق والحجاز⁽¹⁾

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربة جنوبي البحر الميت، ثم شيد سنة 1115 حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأجمعه⁽²⁾. وفي العام التالي (سنة 1116) خرج بلدوين في حملة أخرى، ومضى حتى أيله على ساحل خليج العقبة حيث فر الأتالي من وجهه خوفاً. وقد بنى بلدوين في أيله أيضاً قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام⁽³⁾، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 213.

(2) Runciman op. cit, I, p. p. 97-98.

(3) Setton : op. cit; I, p 406.

الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التي أخذت تحرك في قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم. هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترينة في شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه بديرهم خشية انتقام الفاطميين في القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس^(١) .

وبعد أن أبل بلدوين الأول من المرض الذي أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التي لم يبق للفاطميين غيرها — فضلاً عن عسقلان — من موانئ الشام . ويبدو أن صور كانت مركز متاعب كثيرة للصليبيين في الشام ، حيث خرجت منها في تلك الفترة عدة اغارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلاً عن أنها كانت مركزاً بحرياً تأوى إليه السفن الفاطمية التي تهدد الأساطيل الصليبية^(٢) . ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور ، وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبى صور — هي اسكندرونة — لإحكام الحصار على صور، وكان ذلك سنة ١١١٦^(٣) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة، وذلك باستثناء عسقلان وصور ؛ ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشرعهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم^(٤) وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتى صور وعسقلان ، فيستولى على هاتين

(1) Albert d'Aix, p. 703.

(2) Stevenson : op. cit; I, p.p. 65—66.

(3) Guillaume de Tyr, p. p. 507.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 283.

المدينتين في غير عناء^(١). على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين في الشام لغزو الدولة الفاطمية، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريباً وأربعمائة من المشاة فقط، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي واسع النطاق^(٢).

وكان ان استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على ما لزمهم من زاد وماء^(٣). ولم يلبث أن وصل الصليبيون في ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها، وهي أولى المراكز الأمامية في الأراضي المصرية^(٤). وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم، مما هباً للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم. وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها^(٥)، اتجه غرباً نحو مصب النيل. ويروي ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تيس جنوبى بحيرة المنزلة؛ كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلاً^(٦).

على أن بلدوين الأول كان لا يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته

(1) Archer : The Crusades, p. 140.

(٢) ويلاحظ أن هذا الرأي يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير من أن بلدوين في تلك الغزوة إنما كان « فاصداً ملك مصر والنقلب عليها وقوى طمعه في الديار المصرية ». (الكامل، حوادث سنة ٥١٢ هـ).

(3) Albert d'Aix, p. 705.

(4) Michaud : op. cit, I, p. 52.

(٥) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٢ هـ.

Guillaume de Tyr, p. 508.

أولا ثم لمرضه ثانيا ، وهو المرض الذي لم يلبث أن توفي بسببه قرب العريش في ٢ أبريل سنة ١١١٨ (١) .

تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التي قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التي مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١٠١٣ ، إذ انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين في الوقت الذي هدد الفاطميون بيت المقدس وهي شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعي أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولا وهي كبرى مدن المملكة ، فضلا عما لها من مكانة في قلوب الصليبيين جميعا (٢) .

والواقع إن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن ما فعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم — وبخاصة في أنظمة والرها — جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن

(١) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبيح في النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به » (حوادث سنة ٥١٢ هـ) . في حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة . ويذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشائه هناك فمرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) واعتاد الناس أن يرجوها إلى أيام أبي المحاسن . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284.

التي كانت لاتزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس ^(١) . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكوا فراغا ضخما ونقصا كبيرا في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء ^(٢) . هذا في الوقت الذي كان الصليبيون أنفسهم قلة ، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب في العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا في الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعازل لحراستها ، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشيطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمراني من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها ^(٣) .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين في الاعتماد على المسلمين في هذه المهام ، فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرق نهر الأردن وفي حوران . وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة في طرابلس والسريان والأرمن في أنطاكية والأرمن والنساطرة في الرها . وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سرا وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن ^(٤) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين

(1) Guillaume de Tyr, p. 500.

(2) Runciman : op. cit: II, p. 100.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. p 311—312.

(4) Richard : Le Royaume Latin, p.124.

الشرقيين من جهة أخرى . وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم، ليعملوا جميعاً في إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها . ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وضرب هو نفسه مثلاً لذلك بزواجه من شرقية ، وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصفار جندهم لم يجدوا غضاضة في ذلك ، الأمر الذي أدى إلى ظهور جيل مولد في بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد ، عندما تناقص عدد الوافدين من الغرب^(١) .

سبب: بلدوين الأول الربنية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الديني القوي الذي اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفري^(٢) ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة^(٣) . وقد دفع ذلك الملك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس ، وهي الفكرة التي رأينا مدى حرص دايبرت على تنفيذها . وإذا

(1) Runciman : op. cit, I. p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام في عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (pullani) أي الأفراخ . كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة في المجتمع الصليبي ببلاد الشام ، وقد خشى الصليبيون دائماً تأمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات .

(Thompson : Economic & Sociol Hist. of the Middle Ages; vol. I, p. 398).

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 100.

كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه في إقامة حكومة دينية حتى هدأ الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكا في كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين في مارس سنة ١١٠١ . ويقف المؤرخ ولیم الصوری في ذلك النزاع الى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته ، وأن ارنولف ما لـسكورن - بطرق بيت المقدس السابق - هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت ^(١) أما المؤرخ ألبرت الآكسي - وهو المدافع دائما عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية - فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرات محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفري ويخلفه في الحكم ، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكي ^(٢) .

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما ، هو الذي جعل النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر - كما سبق أن أشرنا - بعزل دايمبرت نهائيا سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرِقا جديدا لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لمسه في البطرُق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة في الابتعاد عن الاشتغال بالمسائل السياسية ؛ وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين في الشخص الذي يتولى بطرِقية بيت المقدس ^(٣) .

ولكن إبرمار لم يستمر طويلا في منصبه ، إذ وصل النزاع حول شغل كرسي بطرِقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثاني مندوبا اسمه جبيلين للتحقيق في الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جباين نفسه بطرِقا على بيت المقدس سنة ١١٠٨ ^(٤) . وكان هذا البطرُق الجديد متقدما في السن ، فلم يلبث أن توفي .

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 438—439.

(2) Albert d'Aix, p. 538.

(3) Idem; p. 622

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 457.

في ابريل سنة ١١١٣ ، فاختر بعده أرنولف مال كورن بطرقا من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل اثنتي عشرة سنة يتربص تلك الفرصة التي أعادت إليه كرسية المسلوب (١) .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية اتصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس ، وتجنيد تلك المملكة الناشئة صراعا بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مال كورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من إحكام إشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة الناشئة نظاما وراثيا في بيت بلدوين ، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقتال (٢) .

وإذا كانت بطرقيّة بيت المقدس قد غدت - بفضل سياسة الملك بلدوين الأول - الحليف المنخلص الوفي للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن مؤازرة تلك البطرقيّة وتوسيع اختصاصها الديني ، وزيادة نفوذها على حساب أنطاكية . وكان ذلك عندما نشب نزاع بين بطرقيّة بيت المقدس وبطرقيّة أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعدما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضي بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية . ولكن ذلك الوضع صار غير ذي موضوع سنة ١١١٠ عندما كانت بيروت في أيدي الصليبيين في حين ظلت صور نفسها في قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقيّة بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعة لها ، في حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له (٣) .

(1) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 248.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 296.

(3) Richard : Le Royaume Latin, p. 97.

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثاني سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامي غير الأوضاع القديمة التي كان معمولاً بها في الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس في جميع البلاد التي يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرقية بيت المقدس^(١) . ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقيّة بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقيّة أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثاني عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ما عدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد أصبحت تابعة لبطرقية بيت المقدس^(٢) .

زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها ارتبطت بالكنيسة ، هي أنه طلق ، زوجته الملكة أردا Auda ، وتزوج من أدلياد الصقلية Adelaide de Sicile^(٣) . أما عن أردا فهي ابنة زعيم أرمني تزوجها بلدوين أيام أن كان أميراً على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون في إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسي كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ؛ ولكنه لم يلبث أن أحس - بعد أن أصبح ملكاً على بيت المقدس - أنه ليس في حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالي فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلاً عن أنه لم يعيش له منه أولاد يرثونه بها^(٤) . وكان أن سعى الملك بلدوين سنة

(1) Guillaume de Tyr, p. 502.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 312.

(3) Setton : op. cit; I, p. 406.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 102.

١١١٠ لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق من زوجته بعد أن اتهمها بالزنا. ولكن يغري تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية^(١) . أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها في القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته في أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذي توفي سنة ١١٠١ وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان في إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثاني ابن الأميرة أدلياد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التي كانت تملكها تلك الأميرة والتي كانت كفيلاً بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس^(٢) . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة ابنها روجر الثاني على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه في حالة إذا ما رزقت منه بمولود ذكر ، فإن هذا المولود يرث أباه في عرش روجر الثاني . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا في بداية أغسطس سنة ١١١٣ في أسطول كبير يحمل ثروة طائلة من الذهب ، والفضة والتحف وغيرها^(٣) .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونياً ، وأنه تم بالتواطؤ مع صنائع بلدوين من رجال

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 473—474.

(2) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 184.

(3) Albert d'Aix, p. 597.

الكنيسة وأولهم أرنولف ما الكورن ، ومن ثم أصبح بلدوين متهما بالزواج من امرأتين وهي تهمة لها خطورتها في المسيحية^(١). ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ربيبة أرنولف مال كورن أسقف بيت المقدس في دفع هذه التهمة عنه ، إذ أصر البابا باسكال الثاني ومنذوبه الذي أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق في الموضوع على أن طلاق إردا من بلدوين الأول باطل ، وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضاً خطيراً في أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش في عكا بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغضوباً عليه من الله والكنيسة بسبب زواجه من امرأتين في وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد فعادت كسيفة البال إلى صقلية في إبريل سنة ١١١٧^(٢).

ولا شك في أن طلاق أدلياد جاء لكمة قوية لابنها روجر الثاني وجميع الأمراء النورمان في إيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك الزيجة كسب النورمان في إيطاليا وصقلية وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذي مملكة بيت المقدس ؛ فإن النتيجة جاءت عكسية بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان في إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

وفيات الرؤساء :

ولم تلبث سنة ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففي

(1) Runciman : op. cit; II, p. 104.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 509.

(م ٢٢ — الحركة الصليبية)

٢١ يناير سنة ١١١٨ توفى البابا باسكال الثاني في روما ؛ وفي ٢ إبريل توفى بلدوين الأول ملك بيت المقدس ؛ وفي ٥ إبريل توفى السلطان محمد السلجوقي في فارس ؛ وفي ١٦ إبريل سنة ١١١٨ توفيت في صقلية أدلياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفى أرنولف بطرق بيت المقدس ، وفي ٦ أغسطس توفى الخليفة المستظهر العباسي في بغداد ، وفي منتصف أغسطس توفى ألكسيوس كومنين امبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل^(١).

بلدوين الأول في نظر التاريخ :

وبعد ، فإن أهمية بلدوين الأول في التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفري محاربا صليبيا فحسب ، بل كان أيضاً سياسيا ومنظما ومؤسسا لمملكة لها أهميتها في تاريخ العصر الذي عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذي استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الإسلامي في الشرق الأدنى ، وإليه يرجع الفضل في وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التي سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده ، والتي حققت نوعا من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية في الشرق الأدنى.^(٢)

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أكسبته أهمية خاصة في تاريخ الصليبيين بالشام ؛ إذ تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لا تتعدى المدينة المقدسة ذاتها وضواحيها القريبة ، فما هي إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريبا ، وتمتع بشاطئ طويل على

(1) Runciman : op. cit II, p. p. 105—106.

(2) Cam Med. Hist, vol 5, p. 304.

البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالاً آمناً مستمراً مع العالم الأوربي الغربي^(١). ثم كان أن توج بلدوين الأول أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادي عربة والضفة الشرقية للأردن، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة، بل لقد أوغل في الأراضي المصرية نفسها شرق الدلتا... كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين في أفريقية وآسيا، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى؛ وهي الصلة التي كانت تهدد بوقوع الصليبيين في الشام بين شقي الرحي. ولا شك في أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، فضلاً عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين^(٢). وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزاً بين الإمارات الإسلامية الكبيرتين في شمال الشام والعراق — وهما حلب والموصل — فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة ووادى عربة حاجزاً صليبياً بين القاهرة ودمشق. ولم تلبث تلك الخطة التي وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت في تمزيق أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وتمكين الصليبيين في الفترة الواقعة بين سنين ١١١٦، ١١٨٩ من التحكم في المسالك المؤدية إلى الحجاز^(٣).

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لا يقل مهارة في توجيهها عنه في توجيه السياسة الخارجية، مثلما يتضح ذلك في إشرافه على الكنيسة ورجالها، وفي منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس.

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 314—315.

(2) Setton : op. cit; I. p. 406.

(3) Grousset; Hist. des Croisades, I, p. p. 315—316.

الفصل السابع عشر

ريموند الصنجيلي والصليبيون

ريموند والدون البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيلي Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يمني نفسه حينما بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده^(١) . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب — حول البارة ومعرة النعمان — انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافس في الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلي عنها في يناير سنة ١٠٩٩^(٢) . وكان أن فكر ريموند في تأسيس إمارة على شاطئ الشام ، فهاجم أنطربوس وعرقه إلى الشمال الشرقي من طرابلس ، ولكنه نجح في احتلال الأولى في فبراير سنة ١٠٩٩ وفشل في الاستيلاء على عرقه في مايو سنة ١٠٩٩^(٣) . وعندما رشح اسمه حاكما لدولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ اتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية في فلسطين — مثل عسقلان وأرسوف — ولكن عداء جودفري بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (أغسطس ١٠٩٩) .

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 249—251.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . &

Gesta Francorum, p. 172—178.

(3) Raymond d'Agiles, p. p. 279—288.

وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها في بلاد الشام ، والمناذاة بحقوقها في أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام^(١) .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر في وضوح عندما استولى على اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٨ ، إذ ساء لها للبيزنطيين بعد قليل مما قوى الرابطة بينه وبين الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد في إخلاص ريموند له^(٢) .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والامبراطور البيزنطي أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذي كان وجوده في ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهدداً لأطماع الامبراطور البيزنطي من ناحية وريموند من ناحية أخرى^(٣) . ومن أمثلة هذا التعارض بين الطرفين ما حدث في صيف سنة ١٠٩٩ ، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفري صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين ، اختار بوهيموند — كما سبق أن أشرنا — أن يبقى حيث هو في أنطاكية لينتهاز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزي تحت زعامة دايمبرت^(٤) . ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية في يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب — وكذلك الأسطول البيزي عند اقتراب ريموند — حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام ، وبذلك استرد ريموند اللاذقية^(٥) . وكان أن توسط دايمبرت في الصلح بين ريموند

(1) Vasiliev op. cit, II, p. 409.

(2) Albert d'Aix, p. p. 500—501.

(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 323.

(4) Stevenson : op. cit ,p. 39.

(5) Albert d'Aix,p. p. 502-504.

وبوهيموند، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية، وسويا ما بينهما من خلاف .
 واماكن هذه التسوية، كانت في الظاهر فقط، إذ ظل بوهيموند قائماً في أنطاكية
 على كره من الامبراطور البيزنطي، في حين ظل ريموند يحمل في قلبه حقدا
 دفيناً على بوهيموند، واكتفى مؤقتاً بأن سيطر على اللاذقية وانظرطوس باسم
 الامبراطور البيزنطي^(١).

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند في أنطاكية، فإنه
 سرعان ما فكر في استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه في
 شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية. وهكذا استمرت روح التنافس والكراهية
 تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند. من ذلك أن بوهيموند مر في يناير
 سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس، وطلب من ريموند
 أن يمهده بالزاد، فاعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه^(٢). هذا بالإضافة إلى الدور
 الذي قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عقب
 وفاة جودفري بوايون، إذ سبق أن رأينا كيف استطاعت قوات ريموند في اللاذقية
 أن تمنع الرسالة التي أرسلها دايمبرت إلى بوهيموند مستدعياً إياه ليمتولى الحكم في
 المدينة المقدسة (مايو — أغسطس ١١٠٠)^(٣).

واخيراً رحل ريموند إلى القسطنطينية في صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع
 الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند،
 في أنطاكية^(٤). ولم يكدر ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الأخبار بوقوع
 بوهيموند أسيراً في قبضة التركمان من بني دانشمند في كبادوكيا. ولكن

(1) Foucher de Chartres, I, p. 368.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 321.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٨١ .

(4) Chalandon : Alexis Comnene p. p. 222—223.

هذا الحديث لم يكن له أثر في سياسة ريموند والامبراطور ألكسيوس كومنين تجاه أنطاكية ، لأن تنكرد الذي تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطرا عن بوهيموند ، فاتبع سياسة العداة نفسها تجاه الامبراطورية البيزنطية ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية في قيلية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة^(١). ولم يكف تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومتها مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها في النصف الثاني من سنة ١١٠٢^(٢)

وفي الوقت الذي أخذ ريموند وألكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإنقاذ اللاذقية ، إذا بحملة صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه . وكان أن عين الامبراطور البيزنطي حليفه ريموند للإشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى في الحملة الصليبية الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها في تحقيق بعض أطماعه في الشام^(٣).

ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١ :

لم يسكد الغرب الأوربي يعلم بالتوفيق الذي أصابته الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام ؛ وبنجاح رجال تلك الحملة في استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين حتى تحمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا في الحملة الأولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ؛ فضلا عما كانوا يرجونه

(1) Raoul de Caen; p. 706-707.

(2) Idem, p. 708.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 322

من المشاركة في الحركة الصليبية وثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين في الشام كانوا عندئذ في حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية ، لتعويض النقص في الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ما حققوه من مكاسب ضد أية محاولة انتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة (١) .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من المباردين الذين تحركوا في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان وألبرت وجيوبرت وهيو من الأمراء (٢) . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم مع كثرة رجالها - سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين في حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة والنساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم إلى القسطنطينية في مارس سنة ١١٠١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى (٣) . وقد عارض المبارديون تلك الأوامر الامبراطورية في أول الأمر بحجة الرغبة في انتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب ، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيلي ، فعبروا البسفور في أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطئ الآسيوي (٤) .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عندنيقية على مقربة من المباردين ، حتى اجتمع الصليبيون جميعاً فبلغت عدتهم نحو مائتي ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند

(1) Setton : op. cit, I, p. p. 347—348.

(2) Runciman : op. cit, II, p. p. 18—19.

(3) Chalandon : Alexis Comnene p. p. 224—225.

(4) Albert d'Aix, p. p. 560—562.

السنجيلي . وكان الاتجاه الغالب في أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم في الشام ، وهو طريق صور ليوم وقونيه ، وأيد هذا الرأي الامبراطور ألكسيوس والأمير ريموند نفسه^(١) . ولكن جموع المباردين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصرزوا بأن تتجه الحملة ضد بني دانشمند في كايا دوكيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر^(٢) . ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازي كمشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً في قلعة نيكسار على حدود بلاده ، أي في المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذي تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية^(٣) . ولكن المباردين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيمكن الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبني دانشمند . وهكذا أدى جهل المباردين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم في الاستماع للنصح إلى الانحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعي ، مما عرضها لحوادث بالغة^(٤) .

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند السنجيلي وبقية الصليبيين لرأي المباردين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة في أواخر يونيو سنة ١١٠١ واستولت عليها في سهولة ، ومن هناك توجه الصليبيون في الاتجاه الشمالي الشرقي إلى كنفري ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالاً للاستيلاء على قسطموني على ساحل البحر الأسود . وهناك أخذ التعب يحل بالصليبيين لصعوبة

(1) Runciman : op. cit; II, p. 21.

(٢) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال : « ... وصل من البحر سبعة قمامة من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند ... » . (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

(3) Setton : op. cit, I, p. 354.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 324—325.

البلاد وجذبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلعج أرسلان على الانسحاب من أمامهم مدمراً كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين ^(١) .

وفي ذلك الوقت أخذت تتجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبي الجديد ، فأسرع قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقي لنجدة الملك غازي كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس ^(٢) وعندما وقعت الواقعة في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان المبارديون — وهم السبب في تلك الكارثة — أول من ولى الأدبار ، وعبثاً حاول الأمير ريموند الصنجيلي وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التي رافقت الصليبيين إلى الانسحاب ، ولم يلبث ريموند أن فر شمالاً نحو البحر الأسود — قرب سينوب — ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية ^(٣) .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إلى ميناء سينوب البيزنطي ، ولكن بعد أن تركوا في أيدي الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... ، وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك في مطاردة فلول الصليبيين ، فقتلوا منهم عدداً ضخماً قدره أورخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفاً وخمسين

(1) Runciman : op. cit; II, p. 22.

(٢) ذكر ابن الأثير أن المساهين نصوا كميناً للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذلك الموضع يبرأ ماسيه وسيواس « خرج الكمين عليهم » .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣) .

(2) Albert d'Aix, p p. 569—570. &
Foucher de Chartres, p. 398.

ألف^(١) في حين ذكر ابن الأثير أنه « لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين^(٢) » .

وهكذا حلت تلك الكارثة التي حلت بالصلبيين على أيدي السلاجقة الأثر الرنان الذي تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة في ضورليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يابث أن وصل إلى القسطنطينية في منتصف يونيه سنة ١١٠١ وإيم الثاني كونت نفرز Nevers (١٠٨٩ — ١١٤٧) على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاه الفرنسيين^(٣) . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة في اللحاق بإخوانهم اللبارديين ، فأدركوا أنقرة في غير صعوبة ، ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللبارديين ، فاتجهوا نحو قونيه التي وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا في الاستيلاء عليها^(٤) . وفي ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة اللبارديين السابقة ، فتقدم قاج أرسلان والملك غازي ابن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إبادة شبه تامة قرب مدينة هرقله في أواخر أغسطس سنة ١١٠١ . ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار من مدينة أرمنك البيزنطية إلا في صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية^(٥) .

وفي الوقت الذي كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها في آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشؤومة في أوائل يونيه سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبي بزعماء وإيم التاسع دوق اكونتين — وهو شاعر التروبادور الشهير — وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر

(1) Albert d'Aix, p. p. 571—572.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(3) Setton : op. cit, I, p. 358.

(4) Runciman: op. cit, II, p. 26.

(5) Albert d'Aix, p. p. 575—578.

هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء عبورهم الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ونقص الماء والزاد^(١) . وقد اتبع الأتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التي اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، ومع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون في طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظماً وإنهاك هاجمهم وقضوا عليهم في سهولة^(٢) . وهكذا وصل الصليبيون إلى قونية ليجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا رحلتهم في الوقت الذي اجتمع قلبج أرسلان سلطان قونية والأمر غازي بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعاً للصليبيين على مقربة من هرقله . وعندما انقض الأتراك على الصليبيين في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ أبادوا الجيش الصليبي أولاً عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم ولهم التاسع دوق اكويتين وولف الرابع دوق بافاريا ، فاتجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية^(٣) .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشؤم الذي جرت بها إليه جموع اللبارديين . ولو كان اللبارديون استمعوا للنصح في أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة وأن تتفادى الكوارث التي حلت بها . ولاشك في أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة أهمها تقوية الروح المعنوية عند الأتراك بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما محأ أثر الهزيمة التي حلت منذ سنوات بالسلاجقة في ضورليوم^(٤) . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى في

(1) Matthieu d'Edesse (Hist. Arm. I) p. 59.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 361—362.

(3) Foucher de Chartres p. 399 & Guibert de Nogent. p. 243.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 29.

وجه الصليبيين بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت في اقتحامه وفتحه ، واستمر هذا الطريق مغلقا طوال عدة سنوات مقبلة ، أى حتى أيام فردريك بربروسا في أواخر القرن الثاني عشر . أما بالنسبة للموقف في بلاد الشام ، فإن الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين في الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة — ومملكة بيت المقدس بوجه خاص — أحوج ما تكون إليهم للدفاع عن كيائها ، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة^(١) . وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية ، فإن انسداد الطريق البرى مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين في الشرق على الطريق البحرى الذى سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية ، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوا وبيزا وغيرها من قوى الغرب البحرية^(٢) .

٤

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 332—333.

(2) Runciman : op. cit, I, p. 30.

الفصل الثامن عشر

ريموند وتأسيس إمارة في الشام

تنازل ريموند عن مطالبه في أنطاكية والهرزقية :

اتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية — بعد الكارثة التي حلت بهم — إلى أنطاكية ، في حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية حيث أعد لهم الامبراطور ألكسيوس كومنين في أوائل سنة ١١٠٢ سفنا حملتهم إلى الأراضي المقدسة^(١) . وكان أن صحب ريموند الصنجيلي الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا في غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعي لأنطاكية . ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر في يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان متهما إياه بخيانة الصليبيين في الأناضول مما عرضهم للكارثة التي حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لفرمه تنكرد الذي اعتقله في قلعة أنطاكية^(٢) . ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين والتواطىء مع الدولة البيزنطية ضدّهم وضدّ مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق — تحت ضغط الأمراء الصليبيين — على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يعهد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ، ليس في أنطاكية فحسب ، بل في اللاذقية أيضا . وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلي عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه^(٣) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 231.

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I.); p. 57.

(3) Albert d'Aix, p. p. 582—583.

(م ٢٣ — الحركة الصليبية)

ولا شك في أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حداً للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيلي من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافاً جديداً بوجودها مما ثبت أركانها . هذا فضلاً عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام ، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرساً لخدمة الإمبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلاً من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية^(١) . ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن سياسته في مخالفة الإمبراطور البيزنطي لم تأت له بشمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ في حين اكتشف الإمبراطور البيزنطي في نهاية الأمر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الإمبراطورية ضد الصليبيين بالشام^(٢) .

استيلاء ريموند على أنطوطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة سنة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيلي في الاستفادة من تلك البقايا في الاستيلاء على أنطوطوس (طرطوس) ، وهي المدينة التي كانت وقت مجيء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبني عمار — أمراء طرابلس — حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠ . ولكن بني عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللمباردية في آسيا الصغرى ، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد . وفعلاً بدأ حصار

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 334—335.

(2) Runciman op. cit, II, p. 56.

انظر طوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة^(١)، وصادف في ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام فاستعان به ريموند في حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت المدينة في يده في فبراير سنة ١١٠٢^(٢). ولم يكدر ريموند يستولى على انظرطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام، وأول هذه المشروعات فتح مدينة طرابلس ذاتها^(٣).

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار (١٠٩٩-١١٠٨) الذي سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى، وكيف أنه لم يعاد الصليبيين، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له، أو طرابلس ذاتها. كذلك أشرنا إلى أن القاضي فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس وحذره من السكين الذي نصبه سلاجقه دمشق. والواقع إن فخر الملك لم يأت بجديد في سياسته هذه، إذ حرص أسلافه دائماً على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقه الشام من ناحية أخرى، وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى^(٤).

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنظرطوس وأخذ يصر في عناد على الاستيلاء على طرابلس، فعندئذ أصبح لزاماً على فخر الملك أن يقبل مضطراً مبدأ الحرب دفاعاً عن كيانه، وأن يلقي بنفسه — مكرهاً أيضاً — بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر^(٥). وكان أن أرسل فخر الملك أبو علي بن عمار مستنجداً بملك دمشق دقاق من ناحية، وبأمير حمص

(1) Albert d'Aix, p. 583.

(2) Heyd : op cit, I, p.—139.

(3) Archer : op. cit p.156.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 337.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠١ .

— جناح الدولة — من ناحية أخرى . وفي ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد اتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم في مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير^(١) . وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو في تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما « من الصواب أن نعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة »^(٢) .

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألفي فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروي ابن الأثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة ، وخمسين لقتال عسكر حمص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف في حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس!^(٣) .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذي يهمنا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع في حصار طرابلس فوراً ، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التي تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التي يظنها ، فقتنع بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية من المال

(1) Raoul de Caen, p. 707.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

والخيل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنطربوس (مارس - ابريل ١١٠٢)^(١)

ريموند وإدارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج في ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار . وقد بدأ ريموند أولا بمهاجمة حصن الطوبان - إلى الشمال الشرقي من حصن الأكراد - وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارسا من «أكابرسانه» ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال^(٢) . وفي السنة نفسها - ١١٠٢ - هاجم ريموند حصن الأكراد أيضا ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربي الفريد حيث أنه يشرف على كل الإقليم بين أنطربوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى^(٣) . وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد في يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . وعندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية في جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة وقتلوه بغتة في مايو سنة ١١٠٢^(٤) .

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, p. 707.

وبذكر ابن الأثير أن ريموند عندما انصرف من منطقة طرابلس إلى أنطربوس . فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطربوس سبق زمنياً الواقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Stevenson : op. cit, p 54.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. p. 525—526).

وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ويروى صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من العجم وأنهم اقتربوا من جناح =

ولا شك في أن هذه الجريمة التي خطت ريموند من ألد خصومه تعطينا فكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامي في بلاد الشام عندئذ ، مما يمكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ، ما كانوا ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال في صفوف خصومهم^(١) .
والتاريخ لا يتهم في جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذي ربطته به رابطة وثيقة . ذلك أن جناح الدولة كان متزوجاً من أم رضوان ، ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية الفرس لتنفيذ جريمته الوحشية في زوج أمه^(٢) .

ولم يكف ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التي غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها ، وفعلاً وصل ريموند إلى حمص «ونازها وحصر أهلها وملك أعمالها»^(٣) . فأرادت الخاتون - أرملة جناح الدولة - أن تستدعي ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق . وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين ، فتنع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها .

= الدولة وهم في زى الزهاد وأخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فخر قتيلاً .
(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن صاحب حمص حسين بن ملاعب جناح الدولة بأنه « كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه » (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٨) .
(٢) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل حسين بن ملاعب - جناح الدولة - أنه كان عند رضوان بن تنش ملك حلب منجم باطنى ، فندب لقتل جناح الدولة هذا أو أهلك النفس ، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوماً . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩) .
أما ابن الأثير فقد قال في صراحة : « وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله » .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأتاب عنه في حكمها أتابكه طفتكين (أبتكين)^(١) .

أما عن ريموند الصنجيلي فقد عاد أدراجه ليقوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهر فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية في مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس «ولم يروا فيها مطعماً» ، اتجهوا جنوباً لمهاجمة جبيل^(٢) ، وهي قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت وكانت هي الأخرى تابعة لبني عمار^(٣) . ولم تستطع جبيل الصمود في وجه الحصار البحري الذي فرضه عليها الجنوبية ، والهجوم البري من جانب ريموند ، فاضطرت إلى الاستسلام في أواخر سنة ١١٠٤^(٤) . ويرى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذي منحوه لأهالي جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب^(٥) أما الجنوبية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستعمرة جنوبية لها أهميتها تحت إشراف أسرة امبرياتشي Embriaci^(٦) .

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 591.)
 (٢) Heyd : op. cit, I, p. 139.
 (٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ .
 ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٧ هـ .
 (٤) Albert d'Aix, p. 606.
 (٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .
 (٦) Heyd : op. cit, I, p. p. 139—141 ; 150&158.

وكان الأسطول الجنوى الذي ساعد ريموند في الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير البحر هيوا امبرياتشي .

فاتح ريموند الصنجيلي:

وبالاستيلاء على انطربوس في الشمال وجبيل في الجنوب تم وضع الإطار الخارجي لإمارة طرابلس الصليبية، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة، وهي مدينة طرابلس ذاتها. ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصينا طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلية في البحر، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر في حالة حصار مدينته براً. لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند (Saint - Gilles) في مواجهة طرابلس مباشرة، أي على الجبال المقابلة لها، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلي؛ وأعانته في بناء هذه القلعة الامبراطور البيزنطي الذي أرسل له الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرس^(١). وهكذا أصبح موقف بني عمار في طرابلس خطيراً ولم يعد أمامهم طريق للاتصال بالعالم الخارجي سوى طريق البحر، في حين تكاتف المسيحيون المحليون — من الموارنة وغيرهم — مع ريموند لإحكام الحصار المفروض على طرابلس^(٢).

وتروي المراجع العربية أن بني عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها، ولكنهم لم يحققوا غرضهم^(٣). وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة

(١) ابن الأثير: الكامل، سنة ٤٩٩ هـ &

Guillaume de Tyr, I. p. 441.

(٢) الرجوع السابقان.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٩ هـ.

عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفي بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار ، تقضى بأن يكون للأول « ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها » ولكن هذا الرأي الأخير لا يوجد ما يدعمه في المراجع الصليبية ، فضلا عن بقية المراجع العربية^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ريموند لم يلبث أن توفي في قلعة صنجيل في نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنيته في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام مثل أنطاكية أو بيت المقدس يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط في يد ريموند ، إلا أنه صاحب الفضل في تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر . فالرها التي سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التي غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون ١٢٦٨ . أما طرابلس التي لم تقع في أيدي الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية في قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩^(٢) .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 528) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 344—345.

الفصل التاسع عشر

أعمال ولیم جوردان

ولیم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيلي ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه في الغرب الأوربي (تولوز) ؛ في حين اختار أفضال ريموند وفرسانه في الشام ابن خالته ولیم جوردان لیتابع سياسته في الشرق . وكان أن استأنف ولیم سياسة ريموند بجميع أركانها ، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة ، واستمر في إحكام الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى^(١) . ودليل ذلك كله ما يرويہ ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطي « أمر أصحابه باللادقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر (من قبرس) »^(٢) . وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن بني عمار ، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس^(٣) .

على أن ابن عمار وجد نفسه في حاجة إلى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار ولیم جوردان ، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً ، وهجرها الفقراء وافتقر الأغنياء وفشلت جهود نحر الملك بن عمار في تخفيف حدة الأزمة^(٤) ، ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه المعونة

(1) Runciman : op. cit, II, p. 62.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء أو من الفاطميين الذين يرغبون في انتزاع طرابلس لأنفسهم من بني عمار ، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكان بن أرتق التركمانى الذى أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا فى ديار بكر . وكان أن تحرك سكان فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفى فى الطريق ، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥) (١) .

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس ، فاضطر أهلها إلى بيع ما لديهم « من الحلى والأواني الغريبة » لشراء ما يلزمهم من قوت ، فى حين آثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة (٢) . ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية ، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى (٣) . ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة ، ثم استعداد أهلها فى محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء ، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرس البيزنطية ، بل من إمارة أنطاكية الصليبية « وجزائر البنادقة » (٤) .

وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس ، اضطر نحر الملك ابن عمار إلى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد نطالب النجدة من زعيمى العالم الإسلامى فى المشرق ، وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ - ١١١٨) والسلطان محمد الساجوقى (١١٠٤ - ١١١٧) (٥) . وقد أناب نحر الملك عنه فى حكم طرابلس

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ ، ٤٩٩ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(3) Setton : op. cit, p. 396.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٥) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

ابن عمه ذو المناقب بن عمار ، ودفع مرتبات الجند لستة أشهر مقبلة ، ثم أتجه إلى بغداد حاملاً معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والسلجوقي^(١) وتلقى رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين في المشرق عندئذ ، وانحلال الخلافة العباسية ، فضلا عن السلطنة السلجوقية ، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكلمات المعسولة والسؤال « عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر في قتالهم » ؛ ولكنه لم يظفر بشيء من المعونة المنشودة !^(٢) .

وهكذا لم يسمع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً إلى إمارته في أغسطس سنة ١١٠٨ نحفي حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالي في القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية لهم ، ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها ؛ فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب والياً سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد في الحصار ، فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجدته من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر في البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار وآلت إلى الفاطميين^(٣) . ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوى جبلة ، وهي قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب^(٤) .

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم في امتلاك طرابلس إلا أنهم

(1) Stevenson : op. cit, p. 56.

(٢) سبط ابن الجوزي p. 535 &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان p. 536 .

كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها . ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بالتنديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج « من كل وجه وتقاعدهم عن المسير »^(١) .

استيلاء وليم جوردان على عرقه :

ولم يلبث أن كثرت الطامعون في حطام إمارة بني عمار ، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طراباس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتاك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقه الواقعة شمال طراباس . والمعروف أن حصن عرقه كان « من الحصون المنيعة »^(٢) ، ويتمتع بموقع حربي هام لأنه بمثابة الباب الشمالي لطراباس ، ويؤدي استيلاء الدماشقة عليه إلى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطارطوس (طرطوس) وطراباس^(٣) .

وكان فخر الملك أبو علي ابن عمار في أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقه إلى أحد رجاله ، ولكن هذا « الغلام » طمع في الاستقلال بعرقه « وعصى على مولاه » ؛ وفي الوقت نفسه لم يستطع الصمود في وجه وليم جوردان فعرض على طغتكين أن يعطيه إياها ، وبعث إليه يقول « أرسل من يتسلم هذا الحصن مني ، قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذ المسلمون خيراً لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » . لذلك أرسل طغتكين على الفور ثلاثمائة من رجاله إلى عرقه تحت رئاسة رجل اسمه اسرائل^(٤) .

وعندما خرج طغتكين من دمشق في مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجمات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Stevenson : op cit: p. 56

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

على القلاع الصليبية القريبة ، ولزيارة حصن عرقه « والاطلاع عليه وتقويته
 بالعساكر والأقوات وآلات الحرب » ؛ تصدى له ولیم جوردان ، فلاذ الدماشقة
 بالفرار وعلى رأسهم طفغتكين نفسه ، وظل ولیم يطاردهم حتى مشارف حصن ،
 ثم عاد متجها صوب شيزر . وقد حاول الأخوان مرشد وسلطان — أميراً شيزر —
 الإيقاع بولیم جوردان وأسرته ، ولكنه انتصر عليهما ^(١) . وهكذا عاد ولیم بعد
 ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقه التي سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع
 (ابريل سنة ١١٠٨) . ويروي بعض المؤرخين الصليبيين أن حامية عرقه عندما
 يئست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون في الصباح
 التالي ^(٢) ؛ في حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقه طلبوا « الأمان » ، فأمنهم
 (جوردان) على نفوسهم ^(٣) .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠ . ويطلق أسامة وابن الأثير على ولیم
 جوردان اسم « السرداني » .

(2) Albert d'Aix, p. 663.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

الفصل العشرون

برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين وليم جوردان وبرترام :

وهكذا ظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام مؤملاً أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التي أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام (برتراند) الابن الأكبر لريموند الصنجيلي ، وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه ^(١) .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق ، وعمل حساب ما قد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده - بروفانس - على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام أتى إلى الشام وقد وضع في برنامجه ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص في طريقه من الغرب على أن يمر بجنوا حيث أجرى مباحثات عن الشروط التي تقبل بها جنوا مساعدته في تحقيق أغراضه ^(٢) . هذا في الوقت الذي كان وليم جوردان من ناحية أخرى

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيلي في إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام في وراثته أبيه كان مزعماً لأنه كان ابناً غير شرعي له . وكان لريموند ابن آخر شرعي صغير السن هو ألفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين سنة ١١٠٨ على أن يرث ألفونسو أباه في ممتلكاته الغربية ، في حين يرث برترام أباه في ممتلكاته بالشام . انظر :

(Runciman : op. cit, I, ps. 61,64—65.)

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 352.

قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيرا إلى جنوا للفاية ذاتها . ولكن وجود برترام بنفسه في جنوا جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوا بأن تساعدته في الحصول على تركة أبيه في الشام من ناحية وفي الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تمهيد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة في طرابلس ^(١) . وهكذا أبحر برترام من جنوا إلى الشرق وبصحبتة أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة بالدولة البيزنطية ، رحب الامبراطور ألكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفه ريموند ، وأكرم وفادته في القسطنطينية وقدم له كثيرا من الهدايا ؛ وفي مقابل كل ذلك أقسم برترام بيمين الولاء للامبراطور مجددا الحلف بين أمراء بروفانس والامبراطورية البيزنطية ^(٢) .

على أن الأسطول البروفنسى — الجنوى لم يتجه نحو انطربوس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل في ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند في أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعد برترام في الحملة التي يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة في قيليقية لاستردادها من البيزنطيين ^(٣) . وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى ، فرفض الموافقة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية ^(٤) .

(1) Heyd : op. cit, I, 140.

(2) Albert d'Aix, p. 664.

(3) Runciman : op. cit; II. p. 66.

(4) Albert d'Aix, p. p. 665—666.

وهكذا أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوبية نحو أنظرطوس التي كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز في ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبة وليم جورديان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذي ظل يدافع عنها — بعد وفاة ريموند — قرابة أربع سنوات ، ولولاه لضاعَت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه — أي وليم — ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقه وحصن عكار^(١) . وبذلك تعقد الموقف بين وليم جورديان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعا له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنظرطوس للاشتراك مع وليم في طرد برترام^(٢)

على أن برترام لم ينتظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنظرطوس واتجه على رأس قواته وصحبته الأسطول الجنوبي إلى طراباس ليحاصرها براً وبحراً ، وفي الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يخبره بتحالف وليم جورديان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس^(٣) .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذي يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإيفاد رسولين إلى تنكرد ووليم جورديان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ،

(1) Foucher de Chartres: p. 419.

(2) Setton : op. cit, I, p. 397.

(3) Albert d'Aix : p. 666.

ويحذرهما من القيام بأى عمل عدواني ضده . ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتيهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر في رد تركة ريموند إلى ابنه برترام (١) . ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان ، فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دي بوج أمير الرها (٢) .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق في قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث . وفي ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة في تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دي بوج ، كما تم الصلح بين برترام ووليم جوردان (٣) . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانظرطوس في حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه في ممتلكاته .

استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح في الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذانا بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التي ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولم يكن بوسع طرابلس في تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس وبروقانس وأنطاكية .

(1) Runciman : op. cit, II. p. 68.

(2) Grousset : op. cit, I, p. p. 355—356.

(3) Stevensen : op. cit, p. 57.

(4) Albert d'Aix, p. p. 668 & Guillaume de Tyr, p. 466.

والرها مجتمعين ، في الوقت الذي أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر^(١) . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءً سريعاً عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذي أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظراً في موانئ الدلتا حين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفي تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط في أيديهم ، وذات نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة »^(٢) . وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ولم تكد تصل إلى مياه طرابلس نفسها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم !! »^(٣) .

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثاني ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميون) في العساكر والأموال والأسلحة ! »^(٤) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمي حضر بعد تأخير « وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر » حتى تمكن من الوصول إلى طرابلس أخيراً فرجدها قد أخذت . (أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

والواقع إن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء ، واضطروا إلى التفكير في التسليم ، طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب في الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيها^(١). وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط ، وبذلك دخل الصليبيون طرابلس في ١٢ يولييه سنة ١١٠٩ فاحترموا الشروط السابقة ، وسمحوا للقائد الفاطمي - على قول ابن الأثير - بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى دمشق^(٢). ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب والسلب^(٣). ولعل تفسير هذا التناقض في مسلك الصليبيين إنما يبدو في أن بلدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب ، فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأموال المسلمين وأرواحهم ، ولكن الجنوبية دخلوا المدينة في الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير^(٤).

(1) Guillaume de Tyr, p. 468.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ؛ فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا وتجارة » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... ومجموعا على طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخائرهما ، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠) .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358.

الجنوية وامتيازاتهم التجارية

ولم تكد طرابلس تسقط في أيدي الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التي قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيلي الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستعمرة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستعمرة أحد أمراء الأسطول الجنوى — هو هيو امبرياتشو — الذي لم يلبث أن حصل من جنوا على حق الحكم الوراثي في جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوا^(١) .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالاته في حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالي ونزعتهم التجارية ، ويندمجون في الوسط الفرنجي البروفنسالى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفضال تابعين لأمراء طرابلس^(٢) . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشى الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية في المدن المجاورة — مثل نابلس وطرابلس وأنطاكية — مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية في المحيط الصليبي الواسع الذي يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتفكرهم لمصالح جنوا ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجارياً للبنادقة في جبيل^(٣) .

(1) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. p. 420.

(2) Hevd : op. cit, I, p. p. 162—163.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.359—360.

توحيد إمارة طرابلس :

اتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس ، وفي الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للامبراطور البيزنطي (١) . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعاني من ذلك التمزيق ما لم تعانیه إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد الشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطراطوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ماينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولأههما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب أنطراطوس وعرقه يقدم ولأه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر — وغيرها — كانت بدون شك لا تبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقتسما أملاك بيت ريموند الصنجيلي في الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية ان ينتهي ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله في ظروف غامضة أشارت إليها المراجع الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة (٢) . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارات طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لا تقل عن إمارة الرها أو أنطاكية في أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلي مؤسس الإمارة ، وهو الذي ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 69.

(2) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 420.

أما تنكرد - الذي « قامر على الحصان الخاسر » - فلم يعد له نفوذ إطلاقاً في إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه^(١) .

استيلاء الصليبيين على بانياس ومعه الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين استيلاء وهم على ماتبقى من المعاقل الإسلامية على شاطئ الشام . من ذلك أن تنكرد احتل في طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التي لم تبد سوى مقاومة ضعيفة ، مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهلها^(٢) .

ومن بانياس زحف تنكرد على جيلة التي أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك بن عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جيلة هي الأخرى أن تقاوم حصاراً طويلاً « وكان القوت فيها قليلاً » فاضطر ابن عمار إلى تسليمها في يوليو سنة ١١٠٩ . وقد سمح تنكرد لابن عمار بأن يخرج سالماً إلى شيزر ومنها إلى دمشق ، حيث أشفق عليه طغتكين « وأقطعه الزبداني وأعماله »^(٣) . وهكذا أصبحت بانياس وجيلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما في داخلية البلاد فيروي لنا ابن القلانسي أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا في السنة السابقة نفسها (١١٠٩ - ١١١٠) على رفنية شرقي أنطراطوس .

(1) Runciman : op- cit; I, p. 69.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ . &

ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد استولى في تلك السنة على جبيل من المسلمين ؛ والحقيقة إنها جيلة . أما جبيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا ، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيلي لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

على أن طفتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ،
 واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور؛ « فلم يقدرُوا
 (الصليبيون) على منازلة رفيه »^(١) . وكان أن انتهى الموقف بعقد اتفاق ودي
 بين طفتكين والصليبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون
 — برترام — على ثلث دخل البقاع ، فضلاً عن حصن المنيطرة وابن عكار^(٢) .
 ولا شك في أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ، لأن
 المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعبك ، في حين أن سيطرتهم على
 حصن ابن عكار تمكّنهم من الإشراف على الطريق بين عرقه وحمص . وفي
 مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصيّاث وحصن
 الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كدهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد
 صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة
 على شيزر^(٣) . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع
 إمارة طرابلس لأنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للامير بونز
 Pons الذي خلف أباه برترام في حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة
 ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثاني أمير
 طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢^(٤) .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537)

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

• سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537)

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧

• سبط بن الجوزي ، (p. 539)

(4) King · The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 36.

سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض في تلك الفترة ، فأهم ما يميزها التقارب الشديد بين الإمارات الصليبية الأربعة في الشرق الأدنى ، وهي الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها في الفترة التي أعقبت سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين جرى في اتجاه واحد^(١) . وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد ما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد في أنطاكية ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعلق في تلك الفترة بفغرام سيسيل — زوجة تنكرد الشابة — حتى إذا ما توفي تنكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملة سيسيل على الفور^(٢) . ولا شك في أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية ، إذ ربطت بين الأُسرتين الحاكمتين في طرابلس وأنطاكية .

وفي الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فرافقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية^(٣) . هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التي وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك لمد حدود دولته في الاتجاه الشرقي . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رفنية ، وهي

(1) Setton : op. cit. I, p. 399.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 483 & Albert d'Aix, p. 701.

(3) Albert d'Aix, p. 701.

من أملاك طغتكين صاحب دمشق « وبالغوا في تحصينها ». ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رفنية واستردها من من الصليبيين بعد أن « أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخايرهم ما امتلأت به أيديهم ، وعادوا إلى بلادهم سالمين » (١) .

أما الحصن الثانی للصليبيين في إقليم البقاع فكان حصن بعين الذي شيده بونز أمير طرابلس حوالي ذلك الوقت . وهناك إشارات في المراجع الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رفنية وحصن بعين ، فهاجم بونز رفنية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في نهاية مارس سنة ١١٢٦ ، وذلك بعد حصار بضعة أيام (٢) . أما قلعة بعين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر في المراجع من أن بعين كان سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعه التابعة لإمارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت في نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من المرقب شمالاً حتى نهر الكلب جنوباً ، ومن شاطئ البحر المتوسط غرباً حتى بعين ورفنية وحصن الأكراد وعكار شرقاً . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نتعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الولايتين (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. S. 555, 557)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 652) &

Foucher de Chartres, p. 480.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 367—368.

الفصل الحادي والعشرون

حياة الصليبيين ونظمهم في الشام

البناء العباسي :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها ، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة ، وتفصل بينها أراضى ومدن وبلاد إسلامية . ويمكن تشبيه دولة الصليبيين في أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه في الشمال من أنطاكية غربا إلى الرها شرقا ، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وضلعه الجنوبي من أيلة إلى غزة ، وضلعه الغربي من غزة إلى أنطاكية . هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ ، إذ امتلك الصليبيون أراضى ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة ، وفي الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقا ، مثل حلب وحماه ودمشق^(١) .

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والأطماع السياسية للأمرء المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها ، الأمر الذى جعل من التعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين في الشرق الأدنى . وهكذا قامت إمارة الرها ثم إمارة أنطاكية ثم مملكة

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

بيت المقدس وأخيراً إمارة طرابلس^(١). وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية. ويكفي أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي^(٢).

والواقع إن الفضل في بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التي قامت في أواخر القرن الحادي عشر، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعمورى. وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨) جمع من الصفات السياسية والحربية والخلقية والعقلية، ما جعل منه حاكماً ناجحاً، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التي قامت عليها مملكة الصليبيين في بيت المقدس. وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبي العام بالشام، وهم بلدوين الثانى، وفولك الأنجوى، وبلدوين الثالث، وعمورى الأول، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٣ - ١١٨٥)^(٣). ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعاً هو مقدرتهم على استغلال الظروف واختيار الرجال والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب، وبين السنة والشيعة، وبين حكام حلب وحكام دمشق. هذا فضلاً عما لجأ إليه بلدوين الثانى من مخالفة الباطنية، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامى بالشام، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين^(٤).

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Mayen Age p. p. 108—109.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 197—199.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.

(4) Setton : op. cit; I, p. p. 119—120.

نظم الحكم والإدارة :

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم إلى الشرق .

ففي مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هي بيت المقدس وعكا و نابلس ، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك ^(١) . وكان يلي الملك أربعة من كبار الأمراء — أشبه بالدوقات في الغرب الأوربي — هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن — ؛ ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته ، أشبه بالملك نفسه ولكن على مقياس أصغر . وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، وعددهم حوالي اثني عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين ^(٢) . وكان على كل فصل من أولئك الأمراء — الكبار والصغار — أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعي ، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية . هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة في بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودة في السنة كما هو الحال في الغرب الأوربي ، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في الشام ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة ، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعي في الحرب ^(٣) .

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض — مدينة وأعمالها أو حصن

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p. p. 71—72.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.

(٣) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كاملي العدة في وقت الحرب ، في حين كان على أمير شرق الأردن تقديم ستين فارساً فقط .

أو عدة قرى متلاصقة مثلاً — إلا في حالة ضياع الكنيسة التي آلت إليها عن طريق الإحسان ، أو ضياع هيئات الفرسان — وبخاصة الاستبارية والداوية — التي آلت إليهم عن طريق الفتح والغزو ، فكانت متناثرة في مختلف أنحاء الشام . أما الموارد المالية التي عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة ، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم ؛ وأهمها الضرائب العديدة التي فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات ، فضلاً عن الحجاج والموانى والسفن^(١) .

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد ، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف . ويبدو مما كتبه المتأخرون أن ملك بيت المقدس — على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس — إلا أنه كان محدود السلطان في مدينته أمام سطوة الدين ورجال الدين ، إذ لا ينبغي لملك أن يرفع رأسه في مدينة المسيح . ولعل هذا هو السبب الذي جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى — واحداً بعد آخر — يرفضون شرف تولى حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ، حتى إذا ما قبل جودفري ذلك المنصب بعد ضغط شديد اشترط عدم تتويجه ملكاً ، اعتقاداً منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك في مدينة المسيح^(٢) .

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعي المعروف في الغرب ، إذا بالملكية في بيت المقدس تظل

(1) Runciman : op. cit, II, p. 298.

(2) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 300.

انتخابية من ناحية المبدأ ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثي ، كما حدث عنه تولية بلدوين الرابع ملـكاً سنة ١١٧٤ وهو في الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه^(١) . ومهما تعددت سلطات الملك ، فإنه كان مقيداً في كثير من المسائل برأى أمراءه فضلاً عن رأى المحكمة العليا ؛ فكان مثلاً لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة .

وكانت المحكمة العليا في أساسها هيئة قضائية ، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أى قانون أو تشريع جديد في المملكة ، فضلاً عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات أو ما يرتكبونه من مخالفات وجرائم^(٢) . وفوق هذا وذاك ، فقد كان لتلك المحكمة رأى مسموع في توجيه السياسة العامة للمملكة ، لأن المحكمة العليا تألفت من أفضال الملك المباشرين - وهم كبار الأمراء - ، فضلاً عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها ، وممثلين للجنابيات الأجنبية التي امتلكت أراضي ومدن في المملكة - مثل البنادقة والجنوية والبيازنة - وممثلين لهيئات الفرسان مثل الإسبتارية ، والداوية . ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأى جميع الفئات السابقة^(٣) .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التي اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة ، والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى في مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثلاً تلك

(1) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 609.

(2) Longnon : op. cit, p. 137.

(3) Runciman : op. cit, II, p. p. 300-301.

التي أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois ، وهي خاصة بالفرنجية من غير النبلاء.. أى عامة الفرنجية من البورجوازيين - وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلا عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية^(١). وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى ، وتولى رأسها فيكونت المدينة يساعده اثنا عشر محلفا يختارهم الأمير الذي تتبعه المدينة. أما المدن الإيطالية أو التي كان للتجار الإيطاليين أحياء بها، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجاري : النوع الأول هو محاكم المدن Cours de la fonde وقد قامت في المدن ذات النشاط التجاري ، والنوع الثاني محاكم الموانئ والسفن Cours de la chaine وقد قامت في الموانئ البحرية ويتولى رأسها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم^(٢).

هذا عن المحاكم ، أما الجهاز الإداري في المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الإحتفالات الكبرى وعلى الشؤون المالية والخزانة؛ ويأتي بعده كند اسطبل المملكة Coustable وهو قائد الجيش تحت رآسة الملك العليا ويشرف على كل مايتعلق بتنظيماته وإمداداته ويساعده المارشال . وبعد ذلك يأتي الياور Chamberlian ويشرف على القصر الملكي وعلى مالية الملك الخاصة . وهكذا تعدد الموظفون في مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإداري^(٣).

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التي كانت سائدة في إمارة الرها ، إلا أنه بدراسة ماوصلنا من نظم إمارتي أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن

(1) Grousset: L'Empire du Levant, p 283.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ - ٧٩ .

(3) Runciman : op. cit, II, p. p. 303—304.

الإمارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس في نظمها القضائية والإدارية مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي أحاطت بكل إمارة من ناحية والعناصر البشرية التي تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى^(١). فإمارة الرها مثلاً أدى تطرفها في الشمال الشرقي، وإحاطة الأرمن والأتراك بها، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبي العام في بلاد الشام، إلى وقف تطورها الدستوري وإلى اعتماد أمراءها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية^(٢). وفي إمارة أنطاكية أيضاً نجد روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمراءها في كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء في الإمارة، كما نجد التأثيرات البيزنطية تبدو في بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب^(٣).

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا في نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التي أحاطت بهم.

الكنيسة والرهبات الربانية :

كان من الطبيعي أن يكون للكنيسة أهمية كبرى في مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية. ومهما تكن الأسباب التي دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية فالمهم هو أن قيام البابوية فعلاً بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام، الكبير منهم والصغير^(٤).

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(2) Longnon : op cit, p 137.

(3) Ruociman : op. cit; II, 306—307.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 295.

وإذا كان ملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أوسيد ، فإن هذا الرئيس كان البلبا في روما . وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس لولا وفاة أدهمار المندوب البابوي في الحملة الصليبية الأولى ، ثم سوء سيرة دايمبرت . هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس ، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة في الشرق ، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب — بوصفه خليفة المسيح في مدينته — بالسيادة على بابا روما ، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته . ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت بابوات روما يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس ، ولا يشجعون بأي حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة^(١) .

ولعل أول ما يسترعى انتباهنا عن الكنيسة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية هي أنها فازت بنصيب الأسد ، إذ أنها ربحت كثيراً ولم تفقد سوى القليل . فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس واستحوذ أخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعاً كبيراً في امتلاك الأراضي والأموال ، عدا الهبات والهدايا التي أنهالت عليهم^(٢) . وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التي أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها . ويمكن أن نعرف أن أحد تلك الأديرة — وهو دير جبل صهيون في بيت المقدس — امتلك سنة ١١٧٨ حياً بأكملها في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة . وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضي وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية ؛ بل إن

(1) Setton : op. cit, I, p. p. 379—383.

(2) Longnon : op. cit, p. 133.

بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوروبا ضياعاً وأملاً كما فصارت له ممتلكات في صقلية وإيطاليا فضلاً عن فرنسا^(١). وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، وإنما سقناه لناخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحروب الصليبية . ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية أثارت حقد النبلاء في بلاد الشام ، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية ، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات ، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن الكيان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام .

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام ، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية ؛ وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي . أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذي منى به دايبرت . وعندما نخلو منصب بطرقيّة بيت المقدس ، كان رجال البطرقيّة ينتخبون اثنين للمنصب ، يختار الملك أحدهما . ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة في صور وقيسارية ، والناصرية والكرنك وبصرى ؛ ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة^(٢) أما بطرق أنطاكية ، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها ، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنطرس وجبلّة والبارّة وطرسوس والمصيصة فضلاً عن الرها^(٣) .

(1) Thompson : op. cit, p. 406

(2) Richard : Le Royaume Latin, p.98.

(3) Runciman : op. cit, II, p. p 311.312.

وقد شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية ، أهم ما يعيننا منها هيئات الفرسان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية . وقد أشرنا في موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين ، ويهمننا في هذا المقام أن نؤكد نموها السريع في القرن الثاني عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب ، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ^(١) . والواقع أن منظمتي الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام ، فمن الناحية الروحية ، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب . ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والزود عنه وفي محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم ، في وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي^(٢) . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة^(٣) .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام في عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ما أسهموا به من جهد حربي ، وإنما قاموا أيضاً بجهد كبير في ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية في بيت المقدس كان يتسع

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 291—292.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p. 305—306.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 312.

لألف حاج ، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم^(١) .
 وكان الاستبشارية والداوية يوزعون صدقات يومية ، على فقراء الصليبيين والمعوزين
 منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب .
 وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا
 إلى بيت المقدس ، وبدلوا في ذلك جهدا استحق شكر المعاصرين . أما عن نشاطهم
 المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ،
 ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استغلاليا إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبي ، مما
 أثار ضدهم سخط الكثيرين^(٢) .

على أن هذه المزايا الضخمة التى حققها هيئات الفرسان للصليبيين قابلتها
 مطالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماما فى
 بلاد الشام عن كل نفوذ سياسى ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة ، مما
 جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة
 خاصة معينة فى مشكلة من المشاكل أو تعقد صراحة أو هدنة مع المسلمين دون أن
 ترتبط أو تقيد بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها - مثل الكنيسة -
 تمتعت بأموال واسعة ، فلم تمتلك ضياعاً وأراضى وأسواقاً ومرعى ومواشى
 فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع وتعهدت
 بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولا شك فى أن هذه الممتلكات جاءت على حساب
 بقية الفئات الصليبية بالشام^(٣) .

(1) King : The Knights Hospitallers, p. p: 64—67.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(3) Thompson : op. cit, p. 407.

الحياة الاقتصادية :

امتازت حياة الصليبيين في بلاد الشام بنشاط اقتصادي واسع ، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا في ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل^(١) . والمعروف أن معظم الأجزاء التي احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة ، فقير مجذب ، حتى أنهم اضطروا عندما انكسرت رقعة بلادهم في المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام . ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعى طيبة ، فضلا عن بساتين الفاكية ومزارع الزيتون والخضروات التي أحاطت بالمدن . ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا في تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والمواالح إلى الغرب . أما قصب السكر فقد عرف الصليبيون زراعته في الشام ، كما تعلموا استخراج السكر منه ، فأقاموا مصانع للسكر في عكا وصور وغيرها من موانئ الشام ، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(٢) . كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية والخممل إلى الغرب . واهتم اليهود في المدن الصليبية — وبخاصة في صور وأنطاكية — بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوروبا ، وإن تعرضوا في هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر .

وكان لملوك الصليبيين وأمراءهم من الرسوم التي فرضوها على تجارة المرور ، أي التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربي عن طريق بغداد ودمشق فعكا وغيرها من الموانئ الصليبية . هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم والمصدرة منها إلى الغرب . ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجاري تركز في قبضة التجار الإيطاليين وبخاصة

(1) Longnon : op. cit, p, 141.

(2) Heyd : op. cit; II, p. p. 680 - 686.

البنادقة والبيازنة والجنوية ، وهم الذين امتلأوا أحياء بأكلها في كثير من المدن الصليبية بالشام ، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم ، زودوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر أنه يعيش في بلده الأصلي^(١) .

وقد برزت عكا بالذات في النشاط التجاري للصليبيين ببلاد الشام ، وهو النشاط الذي بلغ ذروته في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر . وقد قال ابن جبير عن عكا إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات في البحر كالأعلام » وشبهها بالقسطنطينية في كونها مجتمع السفن « وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق »^(٢) . ذلك أن عكا كانت الميناء الطبيعي لإقليم دمشق ، وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق سنة ١١٨٤ « في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة » ؛ وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة كما ظهر دهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس^(٣) . هذه إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات ، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية في الداخل .

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه في كثير من الحالات عن استقبال عدد كبير من السفن الكبيرة ، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانئ الأخرى في شمال الشام مثل اللاذقية والسويدية^(٤) . وهناك خطأ أن هذه الموانئ الصليبية لم تستقبل التجار المسيحيين فحسب ، بل

(1) Richard : op. cit, I, p. 217—277.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ [طبعة بيروت] .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 319—320.

استقبلت أيضاً في عصر الحروب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين ، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق بقصد المتاجرة^(١) . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون فيها في الموانئ الصليبية . وأخيراً ، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلي : —

أولاً : أن السلع التجارية التي كانت محوراً للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكماليات مثل الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والطور وغيرها .

ثانياً : إن النقود المتداولة في بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تبايناً شديداً لا يقل عن تنوع العناصر والأجناس التي اجتمعت في تلك البلاد . فبالإضافة إلى العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوروبا ، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العصر الصليبي^(٢) .

ثالثاً : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادي المحيط بهم في بلاد الشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات ، وعلى القوافل المارة بأراضيهم ، فضلاً عن الاحتكارات التي حاكي فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية^(٣) . ونكث أولئك الملوك دأبوا دائماً

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجاري يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب ، وأن القوافل تنتقل بين أراضي الطرفين في سهولة ، فقال : « ومن أحب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين » انظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ (طبعة بيروت) .

(2) Thompson : op. cit, p. p. 404 — 405.

(3) Longnon : op. cit, p. 140.

على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان ، فكان ريع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاستارية ، وريع المكس الفلاني يخصص للدواية ، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلاني مما حرم الملكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالاً بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربي في ذلك الوقت^(١) .

الحياة الاجتماعية :

لعل الخلل الاجتماعي وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التي تألف منها المجتمع الصليبي في الشام ، كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى ما لحق بالصليبيين من فشل في نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا في بلاد الشام ، ظلوا دائماً قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا في الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس ، في حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسي في بلاد الشام ، وتعمل من نفسها أرسقراطية حاكمية ، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرقي واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة^(٢) .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التي تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتي —

(1) Thompson : op' cit, I, p. 406.

(2) Richard : op. cit; p. 122.

(١) الأرسقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضاً في إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين . وقد ظلت هذه الطبقة — التي كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقري للمجتمع الصليبي بالشام — تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحرب ، وقلة الوارد من الغرب^(١) . حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولها إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس ، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة في الشام بعد الحج ؛ وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوروبا . ثم إنه إذا كان الصليبيون قد أنجبوا كثيراً من الأطفال في الشام ، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التي لم يألّفوها . وأخيراً فإنه يلاحظ أنه إذا كانت هذه الأرسقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت نقية في مملكة بيت المقدس ، فإن الأمر في أنطاكية والرها لم يظل كذلك ، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرسقراطية المحلية ، وبخاصة من عنصر الأرمن^(٢) .

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين ؛ وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا في الحركة الصليبية . وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة في الجيش الصليبي ، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين — وبخاصة الأرمن — ؛ مما أدى قرب منتصف القرن الثاني عشر إلى ظهور طبقة جديدة هي :

(1) Longnon : op. cit, p. p. 153—155.

(٢) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها — بلدوين الأول وجوسلين — من أرمنيات .

(٣) طبقة الأفراخ pullani ؛ وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين من أرمن وسريان وغيرهم . ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة ، وقامت بدورها في خدمة المجتمع الصليبي بالشام^(١) .

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وبيزنطيين وسريان ويعاقبة وأقباط وغيرهم . وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموماً ، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية . ولعلنا من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ، بسبب التخوف دائماً من تأمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردهم أو يقضوا عليهم — كما فعلوا مع اليهود — وإنما استبقوهم لمبارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحقة التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا ، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضي المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين . كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة في الدويلات الصليبية بالشام ، فضلاً عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين^(٢) .

(٥) التجار الإيطاليون ، وهؤلاء تركزوا في المدن الصليبية وبخاصة الموانئ الساحلية مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية . وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها ،

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 315—316.

(2) Thompson : op. cit. , pp. 398—399.

یتکامون الإيطالية ، ولا یختلطون بغيرهم إلا فی نطاق المعاملات المالية والتجارية .
 ويشبه التجار الإيطاليين فی وضعهم تجار مرسلین فی عكا و یافا وصور وجبیل
 وتجار برشلونة فی صور^(۱) .

(٦) المسلمون ، وهم أهل البلاد الأصلیون وسكان المدن والبلاد التي احتلها
 الصليبيون . ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو
 الصليبي ، إلا أنه لا یخفی علينا أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع
 الصليبي وتؤثر فيه^(۲) . ومن أهم الجاليات الإسلامية التي ظلت باقية رغم احتلال
 الصليبيين لبلادها ، الجالية التي سكنت المنطقة الممتدة من بانیاس إلى عكا ،
 والجالية القائمة فی حوض نهر العاصی وسهل البقاع . یضاف إلى هؤلاء قبائل البدو
 الرحل الذين ظلوا ینقلون خلف المرعى من مكان إلى آخر ، معهم قطعانهم من
 المواشي ، وینتهزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين
 وممتلكاتهم^(۳) .

(٧) الرقيق والأقنان ؛ كان لا یمكن للصليبيين بالشام أن یستغنوا عن
 الرقيق والأقنان ، بعد أن اعتادوا فی الغرب وجود تلك الطبقة لیعمل أفرادها فی
 فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق
 فی الشام — على عصر الحروب الصليبية — من الأقنان . وإذا كانت أوضاع
 العبيد والأقنان قد أخذت تتحسن فی القرن الثاني عشر فی الغرب الأوربي ،
 وأصبح فی استطاعة كثيرین منهم أن یتحرروا ویمارسوا حقوقهم المشروعة فی
 الحياة^(۴) ، فإن الوضع لم یكن كذلك ببلاد الشام . ذلك أن العبيد والأقنان

(1) Runciman : op. cit; II, p. 294.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. p. 123—124.

(3) Thompson : op. cit, p. 398.

(۴) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ۲ ص ۸۸ .

قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم في بلاد الشام ، مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامي^(١) . وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن « العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء ، وأن للسيد أن يفعل ما شاء بعبيده ! »^(٢) .

هذا عن البناء الاجتماعي لدولة الصليبيين بالشام ، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض ، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين . وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الأصل وإن اختلفت لهجاتها ، فاستخدم الصليبيون في أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية (Langue d'oeil) ، واستخدم الصليبيون في إمارة طرابلس اللهجة الجنوبية من اللغة الفرنسية (Langue d'oc) أما الأقليات الأخرى التي وجدت داخل المجتمع الصليبي ، فاستخدم كل منها لغته الخاصة . ويشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية ، وهي ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة^(٣) .

أما العادات والتقاليد فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين في بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلاً بعاداتهم وتقاليدهم الغربية^(٤) . ويروي لنا أسامة بن منقذ كثيراً من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم ، وفي الوقت نفسه يحكي لنا كثيراً من القصص الطريفة التي تشهد على مدى تأثير الصليبيين

(1) Thompson : op. cit, I, p, 398.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 226.

(3) Longnon : op. cit; p. p. 155—156.

(4) Runciman : op. cit, II, p. 291.

بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم العرب في كثير من عاداتهم^(١) .

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين في الشام عما كان عليه الوضع السائد في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أن طبيعة الحرب الطويلة ووجود عدد كبير من شبان الغرب الأعزاب الذين طال بعدهم عن بلادهم، أدى أحياناً إلى شيء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام . وقد ذكر أسامة بن منقذ بضعة ملاحظات على الصليبيين في هذا الشأن فقال : أنه « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » ، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامراته عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث « فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى !! »^(٢) .

كذلك يبدو أن الأوضاع التي عاش فيها الصليبيون في الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية ، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي^(٣) ، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوروبا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجند المحاربين . من ذلك ما يرويهِ عماد الدين السكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ١١٨٩ أن « وصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر (جزر البحر) وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن

(١) انظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن « طبائع الإفريج وأخلاقهم » .

(٢) كتاب الاعتبار ص ١٣٢ - ١٤١ .

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .

تسبيل أنفسهم للاسقياء ، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة..»^(١)

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ١٨٤ .
 أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

الفصل الثاني والعشرون

القوى الإسلامية في الشام والعراق

أهوال - ترجمة: فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (١١٠٥ - ١١١٨) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار في طريق الانزلاق الذي تردت فيه منذ عهد بركيارق، وأن يقوم بنصيب وافر في محاربة الصليبيين في العراق والشام. حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد، وأنه كان يكتفي بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتال الصليبيين، ولكننا يجب أن نقدر الظروف التي أحاطت بالسلطان محمد السلجوقي وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه في فارس والعراق ليتنازعاها أمراؤه، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم في التحرر من سيطرة السلاجقة. ولا أدل على ذلك من ثورة بني مزيد، وهي القبيلة العربية التي كانت تنتشر في العراق غربي دجلة في المنطقة من البصرة حتى هيت^(١)، إذ انتهر صدقه بن مزيد (١٠٨٦ - ١١٠٨) فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة، غربي الفرات. ولم يلبث صدقه أن « عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جاهه واتسع واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم »؛ فاتخذ لنفسه لقب « سيف الدولة »، وأخذ يعمل لإنشاء دولة لنفسه في العراق مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب « أمير العرب »^(٢). كذلك لم يتردد صدقه في مساعدة محمد بن ملكشاه ضد

(١) ابن الأثير: الكامل؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ.

(٢) المرجع السابق.

أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه باعطائه واسط و يسمح له باحتلال
 البصرة . ولكن لم يسكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنسكرك لصدقه
 وخشى عاقبة أطماعه ، لا سيما عندما رفض صدقه إطاعة أوامر السلطان والمسير
 ضد الصليبيين للجهاد ، بل إنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد
 كانوا جميعا من الشيعة ، وصفهم أبو المحاسن بأن « الجميع رافضة » مما أثار حنق
 السلاجقة — وهم سنيون — عليهم ^(١) . وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان
 محمد شاه جيوشه ضد صدقه ، فأنزات به الهزيمة ، وسقط صدقه قتيلا سنة ١١٠٨ ،
 وإن كان السلطان السلجوقي قد أكرم أرملة صدقه فأرسل لها أمانا « واعتذر
 إليها من قتل زوجها » وسمح لابنها ديس بأن يحل محل أبيه صدقه في إمارته ^(٢) .
 أما في الميدان الصليبي فقد فشل السلطان محمد السلجوقي في حملاته وجهوده
 ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح في نشر نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك في
 منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذي
 كان في الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم في أيدي وزرائه وعمه سنجانر
 شرف الدين أنوشروان ، في حين انغمس محمود نفسه في اللهو . وفي ذلك العصر
 بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها ^(٣) ؛
 وانعكس ذلك الضعف في العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية في الشرق الأدنى .
 ذلك أن سنجانر وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ،
 ولم يعبأ بالشام وما كان يجري فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين .
 وكذلك فعل الفرع السلجوقي في الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

وقد اتهم البعض الأمير صدقه بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفي عنه هذه

التهمة ويقول : « إنما كان مذهبه التشيع لا غير » .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.p. 522—523.

بین أمرائها بعضهم و بعض ، أو بينهم و بین بنی دانشمند حینا و البیزنطیین أحياناً ،
و ترکوا إخوانهم فی الشام یواجهون الصلیبیین و حدهم^(۱) .

الخزوف: العباسیة و الخزوف: الفاطمیة :

أما الخلافة العباسیة فكانت فی ذلك الوقت مجرد صورة شکایة دون أن
یکون لالخليفة العباسی أی ظل من السلطان و النفوذ . و لعل ضعف الخلافة العباسیة
فی ذلك الوقت هو الذي شجع دبیس بن صدقة علی مهاجمة بغداد نفسها سنة ۱۱۲۰ .
و كان دبیس — مثل أیبه صدقة — شیعیاً ، فلم یحجم عن نهب المدينة و سلبها
« و أتى بها من النهب و القتل و الفساد ما لم یجر مثله » ؛ بل إنه نصب مخیمه فی
مواجهة قصر الخليفة العباسی المسترشد بالله ، الذي لم یجد وسیلة لدفع ذلك الخطر
سوی الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقی^(۲) .

وهكذا ظل دبیس یهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتی أمر السلطان
محمود أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقی أتابک الموصل — بمحاربتة ، ولكن
الهزيمة حلت بأتابک الموصل علی الضفة الشرقیة للفرات سنة ۱۱۲۲^(۳) . وقد
أدى انتصار دبیس علی البرسقی إلى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسی
یستغیث بالسلاجقة من جدید . و أخيراً حلت الهزيمة بالأمیر دبیس عند
المباركة — بین بغداد و الكوفة — فی ربيع سنة ۱۱۲۳ ، فنقل دبیس نشاطه إلى
البصرة ثم إلى قامة جعبر فی شمال الشام حیث « التحق بالفرنج و حضر معهم
حصار حلب و أطمعهم فی أخذها »^(۴) .

(۱) ابن الأثیر : الکامل ، حوادث سنة ۵۱۳ هـ .

(۲) ابن الأثیر : الکامل ، حوادث سنة ۵۱۴ هـ .

(۳) المرجع السابق ، حوادث سنة ۵۱۶ هـ .

(۴) المرجع السابق ، حوادث سنة ۵۱۷ هـ .

ولعل في قصة ديبس بن صدقة ما يكفي لإيضاح الوضع المؤسف الذي انحدرت إليه القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم في بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض في الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمي نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسي المسترشد (١١١٨ - ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسي مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ؛ عارضه السلطان محمود السلجوقي ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير إلى بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد يبكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله » . وقد استطاع عماد الدين زنكي — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقي — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالي ؛ في حين اضطر الخليفة إلى الخضوع في نهاية الأمر « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » (سنة ١١٢٧) (١) .

أما الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ؛ إذ جاء مقتل الوزير الأفضل في ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك في الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بمقام به بدر الجمالي أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدير أمورها (٢) . وهكذا ضمن الصليبيون في الشام قسما من الاستقرار في أوائل القرن الثاني عشر أمام تدهور نفوذ السلطنة والعباسية في الشرق

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٢٩ — ٣٠ .

(2) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 268.

من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية في الغرب من ناحية أخرى (١) .

طائفة الإسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى وأحداث تلك الحروب، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة في هذه الدراسة . ونقصد بهذه الفرقة الإسماعيلية، الذين ينسبون إلى اسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ) . وقد نجح أتباع اسماعيل هذا في إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تزعم الدعوة الإسماعيلية التي اشتد ساعدها بصفة خاصة في مصر وفارس والشام . على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧ هـ أن تصدعت الدعوة الإسماعيلية ، فانشق أتباعها في فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم الفرزية (٢) .

ومن أهم المبادئ التي أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب . وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم « الباطنية » (٣) .

وكان أول دعاة الباطنية ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح في فارس ، وساعده على ذلك تفكك

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530.

(2) Setton : op. cit; I, p. 101—102.

(٣) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧١ .

الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع في بلاد فارس ، والثاني محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعه لتسكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التي استولى عليها الحسن الصباح قاعة الموت في طبرستان قرب قزوين ، وقلعة شاه ذر وقلعة خان ، وهما على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ (١) .

وترجع أهمية الحسن الصباح في التاريخ إلى براعته الفائقة في التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيمًا محكمًا أساسه مبدئان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة الزارية إلى خمس :

- ١ — مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا في قبضتهم بين شئون الدين والدنيا ، — أي الدعوة والدولة جميعاً — فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والشام وغيرها من البلاد (٢) .
- ٢ — مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يعمل على نشر الدعوة الباطنية في جزء من العالم الإسماعيلي ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية الزارية في الموت .

٣ — مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يتبعون دعاة

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 108—109.

(٢) طه أحمد شرف : دولة الزارية ص ٨٠ .

الدعاة ويتاقون تعاليمهم في قلعة الموت ، ثم ينشرون الدعوة ويعطون العهود للمستجيبين لها^(١) .

٤ - مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة^(٢) .

٥ - مرتبة الفداوية أو الفدائيين ، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم ، وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التي استخدمها الحسن الصباح وخلفاؤه في قتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى في اختيار أولئك الفداوية الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور ، والقوة البدنية الفائقة التي تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم^(٣) .

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مراتب التنظيم الإسماعيلي ، بوصفهم الأداة العاملة التي قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة في التضحية^(٤) . وقد ذكر الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة الموت حديقة حرص على أن يجعل لها جميع صفات الجنة من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه شهية من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المسكونون . . . وغير

(1) Sykes : History of Persia vol. 2, p. p. 37—38.

(2) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. 2, p. 206.

(3) Ivanow : An Islamic Ode in Praise of Fidawis, p. p. 63—64.

(4) Setton : op. cit, I, p. 108.

ذلك من مختلف أنواع المغريات التي جاءت في أوصاف الجنة . و بعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروباً مخدراً -- لعله من نبات الحشيش -- مما جعل اسم « الحشيشية » يلصق بتلك الطائفة من الإسماعيلية في التاريخ ^(١) . فإذا ما فقدوا وعيهم حملوا إلى تلك الجنة ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أنفسهم في الجنة فعلاً ^(٢) . على أنهم لا يتركون في جناتهم طويلاً ، إذ يخذرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبوتهم إلى دار شيخ الجبل حيث كان المجلس الأول . وعندما يفيقون ليسألهم أين كانوا فيؤكدون له أنهم كانوا في الجنة ، وعندئذ يعدهم شيخ الجبل بالخود في تلك الجنة إذا هم قتلوا فلانا وفلانا من الأشخاص الذين يحدد لهم . وبذلك يثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه ، ويشعرون بالرغبة في التضحية بكل شيء في سبيل العودة إلى الجنة التي سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها ^(٣)

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر . وينقسم الدور الذي قام الإسماعيلية في عصر الحروب الصليبية إلى قسمين : أولهما مقاومة المذهب السني والعمل على الفتك بزعمائه وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم . ولم يفرق الإسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين المسيحيين . وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً ، وفي سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج

(١) نوكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزي to assassinate بمعنى يقتال أو يقتل ، والاسم منه assassin بمعنى قاتل ، إنما مشتقة من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاعتقال في عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض المراجع العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء في قاموس أكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمتا « حشاش وحشيشية » العربيتان . ويدل هؤلاء العلماء على رأيهم أن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالي في اللغات الأوربية إلا في عصر الحروب الصليبية .

(2) Michaud : op. cit, II, p. p. 72—73.

(3) Marco Polo : Travels, p. p. 49—53.

زعماءهم من مخالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة السنين أحياناً . وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوى إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية^(١) .

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان المسلمون في حالة دفاع ضد الصليبيين، ان تعرضوا لطغفات قوية من الخلف من جانب الباطنية ، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم ، في حين تماسك الصليبيون وحرص أمراءهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر سنة ١١٠٩ ، « إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله . . . فملكوه وأخرجوا من كان فيه » وانزعوه من أصحابه بنى منقذ^(٢) .

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذي استغله الباطنية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم ، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم في عصر الحروب الصليبية بالذات من الأمراء وغير الأمراء . ومن ضحايا الحسن الصباح كان الوزير الساجوق نظام الملك الذي قتله الباطنية سنة ١٠٩٢ ، فخسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التي ارتبط بها تاريخ السلاجقة . وأسف الناس عليه « لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقهاء والقرآن »^(٣) .

وزاد من نفوذ الباطنية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر ، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمائته لهم . وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ

(١) Setton : op. cit; I, p. p. 109—110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

أول زعماء الباطنية بالشام ، وعصلا على مكانة كبيرة لدى رضوان ، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين والصليبيين جميعاً . وقد افتتح الباطنية نشاطهم في بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣^(١) ؛ ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب فاميه بعد ذلك بثلاث سنوات « قتل قوم من الباطنية نفذهم إليه المعروف بأبي طاهر الصائغ العجمي من حلب »^(٢) .

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمراءهم بالشام وجدوا في الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . ومن ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طفتكين أتابك دمشق^(٣) ؛ وما لجأ إليه طفتكين أتابك دمشق فعلا من استخدام بعض الباطنية في قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣^(٤) . وعندما أحس الباطنية أنهم مكروهون في حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان ، حاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر ، ولكنهم فشلوا في ذلك .

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد ، ولكن يبدو أن جهودهم لم تكفل بالنجاح التام ، كما أنهم فشلوا في الاستيلاء على قلعة الموت . ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد الساجوقى ، « فإن لما علم أن مصالح العباد والبلاد بمحو آثارهم (الباطنية) وإخرا بديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه . وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, p. p. 485—486.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Or. Hist. III, p. p. 601-602)

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة ألموت ؛ فأمر السلطان بعض أمراءه بمهاجمته ، ومازالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان ~~ك~~ ولكن الحسن الصباح ظل رابضاً في قلعة ألموت في خراسان ، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب في قلوب الناس في الجهات المجاورة « لكثرة إغاراته عليهم وقتله لهم وأسر رجالهم وسبي نسائهم » ، دون أن تستطيع الجيوش الساجوقية الوصول إليه أو القضاء عليه^(١) .

ثم إن نشاط الباطنية في الشرق الأدنى في ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب ، وإنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق . ففي القاهرة نسمع من المراجع عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية في أحد طرق القاهرة سنة ١١٢١ . أما في دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن توفي رضوان صاحب حلب سنة ١١٢٣ وتعرضوا لتفكيك ابنه الملك البارسلان الذي قتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ واسماعيل الداعي وأخي الحكيم المنجم وغيرهم ، مما جعل أتباعهم يتفرقون في البلاد^(٢) . ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ، ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طفتكين « وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته ، وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية »^(٣) . وهكذا أخذ بهرام ينشر الدعوة الاسماعيلية ، حتى « استفحل أمره وعظم خطبه في حلب والشام ، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزي واللباس ، بحيث يطوف البلاد والمعقل ولا يعرف أحد شخصه »^(٤) . على أن بهرام خشي أهل دمشق وهم من السنة ، فما زال يسعى

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ هـ .

(٣) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

(٤) المرجع السابق .

عند طغتكين حتى منحه بانياس سنة ١١٢٦ . وسرعان ما غدت بانياس « حصناً يأوى إليه ومعقلاً يحتمى به ويعتمد عليه »^(١) . ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد « إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت المحنة بظهوره ، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، لا سيما أهل السنة ، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم (طغتكين) أولاً ومن شر الاسماعيلية ثانياً ؛ فلم يقدر يقدم أحد على هذه الحال وانتظروا بهم الدواير . . . »^(٢) . أما ابن القلانسي فيقول إن بهرام لم يكده يستولى على بانياس حتى « اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطعام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله ، واستألمهم بخدعه وأضاليه ، فعظمت المصيبة بهم وجلت المحنة بظهور أمرهم ، وضاعت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين »^(٣) .

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية ، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى ، إذ « شرعوا في قتل من يعاندهم ، ومعاوضة من يؤازرهم على الضلال ، ويرافدهم بحيث لا ينفكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يغفل حد شرهم متقدم ولا أمير ! »^(٤) . وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقي في فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعتههم شاه ذر - المجاورة لأصفهان - وفتحها وقتل من فيها من الباطنية^(٥) ، فإن هذه الضربة التي حلت بالباطنية في فارس لم تؤثر في نشاطهم

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن القلانسي ؛ ص ٢١٥ .

٥ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ هـ .

بالشام ، حيث استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم ويضاعفون نشاطهم يوماً بعد يوم^(١) .

ومن بانياس أخذ بهرام يبعث الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الاسماعيلية من ناحية ولتنفيذ مآرآه من اغتيالات سياسية من ناحية أخرى . وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم في الاستيلاء على حصون جديدة في جبال الشام ، مثل حصن القدموس^(٢) . وأخيراً أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر في التخلص منهم ، ولكنه توفي في فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل ضدهم . وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملك بوري في حكم دمشق ، فاحتفظ بأبي علي طاهر بن سعد المزدقاني (المزدغاني) وزيراً له . وقد أفرط المزدقاني في العطف على الباطنية ، وقرب مندوبهم في دمشق — واسمه أبو الوفا — الذي وصفه ابن الأثير بأن سلطته في دمشق فاقت سلطة تاج الملك بوري نفسه «وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملك»^(٣) .

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمي وادي التيم واسمه برق بن جندل دون سبب ، فأصر قومه على الأخذ بشأره . وفي الاشتباك الذي حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨ ، حلت الهزيمة بالباطنية ، وقتل منهم كثيرون ، وقطع رأس بهرام ، وبذلك ضعف شأن الباطنية «وقلت عدتهم وانقصت شوكتهم وانقلت شكوتهم»^(٤) ! وقد خلف بهرام في بانياس رفيقه اسماعيل العجمي الذي حظى هو الآخر بمطف الوزير أبي علي طاهر المزدقاني في دمشق «في المساعدة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥١ ، ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي : ص ٢٢٢ .

مراده والمعاضدة على أغراضه»^(١) . واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين ، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه — هو والإسماعيلية — مدينة صور بدلها^(٢) . وكان أن أبرمت الاتفاقية ، وحدد أحد أيام الجمعة والمسلمون في المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين^(٣) .

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها ، فقتل بوري وزيره الخائن أبو علي طاهر المزدقاني وأحرق جثته^(٤) ؛ وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩ للتخلص من الباطنية ، « ونادى (بوري) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس » . وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم ، فتمقبوهم « وتبهموهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر » . ولم تلبث أخبار ما حدث للباطنية في دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم في بانياس « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ؛ واستنجد إسماعيل العجمي بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه . وهكذا تسال الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم « في غاية من الذلة وسهابة من القلة » في حين مات إسماعيل العجمي بعد قليل ودفن في بانياس^(٥) .

ومع ذلك فقد استمر نشاط الحشيشية الهدام في منطقة الشرق الأدنى بقية عصر الحروب الصليبية . من ذلك أنهم قتلوا في همذان قاضي القضاة زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر الهروي أثناء عودته من خراسان إلى بغداد ، ولم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٢٣ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٤١ (مخطوط) .

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist Or. p. 567)

يجرؤ شخص على أن يتبعهم « للخوف منهم »^(١) . وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل^(٢) . وفي سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان ؛ وكان ذلك الوزير قد فتك بجماعة منهم وحرص السلطان على « النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم »^(٣) . وفي سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم في الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بوري أتابك دمشق والانتقام منه لما حل بإخوانهم في دمشق وبانياس . وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا في الاعتداء على بوري ، ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية^(٤) . وفي سنة ١١٣٥ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسي إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية . وفي سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصياث (مصياث) « بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له »^(٥) . وفي سنة ١١٥٢ قتل بعض الباطنية ريموند الثاني أمير طرابلس . ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ، ولكن يكفي أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبي نفسه — كما سيلي فيما بعد — ولكن الله سلم .

وهكذا ظلت الاسماعيلية مصدراً خطيراً للانحلال السياسي والاجتماعي في بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية^(٦) .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 653)

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(6) Setton : op. cit: I. p. 109—110.

حلب والموصل :

اختار السلطان محمد السلجوقي سنة ١١١٨ آقسنقر البرسقى حاكم الموصل ليلي شحنكية بغداد ، أى ينوب عنه فى بغداد لدى الخليفة العباسى المسترشد^(١) ؛ ثم عاد السلطان محمود سنة ١١٢٤ فأقطع البرسقى من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين^(٢) . ولم يابث البرسقى وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لفجدهم ضد الصليبيين ، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى أتاحت له السيطرة على حلب ، لا سيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة ؛ فخف إليها وصحبته طفتكين أتاك دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص — ووصلوا جميعاً إلى حلب فى أواخر يناير سنة ١١٢٥^(٣) .

وهكذا اجتمعت حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد — هو البرسقى — مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى أطراف العراق والشام ، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد . ولا شك فى أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر ما يخشاه الصليبيون نظراً لما يمكن أن ينبجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى ، فضلاً عما فى تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم^(٤) .

(١) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسى فى بغداد لقب شحنه ، وهو لقب فارسى أما الوظيفة نفسها ، فقد أطلق عليها اسم « شحنكية بغداد » .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 631.

(٣٦م — الحركة الصليبية)

ثم إن هذه الخطوط التي اتخذها البرسقى زاد من خطرهما أنه كان يتمتع بعطف السلطان محمود السلجوقى « لأنه كان ناصحاً له ملازمه في حروبه كلها »^(١). وقد ظل البرسقى محتفظاً بولائه للسلطان الذى عهد إليه بمهمة الجهاد ، وبناء على ذلك فإن البرسقى كان يمثل فى تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى فى الجبهة الشرقية من العالم الإسلامى ، ولا تستطيع قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى أطراف العراق أو بلاد الشام أن تقف فى وجه البرسقى أو أن تنافسه فى مكائده وزعامته . وعلى هذا الأساس أخذ البرسقى يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين فى بلاد الشام وشمال العراق ، طوال سنتى ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، حتى كان مقتله فى يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ بأيدى الباطنية فى الموصل^(٢) .

وقد خلف آقسنقر البرسقى فى حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود . على أن مسعود لم يلبث أن وقع فى خلاف مع طغتكين أتابك دمشق ، ففس له الأخير السم ، وبذلك توفى مسعود فى العام التالى بالرحبة^(٣) . ولا شك فى أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات فى حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ ، وهو الذى عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقى . لذلك استنجد أهل حلب بيد الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو الذى سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ - ١١٢٣ ، قبل أن يطرده بلك^(٤) .

ولا شك فى أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) النورى : نهاية الأرب ج ٣٥ ورقة ١٠ (مخطوط) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(٤) النورى : نهاية الأرب ج ٣٥ ورقة ٣٩ (مخطوط) .

موقف الصليبيين، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهموند الثاني أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها^(١). بل إن الملك بلدوين الثاني - ملك بيت المقدس - هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩، كما سبق أشرنا^(٢). وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكي، فبدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى.

ظهور عماد الدين زنكي:

أما عماد الدين زنكي هذا، فكان أبوه قسيم الدولة آقسنقر الحاجب، قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقي، «ومن أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه»، واعتمد عليه في أموره كلها^(٣). وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤؛ قتله تتش أخو ملكشاه، فنشأ زنكي بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ودخل في خدمة اتابكة الموصل: جاولى ثم البرسقي، حتى وصل إلى حكم البصرة، وعندئذ كلفه السلطان محمود السلجوقي بإخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . &

Guillaume de Tyr p. 590.

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (p. 567—568) &

ابن القلانسي؛ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) ابن واصل، مفرج السكروب، ج ١ ص ٢١ (مطبوع).

(٤) ولي المسترشد الخلافة العباسية سنة ١١١٨، وأراد أن يستغل المنازعات التي غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم، الأمر الذي جعل السلطان محمود السلجوقي يمهّد إلى زنكي بإخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦. ويقول ابن الأثير إن برنقش الزكوي شحنة بغداد هو الذي سار إلى السلطان، واستناره على الخليفة «وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق».

(التاريخ الباهر، ص ٢٨٠ — ٢٩٠).

وكان أن أظهر زنكي همة كبيرة وكفاية عالية في تلك المهمة التي كلفه بها السلطان ؛ فأنزل المهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد ، وانتصر على الخليفة المسترشد الذي اضطر إلى الإذعان للسلطان في يناير سنة ١١٢٧ (١) . وهكذا لفت زنكي الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته ، فولاه السلطان « شحنة العراق » في ابريل سنة ١١٢٧ ، وهو المنصب الذي جعل منه رقيباً على الخليفة (٢) . وحوالي ذلك الوقت — أو بعده بقليل — توفي عز الدين مسعود بن البرسقي أتاك الموصل وحلب ، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقي في فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم ، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين (٣) .

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكي « لما يعلمه من كفايته لما يليه » ، فعينه أتاكاً على الموصل سنة ١١٢٧ . وبعد أن نظم زنكي أمور الموصل ، استولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم توجه إلى حران التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة ؛ فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت في يد أمينة (٤) . ثم إن زنكي اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) يروي ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له : « قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها . وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد البافية بيد المسلمين . وقد كان البرسقي مع شجاعته وتجربته وانقياد العسكر إليه مكف بعض عاديتهم وشرفهم ، فمذ قبل ازداد طمعهم ، وهذا ولده صغير . ولا بد للبلاد من رجل شجاع ذا رأي وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها . . . » .

وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابهاً (مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ — ٣٣) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ .

إلا بعد أن يضع يده على حلب أولا وينظم أمور تلك البلاد . لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها^(١) .

وكانت حلب — كما سبق أن ذكرنا — قد وقعت في حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عزالدين مسعود بن البرسقى ، فأصبحت ميدانا للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى ، وإبراهيم بن رضوان السنجوقى ؛ في الوقت الذى أراد كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية أن يستفيد من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب^(٢) . ولكن وصول زنكى إلى حلب فى ذلك الوقت — سنة ١١٢٨ — أفسد على جميع أولئك الطامعين أغراضهم ، لأن زنكى كان يحمل تقليدا من السلطان بحكم حلب ، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يتمكن لنفسه فى حلب بسهولة ، فدخلها فى ١٨ يونية سنة ١١٢٨ ، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . . . ولولا أن الله تعالى منّ على المسلمين بولاية الشهيد (زنكى) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه »^(٣) .

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكى بمشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية فى العراق والشام ؛ وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد فى فبراير سنة ١١٢٨ ؛ وهو الرجل الذى حظى بنفوذ قوى فاق نفوذ بقية الأمراء المسلمين ببلاد الشام . ولكن يتمكن زنكى من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خاتون بنت الملك رضوان

(١) « فإدنه مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد » .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(2) Stevenson : op. cit, p. 119.

(٣) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص ٣٧ — ٣٨ .

ابن تتش ملك حلب السلجوقي^(١) الأسبق؛ وذلك ليثبت مركزه في حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان في شمال الشام. والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود السلجوقي، الذي منحه «التواقيع السلطانية بملك الغرب كله»^(٢). وبعد ذلك عاد زنكي إلى حلب «في عسكره عازما على الجهاد»^(٣)؛ ومعه «منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما»^(٤).

وكانت ممتلكات المسلمين في بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى؛ الأولى محورها بوري بن طغتكين أتابك دمشق وكان يسيطر على دمشق وحماه في الشمال وهوران في الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) بن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربي الذي سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكي، فأعلنا ولاءهما وخضوعهما له، وبذلك لم يبق أمام زنكي سوى تاج الملوك بوري أتابك دمشق^(٥).

والواقع إن بوري الذي تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩، كان يخشى خطرا دائما من جانب بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكي من مخالفة ضد الصليبيين. على أن زنكي لم يلبث أن تنسكرك لذلك الحلف مع بوري، وانقض على حماه واستولى عليها في سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعها مقابل مبلغ كبير من المال للأمرير خيرخان (قيرخان) صاحب حمص^(٦). ولم يكد خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه ويستولى على حماه في ٢٠ سبتمبر

- (١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).
 (٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 658)
 (٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧.
 (٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).
 (٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨.
 (٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٣ هـ.

حتى غدر به زنكي، فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب ثم اتجه ليستولى على حمص ذاتها مثلما استولى على حماه^(١). ولكن زنكي ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً « لم يظفر منها بطايل^(٢) »؛ فعاد إلى حلب في أواخر سنة ١١٣٠. ولاشك في أن فشل زنكي أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمال الشام بضعة سنوات.

على أنه يلاحظ أن زنكي لم يمتص في طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المسلمين المحليين. وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأرتاقة الذين حكموا حلب في وقت من الأوقات. وقد عز على الأرتاقة أن يستأثر زنكي بحكم حلب وأن يزداد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم؛ فجمع حسام الدين تيمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقان بن أرتق صاحب حصن كيفا وغيرها من أمراء الأرتاقة في ديار بكر، قوة تبلغ عشرين ألف من التركمان ضد زنكي؛ ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجي فيما بين ماردين ونصيبين. ولاشك في أن هذا النصر ضمن لزنكي سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى^(٣).

أما عن علاقة زنكي بإمارة أنطاكية الصليبية في تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس، وطلبها بمساعدة زنكي للوصول إلى حكم أنطاكية^(٤). وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة، وبذلك حال دون استفادة زنكي من اضطراب أحوال الصليبيين في أنطاكية

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٤٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 660)

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٣٥-٣٦.

(4) Stevenson: op. cit, p. 129.

في ذلك الوقت . هذا وإن كان زنكي قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية ، مثل الأثارب وحارم ومعرفة مصرين . ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكي لم يستطع الاستيلاء على حصن الأثارب إلا بعد خمس سنوات ، أي سنة ١١٣٥ ؛ في حين ذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكي استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ « وجعله دكا وبقى إلى الآن خرابا . »^(١)

انقراض المساميين :

على أن زنكي لم يستطع أن يمضي قدما في مشروعه الخاص بتوحيد قوى المساميين بسبب الأحداث التي قامت في فارس والعراق ، والتي أدى تدخل زنكي فيها إلى صرفه عن ميدان الشام .

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوق سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير في دولة السلاجقة ، إذ تعرض ابنه البكر داود - الذي ورثه في السلطنة - لثورة أعمامه : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس ، وعمه الثاني مسعود ابن محمد ، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوين^(٢) . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة ، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود . وفي إحدى حلقات النزاع ، أيد الخليفة العباسي المسترشد سلجوق شاه ، فاستنجد مسعود بعهد الدين زنكي أتاك الموصل الذي « سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق » ؛

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (ps. 661,670) &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤٣ .

وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأيه عن ابن الأثير .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، أوراق ١٣ ، ١٤ ، ١٥ (مخطوط) .

وبذلك دخل زنكي دائرة الصراع الدائر في العراق وفارس ، مما صرفه مؤقتاً عن الشام وفلسطين^(١) .

وعندما زحف زنكى على بغداد لمأزلة الخليفة وسلاجوق شاه حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢^(٢) . على أن زنكى لم يلبث أن عاد في السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه « ملك العرب » ديس بن صدقة ؛ ولكن الهزيمة حلت بزنى من جديد « وقتل بينهم خلق كثير » ، فاضطر إلى الفرار نحو الموصل^(٣) .

ويبدو أن تلك الهزائم التي حلت بزنى شجعت الخليفة المسترشد فزحف على الموصل في صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها في ثلاثين ألفاً ؛ وعندئذ اضطر زنكى إلى الرحيل عنها ، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر^(٤) . وفي الوقت الذي كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل ؛ لجأ أتاك دمشق اسماعيل بن بوري إلى مهاجمة أملاك زنكى في الشام ، فحاصر حماة « وملك البلد قهراً » سنة ١١٣٣ . وهكذا أخذ البناء الذي أقامه زنكى يتداعى ابنة بعد أخرى على أيدي المساهين أنفسهم سواء في العراق أو الشام^(٥) .

ولا شك في أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب ، مما أدى إلى الهزيمة التي حلت بالأمير سوار - نائب زنكى

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردي والد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية . ويقال إن نجم الدين أيوب سمى زنكى عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة « وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بهما الدين ، حتى ملك بنو أيوب البلاد » . (أبو الفدا : المختصر ؛ سنة ٥٢٧ هـ) .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧ .

(5) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 55.

في حلب - في موقعة قنسرين (سنة ١١٣٢ - ١١٣٣)^(١) .

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول في صالح زنكي بعد قليل ؛ إذ فشل الخليفة العباسي في الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر ، فارتد إلى بغداد بعد أن « ضاقت الأمور بالعسكر » بسبب قلة الميرة والقوت^(٢) . هذا في الوقت الذي اضطربت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بوري سنة ١١٣٣ وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل في الحكم . وقد بدأ اسماعيل بن بوري حكمه بداية طيبة فاسترد بانياس من الصليبيين ، واسترد حصن اللبؤة والرأس من أخيه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك ، كما هاجم بعلبك نفسها^(٣) . ولكنه لم يلبث أن تعسف وتظرف مع رعاياه ، وأظهر « دناءة نفس » !^(٤) ، فأمعن في « ارتكاب القبائح والمنكرات ، وإيغاله في اكتساب المآثر المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل وصداء الحسن ، وظهور الجهل ، وتبليد الفهم وحب الظلم ! »^(٥) . وهكذا أصبح كل أحد في دمشق يخشى على حياته من تصرفات اسماعيل بن بوري ؛ ولم يسلم من ذلك أهل اسماعيل أنفسهم إذ قتل أخاه سونج « أشنع قتلة بالجوع في بيت ، وبالغ في هذه الأفعال القبيحة والظلم ، ولم يقف عند حد »^(٦) . وكان أن دبرت المؤامرات ضد اسماعيل من جميع من حوله ، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه ، فأرسل إلى زنكي يستعين به ، ويعرض عليه استلام دمشق « ليملكه من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم » . ثم إن اسماعيل هدد زنكي بتسليم

(١) انظر ما سبق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٥٧ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٥ هـ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

دمشق للصليبيين وقال له « إن أهملت الحجيء سامت المدينة إلى الفرنج^(١) » .
وقد وجد زنكى في ذلك العرض فرصته التي طالما تمنّاها لتوحيد الشام
الإسلامية ، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق . على أنه في الوقت الذي أخذ
زنكى يشق طريقه إلى دمشق ، تبدلت الأحوال فجأة ، إذ قتل اسماعيل بن بوري
في مؤامرة دبرتها أمه - صفوة الملك زمرد - (أول فبراير سنة ١١٣٥) ، وتولى
حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بوري الذي التف حوله أهل دمشق
ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً . ولما راسل زنكى أهل دمشق « لم يجبهوه إلى
مطلوبه ، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة
والذب عنها »^(٢) . وهكذا فشلت جميع الجهود التي بذها زنكى أمام دمشق
لضم المدينة ، وتزعم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين
أنر ؛ فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة في منتصف مارس سنة ١١٣٥
والعود إلى حلب ، لا سيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي يأمره
« بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير
له » . وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلاً تمثل عقبة كؤودا في سبيل إتمام الجبهة
الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها الخونة^(٣) .

على أن تحول مجرى الأمور في العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى
عمافاته في دمشق . وذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨ -
١١٣٥) لم تدم طويلاً ، لا سيما بعد أن هدأت الأمور في الدولة الساجوقية ونجح

(١) ابن واسل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الخلب (III, p. p. 668—669) &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٨ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

السلطان مسعود بن محمد (١١٣٤ — ١١٥٢) في التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة^(١) . وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد ، ولكن الأمر انتهى بهزيمة ونفيه ثم قتله بأيدي الباطنية في نهاية أغسطس سنة ١١٣٥ ، حيث مثلوا بجثته تمثيلاً شديداً^(٢) . ولم يجد خلفاء المسترشد ؛ أعنى الخليفة الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) والخليفة المقتفى (١١٣٦ — ١١٦٠) بدأ من الاستعانة بزركى « على خلاف السلطان مسعود » ؛ مما قوى نفوذه في شئون الخلافة العباسية بيفداد^(٣) .

زركى والصليبيون :

ولم يكد زركى يطمئن إلى جبهة العراق ، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفى العباسى والسلطان مسعود السلجوقى حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد^(٤) . وكان أن بدأ زركى في ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصى ، ونجح في تلك السنة فى الاستيلاء على (الأثارب) وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب^(٥) . ثم إن زركى حرص على

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ورقة ١٧ (مخطوط) .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٦٧ — ٧٠ .

ويروى ابن واصل أنه عند ما صاحبت الأمور بين زركى والخليفة المقتفى لأمر الله ، أمر الأخير بإفطاع عماد الدين زركى بعض نواحي من أملاك الخليفة الخاصة ، كما أمر بأن يزداد فى ألقابه « وهذه قاعدة لم يسمح لأحد من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب فى خاص الخليفة » .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب (III, 670—671)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن العديم هو الذى قال بأن عماد الدين زركى استولى على الأثارب فى تلك السنة . فى حين قال ابن الأثير — وأخذ عنه ابن واصل — إن زركى استولى على الأثارب قبل ذلك بخمس سنوات ، أى سنة ١١٣٠ .

إعادة أهالي تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم .
وبعد ذلك قام زنكي بإغارات متفرقة في السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص
وقنسرين ، حتى عاد إلى الموصل في خريف سنة ١١٣٥^(١) .

وبينما زنكي في الموصل مشغولاً مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية
والسلطنة السلجوقية^(٢) . إذا بنائيه في حلب — سيف الدين سوار — ينتهز
فرصة الاضطراب الذي كانت تعانيه إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها في
أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية^(٣) . وتروى المراجع أن سوار أغار
في تلك الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد معه « ما يزيد على سبعة آلاف
أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل
والحمير... »^(٤) .

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وخدمهم في ذلك الدور ؛ بل قام
الدماشقة أيضاً بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١١٣٧ . وكانت دمشق
قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات ، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه
بزواش ، الذي لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر في دمشق « وجعل
إليه الحل والعقد »^(٥) . ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه ، ففكر
في القيام بحملة ضد الصليبيين ترضي عليه شيئاً من المهابة والأهمية ؛ وشجعه على
ذلك النجاح الذي أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية في العام السابق^(٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الخاب (III, p. 671)

(3) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

وبصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير عنفها في تاريخ
تلك الإمارة منذ قيامها

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(6) Stevenson : op. cit, p. p. 137.

لذلك غزا بزواش إمارة طرابلس « واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن
الترکان أيضاً خلق كثير » . وعلى مقربة من قلعة صنجيل ، دارت المعركة بين
الدماشقة وبونز أمير طرابلس ، فقتل الأخير في أواخر مارس سنة ١١٣٧ ، وأسر
عدد كبير من أتباعه ، فضلا عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون^(١) .
وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية وطرابلس في الوقت الذي عاد زنكي
سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد^(٢) .

على أن زنكي آمن دائما بأن قيام وحدة بين الإمارات الإسلامية في الشام
يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين . لذلك بدأ زنكي في يونيه سنة
١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص ، التي كان يحكمها معين الدين أنر نائبا عن
البوريين في دمشق . وفي ١١ يوايه سنة ١١٣٧ علم زنكي أن الصليبيين أتوا
لنجدة حمص ، فاضطر إلى أن يترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة
بعرين (بارين)^(٣) . وكانت الجيوش الصليبية التي تقدمت لصد زنكي عند
بعرين بقيادة الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثاني أمير طرابلس
الجديد . ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، فقتل منهم أكثر من
ألفين وأسر كثيرون ، من بينهم ريموند الثاني صاحب طرابلس ، « وحمل عليهم
عسكر عماد الدين فكسروهم ومحققهم قتلا وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشيء
الكثير » . أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعرين حيث حاصره
زنكي^(٤) . على أن فولك استطاع أن يرسل طلبا للنجدة السريعة إلى بطرق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ . &

Guillaume de Tyr p. 640.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 69.

(٣) ابن السديم : زبدة الحلب (III, p. p. 672—673) &

ابن البلاسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بيت المقدس وجوسلين الثاني أمير الرها وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية^(١) .
ويبدو أن زنكي عمل حساباً لتلك النجدة التي بدأت تشق طريقها صوب
بعرين^(٢) ، فلم يمانع في عقد صلح في أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين
ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية
الأسرى ، كما يستولى المسلمون على بعرين فضلاً عن المراكز التي سبق أن
استولى عليها زنكي سنة ١١٣٥ شرقي نهر العاصي ، وهي زردنا ومعرة النعمان
وكفر طاب^(٣) .

(1) Guillaume de Tyr, p. 644—645.

(٢) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بعرين
أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي ، والغرب الأوربي « فدخات القسوس والرهبان
بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكي
إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت ، وأن همة المسلمين
مصرفة إلى فتح بيت المقدس ، فشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية » .
(ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ . &

Guillaume de Tyr, p. p. 650—651.

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧	الفصل الاول : ماهية الحركة الصليبية
١٧	» الثاني : بواعث الحركة الصليبية
٣٤	» الثالث : الاتراك واحياء قوة المسلمين
٥١	» الرابع : الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر
٨٢	» الخامس : الدعوة للجملة الصليبية الأولى
٩٨	» السادس : الامراء الصليبيون والدولة البيزنطية
١١٤	» السابع : الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم
١٢٥	» الثامن : تأسيس امارة الرها الصليبية
١٤١	» التاسع : الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس
١٧٨	» العاشر : الطريق الى بيت المقدس
١٩٨	» الحادي عشر : تنظيم الفتح
٢٠٥	» الثاني عشر : إتمام غزو فلسطين
٢١٨	» الثالث عشر : النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس
٢٢٩	» الرابع عشر : بلدوين الأول والفاطميون
٢٥٤	» الخامس عشر : بلدوين الأول والاتراك
٢٦٦	» السادس عشر : سياسة بلدوين الأول

٢٧٩	الفصل السابع عشر : ريمند الصنجيلي والصليبيون
٢٨٩	» الثامن عشر : ريموند وتأسيس امارة في الشام
٢٩٨	» التاسع عشر : أعمال وليم جوردان
٣٠٣	» العشرون : برترام وظهور امارة طرابلس
٣١٥	» الحادي والعشرون : حياة الصليبيين وندمهم في الشام
٣٣٦	» الثاني والعشرون : القوى الاسلامية في الشام والعراق

